

تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا

لمصنفه

الشيخ محمد عياد الطنطاوي

تصدير

د. أحمد الشوكي

تقديم

أ. يوسف القعيد

دراسة وتحقيق

د. علي متولي أحمد



تحفة الأذكيا
باخبار مملكة الروسيا

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد الشوكي

الطنطاوي، محمد بن عباد بن سعد بن سليمان، ١٨١٠ - ١٨٦١.

تحفة الأذكياء بأخبار مملكة الروسيا/ لمصنفه محمد عياد الطنطاوي؛ تصدير أحمد الشوكى؛ تقديم يوسف القعيد؛ دراسة وتحقيق على متولى أحمد. ـ القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٨.

٣١٨ ص ؛ 24 سم.

تدمك 2 - 1313 - 18 - 977 - 978

١ - روسيا - وصف ورحلات ٢ - التأريخ.

أ - الشوكى، أحمد (مصدر)

ب - القعيد، يوسف (مقدم)

جـ - أحمد، على متولى (دارس ومحقق).

د - العنوان

٩١٤,٧

إخراج وطباعة:

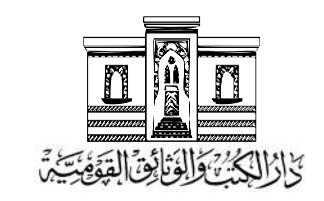
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٢٩٤ / ٢٠١٨

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 1313 - 2





تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا



لمصنفه

الشيخ محمد عياد الطنطاوي

تصدير

د. أحمد الشوكي

تقديم

أ. يوسف القعيد

دراسة وتحقيق

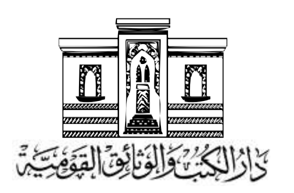
د. علي متولي أحمد



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

(١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨ م)


دار الكتب والوثائق القومية
The National Library and Archives of Egypt



تحفة الأذكيا
بأخبار مملكة الروسيا



تصدير

تقوم الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية بدور بارز في مجال تحقيق وطبع التراث العربي بمنهج رصين، وتقديمه للقراء والباحثين العرب؛ لينهلوا منه علوم أجدادهم، وليتعرفوا من خلاله على تراثهم الأدبي والتاريخي والعلمي، وهو أمر أصبح لازمًا علينا في ظل المتغيرات العالمية المتلاحقة، والمحاولات الحثيثة لطمس هوية شعوبنا العربية، والكتاب الذي بين أيدينا اليوم هو نتاج لهذا الجهد، ويتميز هذا الكتاب بأنه من نتاج أحد أبناء مصر النجباء الذين لا يعرف مجتمعنا عنهم الكثير، وهو الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وهو اسم لم تحتف به كتب التاريخ المصري كما احتفت بأقرانه أمثال رفاعة الطهطاوي وغيرهم، على الرغم من جليل خدمته للثقافة العربية، وقد ولد الشيخ عام ١٨١٠م ودرس بالأزهر الشريف، ودفعته تقلبات الحياة إلى السفر إلى المملكة الروسية؛ لتدريس اللغة العربية بها لحوالي خمسة عشر عامًا متواصلة، وهو الأمر الذي تفوق فيه حتى إنه أصبح رئيسًا لقسم اللغة العربية بجامعة بطرسبورج؛ وقد وصلت مكانته هناك إلى أن قدم له القيصر الشكر على هذه الجهود في عام ١٨٥٠م، وقد انعكس ذلك كله على كتابات الروس عنه إبان تلك الفترة، حتى وصفه بعضهم بأن "...طيبة قلبه وطبعه تشبه صفات الأطفال، وأن ذكاءه واستقامته يستدعيان الاحترام الشديد".

وظل الشيخ الطنطاوي مجاهدًا في خدمة العلم تدريسًا وتأليفًا إلى أن بلغت مؤلفاته التي وصلتنا حتى الآن إلى واحد وأربعين مؤلفًا تقريبًا، إلى أن أصابه المرض، ثم

تقاعد عن العمل، وتوفي ودفن في روسيا في التاسع والعشرين من أكتوبر ١٨٦١، وقبره الآن معروف بها، وتعكس مؤلفاته بطبيعة الحال خلاصة تجربته وأفكاره ورؤيته، إضافة إلى ذلك فهي تعد خيطًا مهمًّا من خيوط العلاقات المصرية الروسية الوطيدة، بما تحويه من معلومات قيمة عن روسيا إبان تلك الفترة، بوجهة نظر مصرية خالصة في هذا المجتمع وتاريخه وعاداته، ويستشعر القارئ مدى سهولة ويسر استنباط هذه المعلومات بفضل الجهد الذي بذله النابه الدكتور على متولي أحمد الباحث بمركز تاريخ مصر المعاصر لتحقيق هذا النص، وإخراجه بهذا الثوب القشيب بين يدي قرائنا الأعزاء.

د. أحمد الشوكي

رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة

لدار الكتب والوثائق القومية

تقديم

الشيخ/ محمد عيّاد الطنطاوي

الأزهري الذي مات ظلمًا واغترابًا في روسيا

حتى أنا ظلمته دون أن أدري، وقفت في طابور من ظلموه، وهو أطول طابور لظلم إنسان، يمتد في الزمان من القرن الماضى، ويصل حتى زماننا، ويتربع فى المكان، من روسيا إلى مصر المحروسة، مرورًا بالإمبراطورية العثمانية.

والحكاية، أنني قضيت أسبوعًا فى مدينة لينينجراد بالاتحاد السوفييتي، كانت الزيارة الأولى، حيث العودة إلى بحار الدهشة القديمة، ومحاولة تذوق المرئيات.

بعد العودة، وجدت السؤال فى انتظاري:

– هل زرت قبر الشيخ الطنطاوي؟! وقرأت الفاتحة على روحه؟.

بدأت رحلة البحث عن هذا الأزهري المدفون في أصقاع بلاد الشمال الباردة، من الصعب القول إننا قد نسيناه؛ لأن أجيالاً كثيرة خرجت إلى الحياة لا تعرف من هو الشيخ الطنطاوي؟.

اسمه بالكامل: محمد بن سعيد بن سليمان عيَّاد المرحومي الطنطاوي الشافعي، وُلد فى قرية نجريج، من قرى الغربية سنة ١٣٢٥ من بعد هجرة الحبيب المصطفى(صلى الله عليه وسلم)، و١٨١٠ من بعد ميلاد السيد المسيح(عليه السلام).

كان والده من قرية محلَّة مرحوم، وفي ذلك الزمان البعيد، كانت محلَّة مرحوم لها وزن أكثر من طنطا التى أصبحت عاصمة الإقليم، عندما بنى علي بك الكبير مسجدًا في طنطا للولي المعروف السيد أحمد البدوي فتغير الحال، أحيلت العاصمة القديمة إلى المعاش، وخرجت إلى الوجود عاصمة أخرى، والمدن كالناس، تُولد وتكبر، ثم تأتي إليها الشيخوخة، وأخيرًا الموت، وكان والده يعمل في التجارة، وكان له شقيق واحد هو مصطفى، وقد عمل بالتجارة أيضًا.

جاء محمد عيَّاد الطنطاوي إلى عالَمنا، بعد حكاية نابليون بونابرت الذي حضر إلى مصر، ومعه المدفع والمطبعة، ثم عاد ومن بعده جنده، معهم المدافع ولكنهم تركوا المطبعة في بر مصر، وانبثق التاريخ عن المغامر الجسور، تاجر الدخان الألباني الذي قرر أن يستنبت طموحه الذي لا حدود له، وأحلامه التي لا تعرف المنتهى في تربة وادي النيل العظيم، جاء ببذور أمانيه من أوروبا؛ ولذلك كان من الطبيعي أن يرسل النوابغ والنابهين إلى أوروبا.

كانت تلك هي الكلمة الأولى في مصر الطنطاوي. وإن كان قد رحل صوب الإمبراطورية الروسية بدلاً من فرنسا، التحق الطنطاوي بالكُتَّاب في سن السادسة. وكانت شهرة طنطاوي في تحفيظ القرآن تماثل شهرة القاهرة في دراسة علوم الدين، وقد قيل: ما قرآن إلا أحمدي، وما علوم إلا أزهرية.

في سنة ١٣٣٨هـ، ١٨٢٣م، رحل محمد إلى القاهرة، دخل الأزهر الشريف، وكان رفاقه في الدراسة هم: رفاعة رافع الطهطاوي، الذي أصبح صديقًا له، على الرغم من أن الطهطاوي كان يكبره بعشر سنوات، وبعد ذلك أصبح الطهطاوي علَمَ

المرحلة ونجمها الكبير، في حين انزوى الطنطاوي في زوايا النسيان، حتى كتابه: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، فاق في شهرته كتاب طنطاوي: "وصف روسيا" الذي ما زال مخطوطًا حتى الآن، بل إن من كتبوا بعد ذلك عن الكتابين يقولون: إن طنطاوي كتب وصف روسيا، وهو تحت تأثير كتاب الطهطاوي.

وصف روسيا والاسم الذي اختاره له مؤلفه الشيخ الطنطاوي: تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا (نسخة سان بطرسبرج)، وهو المخطوط الذي ظل في مجاهل النسيان، وفي غياهب الظلمات، نسمع عنه ولم نقرأه؛ إلى أن جرت قراءته- مؤخرًا- وتحقيقه وتدقيقه بمعرفة الصديق الدكتور علي متولي أحمد، باحث في مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب المصرية. وها أنذا أكتب مقدمة لهذا الكشف العلمي والأدبي والحضاري المهم، وهو ما لم أكن أتصور أن يمتد بيَّ العمر حتى أقوم به.

نكمل حكايتنا:

كان من رفاق الشيخ محمد عياد الطنطاوي، الشيخ محمد قطة العدوي محقق كتاب العروض ومحقق النسخة الأصلية والأساسية من "ألف ليلة وليلة"، التي طبعتها مطبعة بولاق الأميرية، وهي النسخة التي عاشت عليها كل الأجيال حتى لحظة كتابة هذه السطور.

وكان من أساتذة طنطاوي: حسن العطار، وإبراهيم الباجوري، ومحمد الترميذي صاحب القاموس الشهير: تاج العروس، اتجه طنطاوي إلى دراسة علوم اللغة في زمان كان كل أبنائه يتجهون إلى الفقه أولاً، والفقه أخيرًا، وكأنه بذلك قد بدأ الخطوة

الأولى في السباحة ضد تيار العصر، وربما كان عطاؤه أهم وأكثر تحضرًا في ميدان علوم اللغة، ولكن العصر كان عصر تفقه أكثر من دراسة في اللغة.

تُوفي والد طنطاوي بعد وصوله إلى القاهرة بخمس سنوات، فكان عليه أن يُدبر شئون حياته إلى جانب الاستمرار في دراسته، في سن العشرين قام بالتدريس في الأزهر رغم أنها سن مبكرة، وكان يعطي دروسًا في الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب، وفي السابعة والعشرين من عمره جاء إلى مصر وباء، وما أكثر الأوبئة في هذا الزمان، وكاد يفتك به، لدرجة أن خبر وفاته عرف وأعلن في القاهرة، ولكنه نجا من موت محقق.

قضى في الأزهر عشر سنوات مدرسًا، وانقطع عن التدريس في بعض الأحيان بسبب مرضه، وسيصبح المرض بعد ذلك رفيق رحلته وأنيس غربته، وسيقعده عن العمل في الوقت الذي يصل فيه إلى ذروة المعرفة والانتشار، والمرض لم يكن مشكلته الوحيدة، مرتب الأزهر كان ضئيلاً، وكان لا بد من عمل لكي يعيش، وهكذا عمل طنطاوي في وظيفة ثانية.

يبدو أن العمل الثاني الذي يمسك برقاب المثقفين في مصر عمره أطول مما نتصور، ربما كان مؤامرة قديمة لأكل المواهب، وتبديد الوقت وتعكير صفاء الذهن، ونسف القدرة على الإبداع.

كانت مصر قد عرفت المطبعة والطباعة، وهكذا وجد طنطاوي عمله الثاني وهو التحرير والتصحيح لما يُنشر من علوم أوروبا، لكنها القوانين، الأقوى والأكثر خلودًا

في مصر، التي اخترعت الأبدية، قوانين الأزهر منعته من العمل الثاني، فبحث عن عمل آخر لا يعترض عليه الأزهر، وقد كان.

عمل في تدريس اللغة العربية وآدابها للفرنجة، كان أول عالم لغوي، في أول مدرسة في زمانه. وكان هذا التدريس هو الذي غيَّر مجرى حياته كلها، كان من تلاميذه مستشرقون فرنسيون وألمان، ومن بينهم – وهذا هو المهم – اثنان من روسيا، التي لم يكن قد أطلق عليها الاتحاد السوفييتي بعد. ولم تكن قد عادت إلى لقبها القديم بعد أن جرى لها ما جرى، حيث أول تجربة في تاريخ البشرية لحلم اشتراكي، أو لنقل شيوعي. شهد القرن العشرين قيامه، وشهد أيضًا نهايته.

الطالبان الروسيان هما: موخين وفرين، الأول هو: نيقولا موخين الذي كان مترجمًا في القنصلية العامة الروسية في مصر سنة ١٨٣٥، ثم نقل إلى إسطمبول بعد عامين، مترجمًا رابعًا في السفارة الروسية هناك. التي كانت أهم سفارات روسيا في الشرق كله، حيث الإمبراطورية المترامية الأطراف التي لا تحدها حدود.

تشاء أقدار الطنطاوي أن يكون نيقولا موخين هو مرافق رحلته إلى بطرسبرج بعد ذلك. والثاني هو رودلف فرين، كانت تلك هي الخيوط التي نسجت مصير الرجل، ورسمت شكل حياته.

في سنة ١٨٤٠ وجهت الدعوة بإذن من قيصر روسيا، وموافقة محمد علي باشا إلى الشيخ الطنطاوي ليسافر إلى روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية وآدابها في القسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية الروسية في بطرسبرج، وكانت هي عاصمة روسيا

القيصرية. وأصبح اسمها بعد ذلك لينينجراد. وقد نقلت العاصمة فيما بعد إلى موسكو، وذلك أن دوام الحال من المحال.

وحسب تقاليد ذلك الزمان، استعد الشيخ الطنطاوي للسفر إلى روسيا وربما يحتاج إليه سفره، وكانت أهم بنود ذلك الاستعداد أنه اشترى جارية، وأرسلها لكي تحصل العلوم في باريس، كنوع من الإعداد لها للحياة الجديدة، ثم تزوجها حتى لا يكون وحيداً في غربته وكانت هذه الزوجة تدعى "أم حسن".

غادر الطنطاوي القاهرة، يوم السبت الرابع والعشرين من المحرم سنة ١٢٥٦هـ، الموافق السادس عشر من مارس سنة ١٨٤٠. وركب صندلاً في النيل، كان يسير ويتوقف حسب حالة الجو، مر بشبرا التي كانت مشهورة ببساتينها، ولم يمر على طنطا؛ لأن طريق بحر النيل، لم يكن يحضنها، كان بعيدًا عنها، ولكنه شم رائحتها عندما استنشق هواء الغربية، لم يتوقف فعفريت السفر كان قد ركبه وانتهى الأمر، ولم يعد قادرًا على أن يحط على الأرض.

وصل إلى الإسكندرية يوم الثاني والعشرين من مارس، وكان لكل مدينة باب يقفل إذا جاء الليل، يحميها من قطاع الطرق ورجال المنسر، ولا يفتح الباب إلا صباحًا، وصل الطنطاوي إلى الإسكندرية بعد أن أقفلت أبوابها فاضطر إلى المبيت خارجها.

في الإسكندرية، المدينة التي يأتيها البحر، وتضاجعه كلما أكل قلبها الاشتياق للفعل، قضى طنطاوي عدة أيام عند قنصل روسيا العام، ركب بعدها باخرة في البحر المالح، لأول مرة في حياته، ذلك البحر الذي بلا شاطئ آخر.

وفي السادس والعشرين من مارس، أصيب بدوار البحر. كان السفر عن طريق جزيرة كريت، حيث تزودت السفينة بالفحم الحجري اللازم للوقود، وصلت إلى أزمير في الثالث من إبريل، قطعت الباخرة بحر مرمرة ووصلت إلى إسطمبول، وأمضى الطنطاوي أيامًا في الحجر الصحي، وقابل السفير الروسي الذي كلف الترجمان موخين، تلميذ الشيخ سابقًا، بمرافقته في رحلته إلى روسيا.

غادر إسطمبول في الثالث والعشرين من إبريل، ركبا باخرة روسية، وخلال أربع وخمسين ساعة فقط وصلا إلى أودسا، أنفق الشيخ الطنطاوي هذه الساعات في دراسة اللغة الروسية، كان الوصول إلى أودسا في الخامس والعشرين من أبريل، وقضى وقته الذي مكثه في الحجر الصحي في تعلم الروسية أيضًا.

شاهد في أودسا الأوبرا الإيطالية، حيث رأى رواية السلطان محمد في المرة الأولى، وفي الثانية رواية العاشقين، ولم يكن في المسرح من يلبس العمامة سواه، غادرا أودسا يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من مايو، اخترقا روسيا من جنوبها حتى شمالها. بعربات البريد التي تجرها الخيول وتمشي ببطء شديد، رأى الطنطاوي بلاد سهولها شاسعة وأنهرها عريضة، وخضرتها كثيفة وتخلو تمامًا من غبار الشرق الأوسط وحرارته وقيظه.

في الخامس والعشرين من مايو، وصل إلى مدينة كييف، ونزل في فندق لندن، وتركها بعد يومين من الراحة، ووصل إلى قرية موهلوف في الثلاثين من مايو، وأقام فيها ثلاثة وعشرين يومًا؛ لأن موخين، رفيق الرحلة، ومترجمها، كان له أقارب في القرية وطالت زيارته لهم.

فرك الطنطاوي عينيه من الدهشة وهو يرى المغناطيس لأول مرة في حياته، وسلك أذنيه الشرقيتين على صوت العزف على البيانو في بيوت الأهالي، وحضر حفلات الرقص، وزار الحمامات التي كانت تتفوق عليها حمامات القاهرة وإسطمبول كثيرًا.

في يوم السبت الثاني والعشرين من يونيو غادر الطنطاوي موهلوف، وسمع عن أصداء حريق مدينة الإسكندرية، الحدث القديم الذي تجدد بعد ذلك أكثر من مرة. والإسكندرية مدينة بدأت صغيرة بناها الإسكندر ذو القرنين، ثم أصبحت فيما بعد واحدة من أعاجيب الدنيا القديمة. وأصبحت مكتبتها منارة العلم في زمانها. ورأى السكة الحديد الجديدة في روسيا.

وفي يوم السبت التاسع والعشرين من يونيو سنة ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج، بعد سفر دام ثلاثة أشهر ونصف الشهر، قضى منها شهرين في الحجر الصحي، وقرية موهلوف، وصل في زمن كانت الرومانسية الغربية، قد خلقت حالة غريبة من الاهتمام بالشرق؛ لذلك كان من الطبيعي أن يجتذب الشيخ الأزهري المعمم أنظار روسيا كلها.

عاش الرجل في روسيا، ولكن الحنين أكله إلى مصر، فعاد إليها سنة ١٨٤٤، ثم رجع إلى روسيا حيث بقي بها حتى توفاه الله. وفي الثامن من أكتوبر سنة ١٨٤٧، وبعد سبع سنوات على حضوره إلى روسيا عين أستاذًا في الجامعة، وكان ميدان عمله قد اتسع، فشمل الجامعة أيضًا علاوة على وزارة الخارجية الروسية، وفي تدريسه كان يجمع بين الطريقة النظرية والطريقة العملية.

كان يدرس قواعد اللغة العربية، ويشرح أمثال لقمان ويقرأ قطعًا تاريخية من مقامات الحريري، وكان يدرس الترجمة من الروسية إلى العربية، والخطوط العربية، وقراءة المخطوطات والمحادثة باللغة العربية، وابتداء من سنة ١٨٥٥. بدأ يدرس تاريخ العرب.

وفي الخامس عشر من أغسطس سنة ١٨٥٠، استحق الشيخ الطنطاوي الشكر القيصري على جهوده في التدريس لطلاَّب بطرسبرج، وبعد عامين حاز ميدالية من أحد ملوك أوروبا شكرًا له على قصيدة باللغة العربية، ثم أهداه ولي عهد القيصر خاتمًا مرصعًا بالجواهر شكرًا على جهوده. وفي هذه الأثناء كتب عنه الروس الكثير. قالوا في كتاباتهم، "إن طيبة قلبه وطبعه تشبه صفات الأطفال، وأن ذكاءه واستقامته يستدعيان الاحترام الشديد".

كان الشيخ الأزهري المعمم، يجلس على أريكة في بيته، يشرب الشاي، وللشاي طقوس جميلة في حياة الروس. ثم يتحدث عن مصر المحبوبة، ورواتها ومغنياتها وراقصاتها، وغيرها من المسرات التي كانت تملأ حياته بمصر، وليس لها أي وجود في حياة روسيا، قالوا عنه: "إنسان تغلَّب عليه التعصب". كتبوا "مرح وعطوف"، أكدوا: "ليس لمثل طنطاوي آخر في هذا العالم كله".

قام الطنطاوي بالتدريس خمس عشرة سنة منتظمة. ووصلت شهرته إلى أوجها. وفي سنة ١٨٥٥ افتتحت كلية اللغات الشرقية، وكان افتتاحها حدثًا مهمًّا بالنسبة له، ولكن يبدو أن لحظات تحقيق الأماني. هي نفسها، لحظات فقدانها، ففي أيام المجد، خانته صحته، والعلة التي تصيب الجسد في الغربة تصبح مأساة، وهكذا أصبحت

حياته نوعًا من الهم المتصل. وفي هذا العام نشر آخر مقاله له بالفرنسية، وقال آخر قصيدة شعرية في رثاء القيصر نيقولا الأول.

والذي حدث، أنه في سبتمبر من عام ١٨٥٥، أصيب بشلل في قدميه، والأوراق التي تركها الرجل بخط يده عن هذه الفترة، تكاد الدموع تنزف من الحروف المكتوب بها.

في إبريل ١٨٥٦، طلب من الأطباء أن يمدوا له أجازته المرضية ثمانية وعشرين يومًا، ليسافر إلى بوهيما، وذلك للعلاج بمياهها المعدنية الساخنة، ولا يدري الإنسان لماذا لم يطلب العودة إلى مصر، ويدفن الجزء المصاب منه في رمالها الساخنة؟ ما علينا.

في مارس من العام التالي، طلب السفر إلى الخارج للعلاج، والخط المكتوب به الطلب، وتوقيعه عليه، يشي بمدى تدهور حالته الصحية. وفى السابع من فبراير سنة ١٨٦١ تقاعد عن العمل.

ثم قدمت الجامعة طلبًا لتقدير معاش تقاعدي للطنطاوي، بمناسبة مرور عشرين عامًا على خدمته في روسيا، بسبب مرضه، واستدعى من أجل توقيع الكشف الطبي عليه، فأجاب إنه لا يمكنه المجيء بسبب المرض. ويبدو أن الكشف الطبي قد جرى في بيته. واستُعفى من الخدمة في ٣١ يناير سنة ١٨٦١. أما التقاعد فقد تقرر في يوليو من السنة نفسها بمبلغ ١٤٢٩ روبلا، ولم يطل زمان انتفاعه به، فقد تُوفي في التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٦١، وكما يذكر في شهادة لإمام مسجد بطرسبرج، أنه مات من مرض الأكلة.

وهكذا مضى الرجل، ولكن ماذا عن أسرته التي كوَّنها في الغربة؟ في التاسع عشر من مايو ١٨٥٠، ولدت زوجة الطنطاوي ولدًا أسموه "أحمد"، ولأن زوجته "أم حسن" توفيت قبله، توسل الطنطاوي في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٦٠ أن يقبلوا ابنه في داخلية إحدى المدارس الوسطى على حساب الدولة الروسية، بسبب مرضه ووفاة زوجته.

وبعد وفاة الطنطاوي، توسل عميد المدرسة الداخلية لدى ولي الأمر أن يبقى معاشه لابنه، وصار الوصي الرسمي على"أحمد" الأستاذ كسوفتش، الذي عرض سنة ١٨٧٠ باسم أحمد على جامعة بطرسبرج شراء مجموعة مخطوطات الطنطاوي، وقد اشترها المكتبة سنة ١٨٧١.

وهكذا استوطن أحمد الطنطاوي روسيا، وقد قدم في الثلاثين من سبتمبر سنة ١٨٧٢. طلبًا باعتباره تابعًا عثمانيًّا، إلى إدارة الجامعة، لكي تعطيه سجل خدمة أبيه، ليقدمه إلى الإدارة الروحانية المسيحية في بطرسبرج لأداء القسم، حتى يستطيع الحصول على التبعية الروسية، وقد توفي أحمد في أواخر القرن التاسع عشر، ودفن في جبانة المسملين، حيث سبق دفن أمه وأبيه، وجبانة المسلمين كانت موجودة في قرية فولكوف القريبة من بطرسبرج، ولكن الزمان محا تمامًا آثار قبر أم حسن وأحمد، ولم يبق سوى قبر الشيخ الطنطاوي فقط.

وفي الثالث والعشرين، من إبريل سنة ١٨٨٦، قدم الوصي سولفيوف طلبًا إلى إدارة الجامعة، لكي يعطوه وثيقة عن الطنطاوى الابن، ليقدمها لمجلس الإشراف،

لإدخال حفيدة الطنطاوي "هيلانة" فى طبقة الأشراف، حتى يمكن تربيتها في دار أيتام الأشراف.

وهكذا نكتشف أن حفيدة الطنطاوي قد أصبحت مسيحية، ويكتشف من يبحثون عن أثر الطنطاوي وما بقى منه أن كل شيء ضاع، مع أنه جاء من بلاد الأهرام الدافئة، والأهرام بناها المصريون لمقاومة الفناء وبحثًا عن الخلود المستحيل، أما بطل حكايتنا فقد مات في أصقاع روسيا الباردة.

مات الطنطاوي ظلمًا واغترابًا، ولم يحدث إعادة اعتبار له بعد رحيله، كما يحدث عادة، ولكنه كان ضيفًا ثقيلاً غير مرغوب فيه في حياته نفسها. في سنة ١٩٤٠، كتبت سافيليف: "أن اسم الطنطاوي معلوم لدى كل من يدرس العربية. مع أنه لم يؤلف شيئًا". وكتب غويفوريف: "أن تدريس الشيخ الطنطاوي، لم يترك أى أثر في روسيا، والدور الأساسي الذي لعبه كان في الاستشراق الفنلندي".

أما الدكتور أغناطيوس كراتشوفسكي، مؤسس الاستشراق في روسيا كلها، فقد وضع يديه على قدر الطنطاوي ومأساته معًا، في كتابه الجميل الذي ألَّفه عنه(*)، وتأليف هذا الكتاب حدث مهم لمن يعرف قدر مؤلِّفه، في روسيا والعالم، يقول كراتشوفسكي:

"كان الطنطاوي معاصرًا لأغلبية رجال النهضة الأوروبية البارزين في القرن التاسع عشر، لكنه سار على خط غير الذي سار عليه معاصروه المشهورون، لقد بقي في عزلة عن الحركة العامة، ولم يشترك فيها، أو يؤثر في تطويرها، كان الطنطاوي ربيب الأزهر، حيث كانت التقاليد الكلامية ثابتة في ذلك الحين، ولكن الطنطاوي

كان بعيدًا عن دائرة صحفيي ذلك العهد الذين تحلقوا منذ سنة ٢٨ حول الجريدة العربية الأولى، وقد انضم الطهطاوي إليهم، ولا ندري كيف يمكن أن نكيف حياة الطنطاوي، لو لم يرحل إلى روسيا وله من العمر ثلاثون سنة".

ولكنه انعزل عن حياة وطنه الروحية حتى كاد يُنسى لدرجة أن العلماء المصريين، المندوبين في مؤتمر المستشرقين، المنعقد في ستوكهولم سنة ١٨٨٩، ما كانوا يعلمون عن وفاة مواطنهم، التي وقعت قبل ذلك بثمانية وعشرين عامًا كاملة.

كل هذا جرى، على الرغم من أن الطنطاوي ترك حين وفاته واحدًا وأربعين مؤلَّفًا، معظمها، مخطوط لم ينشر حتى الآن، لعل أهمها كتابه الفريد: "وصف روسيا" وعنوانه الكامل: "تحفة الأذكياء، بأخبار بلاد الروسيا"، وقد أهداه إلى السلطان عبد المجيد".

ورغم مرور كل هذه السنوات على رحيله، إلا أن أحدًا من بني وطنه، من مصر، لم يتحرك، لتحقيق كتبه ونشرها، ودراسة رحلته الفريدة والدور الذي قام به. وما أكثر الرسائل الجامعية التي تلوك ما قيل من قبل وتكرره، وتعيد وتزيد، مهملة منجم ذهب حقيقي يتمثل في آثار هذا الرجل، الذي طارده الظلم والغربة، حيًّا وميتًا، ولاحق الظلم نتاجه الأدبي والفكري، وحتى أسرته لاقت نفس المصير.

إلى أن جاء صاحبنا الدكتور علي متولي أحمد وحقّق أحد كتبه، وأتمنى أن يعكف على تحقيق باقي أعماله ويستعيده لنا من الغربة التي عانى منها حيًّا، وكتب عليه أن يعاني منها ميتًا.

قام الطنطاوي برحلته، في الوقت نفسه الذي قام فيه الطهطاوي برحلته إلى باريس، ولكن الأول بقي في روسيا، في حين عاد الطهطاوي، والأول طواه النسيان والنكران والثاني أصبح علمًا على عصر بأكمله.

اغترب الطنطاوي عن الوطن والديار، في زمن لم يكن المصري قد تذوق فيه طعم الاغتراب، ولا كواه الحنين إلى بر مصر.

قضى سنوات عمره في أبعد مكان عن مصر، في ذلك الوقت البعيد، والغربة أسلمته إلى ظلم بيِّن، وحتى الآن لا أعرف من أين جاءت البداية، الغربة التي أوصلته إلى ظلم، أو الظلم الذي رمى به إلى الغربة، أم أن كل عصر يكون فيه رجل واحد، يذبح كل أبناء جيله من أجل أن يمتد ظله إلى العصر كله..؟!.

هذه هي المرة الثانية التي أكتب فيها عن الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوي، كانت الأولى فى كتابي: الكتاب الأحمر، رحلاتي في خريف الحلم السوفييتي، وهذه هي المرة الثانية التي أتمنى ألا تكون الأخيرة. وأحلم أن يصبح محقق هذا الكتاب ومترجمه هو من يستعيد لنا الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوي من الغربة.

يوسف القعيد

مدينة نصر– القاهرة

نوفمبر ٢٠١٧

دراسة

بين يدي القارئ الكريم إحدى المخطوطات المهمة للشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، والمسماه بـ" تحفة الأَذْكِيَا باخبار مملكة الرُّوسِيَا"، وتُعَدُّ من أروع بواكير الأدب العربي الحديث ذات الأهمية الثقافية والتاريخية، شأنها في ذلك شأن كتاب وصف باريس للشيخ رفاعة الطهطاوي، ونظرًا لأن الكثير منّا يعلم من هو الطهطاوي، في حين أن القليل منّا يعلم من هو الطنطاوي، فإن هذه الدراسة تحاول التعريف بشخصية مصنف هذا المخطوط.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر ذاع صيت رجل أزهري مصري، ألا وهو الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي أستاذ اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية بجامعة سان بطرسبرج St Petersburg، وأصبح له صلات وثيقة بمستشرقي عصره حتى تتلمذ عليه نفر منهم، وصار اسمه مقرونًا بتاريخ المشرقيات في روسيا؛ لذا فحري بنا أن نعرف من هو هذا الطنطاوي المغامر الذي ترك الأزهر وترك التدريس فيه، وترك مصر ورحل إلى بلاد كان يُعرَف عنها قليلاً، وعاش فيها حياته إلى أن أدركته منيته هناك، فدفن في بطرسبرج بمقابر المسلمين؟ وماذا عن نشأته؟ ومن هم العلماء الذين تتلمذ على أيديهم؟ ومن هم تلاميذه؟ وماذا عن مؤلفاته؟ ومتى تُوفي؟ وأين دُفن؟

أولاً– مولده ونشأته وشيوخه

هو محمد بن سعد بن سليمان بن عيّاد المرحومي الطنطاوي الشافعي، والمعروف بالشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، ولد في قرية نجريج – التابعة لمركز طنطا– عام ١٢٢٥هـ – ١٨١٠م[١]، وأما محلة مرحوم التي نُسب إليها فليست بدار مولده، ولكنها دار أبيه[٢]، الذي كان يعمل بائعًا للأقمشة والصابون والبن، وفي محلة مرحوم تلقّى علومه الأولية حيث حفظ القرآن، ومن ثم قصد طنطا لإكمال دراسته[٣]، فظل يدرس هناك على أيدي طائفة من الأساتذة ثلاث سنين، وكانت حينئذ حافلة بالعلماء والفقهاء والقراء، حيث قرأ على الأستاذ الشيخ محمد الكومي شرح ابن قاسم في الفقه سنة ١٢٣٦هـ– ١٨٢١م، والأستاذ المصنف السيد محمد أبي النجار الذي قرأ عليه أيضا الشرح سالف الذكر عام ١٢٣٧ هـ– ١٨٢٢م، ونتيجة لشغوفه بالعلم ولّى وجهه شطر القاهرة عام ١٨٢٣م، وتتلمذ على أكابر علمائها[٤]، فهو أحد أفراد الطبقة الأولى الآخذة عن الشيخ إبراهيم الباجوري شيخ الجامع الأزهر "ت ١٢٧٦هـ– ١٨٣٥"[٥]، وصاحب التصانيف في العلوم العقلية، ورائد منهج التدريس بالنزعة الأدبية[٦]، حيث قرأ عليه أصول الكتب، ونظر في علوم النحو والفقه والبلاغة والأصول والمنطق والكلام، وقرأ تفسير البيضاوي على الشيخ حسن العطار[٧]، والمتوفي سنة ١٢٥٠هـ"[٨].

وعلى الرغم من طول رفقة الشيخ الطنطاوي للشيخ الباجوري إلا أن أثره في تكوينه كدارس لعلوم الغرب غير قوي، فالشيخ الباجوري من المحسوبين على المدرسة

التقليدية الكلاسيكية، وكان من دعاة عدم التقارب مع الأوروبيين، بل و فضّل الرحيل من القاهرة إبّان وجود الحملة الفرنسية، ولكن يرجع الأثر الكبير في دفع الشيخ الطنطاوي إلى دراسة الغرب ومعرفة علومهم – في البداية – يرجع إلى الشيخ العطار الذي رأى أنه من المستطاع أن يتقرب من الفرنسيين ليتعرف على ثقافتهم[٩].

وهناك شيخ آخر من أساتذة الطنطاوي الذين كان لهم تأثير قوي على الطنطاوي وانفتاحه على الثقافة الغربية، وهو الشيخ إبراهيم الدسوقي (١٨١١–١٨٨٣) الذي كان عمله منحصرًا في ميدان التعليم في المدارس الفنية التي كانت تديرها الدولة، أو في تصحيح مسوّدات المطبوعات العلمية في مطبعة بولاق الشهيرة، وكانت له صلة وثيقة بعلماء أوروبيين ممن تركوا أثرا طيبًا في العلوم، مثل المستشرق إدوارد وليم لين[١٠]، صاحب القاموس العربي الإنجليزي الكبير[١١].

ومن أساتذة الشيخ الطنطاوي أيضا الشيخ الشبيني، والشيخ برهان الدين أبو المعالي، والشيخ مصطفى القناوي الشافعي الأحمدي، شيخ المسجد الأحمدي بطنطا[١٢]، والشيخ إبراهيم السقا (١٧٩٧–١٨٨١) الذي حاز شهرة كبيرة في الخطابة بالأزهر، وتولاها ما يربو على العشرين عامًا، حتى صارت خطبه تُحفظ وتُلقى في مناسبات مشابهة لما قيلت فيه[١٣].

أما عن زملاء الشيخ عيّاد الطنطاوي في الدراسة فهم: رفاعة الطهطاوي، ومحمد قطة العدوي[١٤]، ومحمد الأشموني[١٥]، وعبدالسلام الحلي الترمانيني، وعبدالرحمن الصفتي، وعبدالهادي نجا الإبياري، وسرور الدمنهوري.. وغيرهم[١٦].

وفي عام ١٨٢٧م توفي والده، فترك الطنطاوي الدراسة في الأزهر تحت ضـــغط الظروف القاسية، وعاد إلى طنطا ومنحه أستاذه الشيخ مصطفى القناوي إجـــازة في التدريس عام ١٨٢٨م[١٧]، لكنه ما لبث أن عاد للقاهرة مجـــددًا عـــام ١٨٣٠م، ليعمل مدرسا بالأزهر، وكان له طابعًا خاصًا في التدريس، حيث حذا حذو شـــيخه حسن العطار، فأخذ يدَّرس لطلابه مقامات الحريري وديـــوان الحماســـة لأبي تمـــام، ويشرح لهم غريب الألفاظ ويبصرهم بمواطن الجمال والقبح فيها[١٨]، ويعتبر أول من قرأ المعلقات والمقامات في حلقاته العلمية وهو في العشرين من عمره[١٩].

وبسبب عشقه لعلوم اللغة وآدابها اُتهم بترويج البدع، إذ انصـــرف إلى الشـــعر والأدب بدلاً من الانصراف إلى علوم الفقه والحديث، حتى تمنى البعض موته حـــين أُصيب بطاعون سنة ١٨٣٦، وظل يعاني المرض عشرة أيام بلا نوم، وغـــاب عنـــه الإحساس والإدراك حتى سلّمه الله، وعافاه بعد أسبوعين، وفي هذا يقول حين أشيع خبر موته شعرًا[٢٠]:

تمنى أناس أن أموت وإن مت فتلك طريق لست فيها بأوحد
وإن أظهروا موتي فليس بمنكر إذا أظهر الشيطان موت محمد[٢١]

وأثناء اشتغال الشيخ عيّاد بالأزهر قام بالتدريس في المدرسة الإنجليزية بالقاهرة "مدرسة الإرسالية البروتستانتية" عام ١٨٣٥ [٢٢]، وحينها بدأت تفد إلى مصر مجموعات من المستشرقين في مختلف المجالات، ومن ثم توطدت العلاقات بينهم وبين الشيخ عيًّا الطنطاوي بغرض تعليمهم اللغة العربية[٢٣] مثل الدكتور "ر. فراهن" ".R"

"Frahn" الألماني الذي كان أبوه مدرسا للشرقيات في كلية قازان، والدكتور "بيرّون" A. Perron الفرنسي الذي كان يقوم بتدريس الطبيعة والكيمياء بمدرسة الطب المصرية، وكان يجيد العربية كتابة وقراءة وحديثًا، والأستاذ "فليمانس فرنيل" F. Fresnel الفرنسي الذي ترجم لامية العرب للشنفري إلى الفرنسية بمساعدة أستاذه الشيخ الطنطاوي، والذي علم استاذه اللغة الفرنسية(٢٤). وكتب فرنيل يقول " إنه مدين للطنطاوي الشيخ المصري الوحيد، الذي يُدِّرس لغته بمحبة واهتمام، ويدرس كتب الآداب العربية القديمة"(٢٥). كذا تعرف الشيخ الطنطاوي على "جوستاف ويل" "G. Weil" الذي كان مدرسًا لتاريخ المشرقيات في كلية هيدلبرج(٢٦)، وله كتاب في تاريخ الخلفاء في ثلاث مجلدات، وتاريخ العباسيين في مصر في مجلدين(٢٧).

ثانيًا– سفر الشيخ الطنطاوي إلى روسيا:

في عام ١٨٠٤ صدر مرسوم منظِّم للجامعات الروسية بمقتضاه أُحدثت أقسام لتدريس اللغات الشرقية فيها، وكان لهذا الحدث أثر كبير على مستقبل الدراسات الاستشراقية عمومًا والاستعرابية منها خصوصًا(٢٨)؛ لأن تاريخ الاستعراب الروسي في العصر الحديث – على حد تعبير كراتشكوفسكي(٢٩)– ارتبط بهذا المرسوم ارتباطًا وثيقًا؛ لأنه أدخل تدريس اللغات الشرقية في برنامج المدارس العليا، وأسس الأقسام الخاصة لهذه اللغات، وقد شغلت اللغة العربية المكانة الأولى(٣٠)، وأخذت هذه الأقسام تستضيف عددًا من الأساتذة المستشرقين وخصوصًا من ألمانيا وفرنسا،

وحينذاك كانت جامعة العاصمة "سان بطرسبرج" تمثّل أهم المراكز الاستشراقية في العالم، حيث تمّ تدريس اللغة العربية فيها منذ عام ١٨١٨م، ويرجع الفضل في ذلك إلى مكتبة المتحف الآسيوي – والتي تُعرف حاليًا بملحقة معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية– بسان بطرسبرج، والتي تمثل إحدى كبريات المكتبات الاستشراقية في العالم[٣١].

وبافتتاح قسم اللغة العربية في جامعة سان بطرسبرج أصبح الفرنسي "ديماج" Demage – أحد تلاميذ المستشرق الفرنسي "سيلفيستر دو ساسي" Sylvester de Sassy – أول رئيس لقسم اللغة العربية في الجامعة خلال الفترة (١٨١٩–١٨٢٢)، وأعقبه في هذا المنصب الأديب البولوني "سينكوفسكي" Senkovsky، الذي ظل يرأس القسم مدة خمسة وعشرين عامًا، خلال الفترة من ١٨٢٢ إلى عام ١٨٤٧[٣٢]، ووقتذاك ازداد الاهتمام باللغات الشرقية في الجامعات الروسية وخصوصًا جامعة سان بطرسبرج التي كانت تُدرس فيها اللغات العربية، والصينية، والمغولية، والتركية، والفارسية، وذلك بفضل وزير المعارف في ذلك الوقت (م. بوشكين)، ورأى هذا القسم – إتماما للفائدة، ولتكون دراسة اللغات الشرقية متمشية مع دراسة تاريخ أقطارها– ضرورة الاستعانة بأساتذة من الشرق نفسه فهم خير من يقوم بتعليم اللغات الشرقية للطلاب الراغبين من الروسيين وغيرهم من الأوروبيين[٣٣].

وبناء عليه كلفت روسيا قنصلها في القاهرة ليقوم بهذه المهمة، وأن يتفق مع من يعرف فيه القدرة على القيام بهذه المهمة[٣٤]، فوقع الاختيار على الشيخ عيّاد الطنطاوي، إذ طلب قنصل روسيا الدوق "مديم" من والي مصر محمد علي باشا إعارة الشيخ عيّاد الطنطاوي لمعهد اللغات الشرقية لتدريس اللغة العربية، ولاقى هذا الطلب القبول من محمد علي باشا فاستدعى إلى ديوانه الطنطاوي وصرّح له بالسفر، وطلب منه ضرورة تعلّم اللغة الروسية ؛ لأنه مشغول بجلب الألسن الغربية إلى مصر ليعرف مدى التقدم العلمي والاجتماعي الذي وصلت إليه بلاد الروس[٣٥]، ومن الجدير بالذكر أن الوسيط بين نظارة الخارجية والشيخ الطنطاوي لإقناع الأخير بالسفر كان "بطرس بكتي[٣٦] Bokty" ترجمان القنصلية الروسية بالقاهرة[٣٧]، وكان له الدور البارز في جميع المكاتبات الرسمية الخاصة بسفر الطنطاوي إلى روسيا[٣٨].

وعلى أية حال غادر الطنطاوي القاهرة في ٢٤ محرم ١٢٥٦هـ، ٢٦ مارس ١٨٤٠م إلى الإسكندرية، حيث نزل في ضيافة قنصل روسيا فيها "مديم"، وفي ٢٦ مارس ركب باخرة نمساوية إلى اسطنبول، ومنها إلى أوديسا، وفي يوم ٢٩ يونيو ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج[٣٩]؛ ليتبوأ مقعدًا بين أساتذة اللغات الشرقية في جامعة بطرسبرج، وقوبل الشيخ هناك بالحفاوة، وكان له مرتب سخي، واشتغل منذ ٢ يوليو ١٨٤٠ بالتدريس في معهد اللغات الشرقية، وبالعمل في ديوان الخارجية في بطرسبرج[٤٠]، وقضى الطنطاوي ما يقرب من سبع سنوات مجاهدًا في تدريس اللغة العربية، ثم عُين بعد ذلك في سنة ١٨٤٧ أستاذًا لكرسي اللغة العربية في جامعة

بطرسبرج، وعين المستشرق الروسي «نفروتسكي» مساعدًا له[٤١]، وظل أستاذًا لهذا الكرسي طيلة أربعة عشر عامًا (١٨٤٧-١٨٦١)[٤٢]، ومن ثمّ كان الشيخ الطنطاوي الرئيس الثالث لقسم اللغة العربية في جامعة بطرسبرج، بعد الفرنسي "ديماج"، والبولوني "سينكوفسكي".

وفي جامعة بطرسبرج الشيخ عيّاد الطنطاوي درَّس قواعد اللغة، وشرح أمثال لقمان، وقرأ قطعًا من مؤلفات تاريخية، ومن مقامات الحريري، كما كان يدرِّس الترجمة من الروسية إلى العربية، والخطوط الشرقية، وقراءة المخطوطات، والمحادثة باللغة العربية، وزاد على ذلك عام ١٨٥٥م تدريس تاريخ العرب[٤٣].

لذا قوبل الشيخ الطنطاوي بحفاوة بالغة عند وصوله إلى روسيا خصوصًا من جانب الصحافة التي رحبت بقدومه معتبرة أن "شهرته منتشرة في أوروبا بين الرحَّالة الذين كانوا يدينون بالعرفان لكتاباته التي كان لها دور كبير في نجاحهم واكتشافاتهم"[٤٤]، وكذا حُظي الطنطاوي بعناية متميزة في روسيا،إذ تمّ تعيينه مستشارًا في الدولة، وقُلّد وسام ستانيسلان، ووسام حنا، بسبب امتياز التلاميذ في البحث، كما قُلد خاتمًا من الألماس[٤٥].

وبناءً عليه يمكن القول بأن وفادة الشيخ الطنطاوي إلى روسيا في أهدافها تأتي في المرتبة الثانية بعد بعثة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا ولندن، والتي ضمنها كتابه:"تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، فإذا كان رفاعة الطهطاوي رائد عصر التنوير من خلال

بعثته في أوروبا الغربية فإن محمد عيّاد الطنطاوي هو رائد عصر التنوير من خلال وفادته إلى أوروبا الشرقية[٤٦].

والجدير بالذكر أن الشيخ الطنطاوي ظلّ في روسيا إلى أن جاور ربه، ولم يؤثر ذلك في شيء من دينه وعقيدته، كما يؤخذ من قوله في أول قطعة شعرية أرسل بها إلى أحد أصدقائه بمصر – ولعله الشيخ محمد قطة العدوي.

أنا بين قوم لا أدين بدينهم أبدا ولا يتدينون بديني[٤٧]

ثالثًا– تلاميذه:

تخرّج على يد الشيخ الطنطاوي فئة كثيرة من المستشرقين، وعلى رأسهم المستشرق الفنلندي الأصل (والن) .G. A. Wallin الذي أسهم بنصيب كبير في الأدب العربي هو وغيره ممن تعلموا في جامعة بطرسبرج على يد الشيخ الطنطاوي[٤٨]، وبسبب جهود الأخير في حثّ والن على ضرورة البحث العميق في دين الإسلام ودراسة مبادئه وجوهره وركائزه ومقاصد شريعته، وضرورة زيارة البلدان العربية للاطلاع عن كثب ومعاينة الحقائق، كل هذا كان سببًا في اعتناق والن للإسلام وحجه إلى البيت الحرام، وخدمة دين الحق والتعريف به وبحضارته الزاهية، وأصبح اسمه "الحاج عبدالولى"[٤٩]، وكان من روّاد الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، وساح في مصر وسوريا زمنًا طويلاً[٥٠]، ودار بينه وبين أستاذه عدة رسائل جمعها والن وطبعها مترجمة إلى اللغة الأسوجية، كما أن هناك مجموعة أخرى

مخطوطة في مكتبة جامعة هلسنكي Helsinki، والتي أصبحت فيما بعد تعرف بـــ "هلسينجفور" Helsingfors عاصمة فنلندا[٥١].

ومن تلاميذ الشيخ الطنطاوي أنطوني موخلينسكي الذي قرأ عليه جملة من الكتب العربية واللطائف الأدبية، ومنها ديوان عبدالرحمن الصفتي، وكذا المستشرق نافروتسكي Navrotsky، وكروكاس[٥٢]، ونقـولا مـوخين Nicola Mukhin وكيل القنصلية الروسية، ورودلف فرين Rudolf Fren ابن المستشرق الروسي فرين، وبسببهما سافر الطنطاوي إلى روسيا عام ١٨٤٠[٥٣].

أما موخين فتخرج في كلية التاريخ والآداب الشرقية في جامعة بطرسبرج، وعمل في القسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية الروسية، وعُين مترجمًا في القنصلية العامة الروسية في مصر عام ١٨٣٥، ويقول عنه الطنطاوي "هذا الترجمان صاحبي في مصر خلال عدة أعوام وقرأ عليّ شيئًا من المعلقات وأخبار شعرائها، وله دراية بكثير من اللغات كالفرنسية والتركية"، وقد كُلّف موخين باصطحاب الطنطاوي من إسطنبول إلى روسيا، و" فرين" هذا ورث الاستشراق عن أبيه وأمَّد المتحف الآسيوي بروسيا بالعديد من المخطوطات والنقود القديمة[٥٤].

ومن تلاميذ الطنطاوي في الأزهر: يوسف الأسير السوري (١٨٨٩م)، وإبراهيم مرزوق (١٨٨٦م) وعبدالهادي نجا الأبياري[٥٥].

رابعًا– مؤلفاته

يُعد الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي من أعلام النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر للطريقة التي انتهجها في التدريس بالأزهر؛ إذ اتجه إلى دروس الشعر والأدب واللغة، لذا عدّه بعضهم من النحويين؛ لأنه ترك بعض الكتب المخطوطة في اللغة العربية مثل كتاب: "حاشية على متن الزنجاني في الصرف"، والمشهور بمتن العُزي، كتبها بخط يده، و"حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهري على متنه المسمى بالأزهرية في علم النحو"، كتبها بخط يده عام ١٢٥٢هـ، و" حاشية على كتاب الكافي في علمي العروض والقوافي"(٥٦)، و"ختم على شرح القطر لابن هشام"(٥٧).

بالإضافة إلى "غنية المريد في علم التوحيد" نظمًا، و"حاشية على شرح العلاّمة برهان الدين أبي المعالي إبراهيم السقا " أحد شيوخه" على منظومة السيد محمد بُليحة"، وعنوان الشرح " التحفة السنية في العقائد السنُيّة"، ومنها : "حاشية على رسالة شيخه إبراهيم البيجوري في العقائد"، ومنها: "حاشية على منظومة الشيخ السلموني"، وفيها التزم السجع في جميع جمله(٥٨).

ومن مؤلفاته أيضًا: تاريخ حياته بقلمه، ولم ينجز منه إلا قطعة صغيرة نشر أصلها العربي ومعه ترجمة ألمانية، و" أحسن النخب في معرفة لسان العرب"، وهو كتاب في العامية المصرية، طبع ليبسك عام ١٨٤٨، ويتضمن هذا الكتاب ألفاظ وجمل ورسائل قصص وأغان مصرية عامية، ومعها ترجمتها الفرنسية، و"منتهى الآداب في الجبر والميراث والحساب"، توجد نسخة بخط المؤلف في مكتبة جامعة بتروغراد (رقم

٨٢٠) كتبت سنة ١٢٤٥هجرية"، و"منظومة في البيان نظم فيها متن السمرقندية"، وكتاب عن تاريخ روسيا باسم "تحفة الأذكيا في أخبار بلاد روسيا عام ١٨٥٠"[٥٩].

وهناك نوع آخر من مؤلفات الشيخ الطنطاوي متصل أساسًا بالدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية، والتي تخضع لاهتمامات الاستشراق آنذاك كدراسة اللهجات العربية والحكايات والأمثال الشعبية، ونذكر من بين هذه المؤلفات على الخصوص:

- حال الأعياد والمواسم في مصر – مخطوط– مكتبة بتروغراد.
- كتاب الحكايات المصرية العامية" – مخطوط– مكتبة بتروغراد "رقم ٧٤٥")، ومعها ترجمة الباب الأول من كتاب "كلستان" لسعدي الشاعر الفارسي.
- التحيات المعتادة في كلام العامة.
- مجموعة أمثال عربية مصحوبة بترجمتها الروسية.
- قواعد اللغة العربية العامية (المصرية)[٦٠].

ولطنطاوي كتاب عنوانه "النحو العربي" أو "قواعد اللغة العربية الفصحى"، وهو أول كتاب كتبه كاتب عربي باللغة العربية للتدريس في جامعات روسيا ومعاهدها العالية، وهو موضع اهتمام المستشرقين، ونال شهرة كبيرة في كل دوائر الاستشراق الأوروبي[٦١]، وكانت مقالاته تنشر على صفحات بعض المجلات الاستشراقية مثل:

- Journal Asiatique
- Bulletin historique et philologique
- Melanges Asiatique[٦٢].

خامسًا– وفاته:

في سبتمبر عام ١٨٥٥ أُصيب الشيخ الطنطاوي بشلل في رجليه، وظل في صراع طويل مع هذا المرض، وظل في منزله رهين المرض، وكان يشرف على العناية بالشيخ زوجته المصرية "أم حسن" التي أنجبت له طفلاً في ١٩ مايو ١٨٥٠، أسماه "أحمد"[٦٣].

وبينما المرض يشتدّ على الشيخ طنطاوي توفيت زوجته المصرية عام ١٨٦٠، وابنه في سن العاشرة، ووقتئذ طلب الشيخ طنطاوي التحاق ابنه أحمد بإحدى المدارس الوسطى، على حساب الدولة، وبالفعل التحق أحمد بإحدى المدارس في ١٩ نوفمبر ١٨٦٠، ولكن الحالة الصحية للشيخ ازدادت سوءًا فأحيل للتقاعد في ١٩ يناير ١٨٦١، ثم وافاه الأجل في يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع الثاني ١٢٧٨هـ – ٢٩ أكتوبر ١٨٦١، ووري جثمانه الثرى في مقبرة المسلمين بقرية فولكوفا في سانت بطرسبرج بجوار مقبرة زوجته المصرية، وتسمى المقابر التي دفن في وسطها مقبرة التتر، ومن ثمّ عين نفروتسكي خلفًا له في كرسي اللغة العربية بالجامعة، وصرفت الدولة معاش الشيخ إلى ابنه أحمد، واختير نفروتسكي وصيًّا له، وفي عام ١٨٧١ باع أحمد مجموعة والده الخطية إلى مكتبة الجامعة[٦٤].

هكذا كان محمد عياد الطنطاوي وكثير من جيله نموذجًا عمليًّا للعلاقة مع الآخر دون تنظير أو صخب نظري لا طائل من ورائه، وما زال تراثهم وهو على وجه خاص في حاجة إلى إعادة للمته من مكتبات العالم.

سادسًا- وصف المخطوط:

بعد تناولنا لنشأة وحياة الشيخ الطنطاوي وسفره إلى روسيا وأساتذته وتلاميذه ووفاته، ننتقل إلى إعطاء نبذة مبسطة عن مخطوط " تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا"، والذي جاء أوله :" بسم الله الرحمن الرحيم.... حمدًا لمن سيّر سيرة العالِم في أقصى أقطار العالَم وقيض له أعوانًا يعضدونه وأنصارًا يحمونه وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده ووده الغرباء....إلخ".

ثم ذكر عنوان المخطوط الذي نحن بصدده عندما قال:" وعند إبرام العزم على الظعن إلى هذا القطر الحسن، سألني جمع من الأصدقاء والمعارف، وجمّ من أهل المعارف أن أسطر في سفري هذا كتابًا، أودع فيه ما يَعذُب مذاقًا، ويطيب شرابًا من بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية، وطُرف استحسانية، ومُلَح اختراعية، فأجبت السؤال، وبادرت بالامتثال، فشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته «تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا».

وختم الطنطاوي مخطوطه بقوله: "والله أسأل وبنبيه أتوسل أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية، والعتبة العثمانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحودوا عن سبيل الاعتساف فما قصدي إلا التبصير ولا مرامي التذكير . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

اسم الناسخ: مصنفه الفقير محمد عيَّاد المصري الطنطاوي

عدد الأوراق: النسخة تبدأ من اللوحة ١ وتنتهي عند اللوحة ١٠٩.

مقاس اللوحة: ١٧× ٢٥.

الخط: نسخ واضح.

تاريخ النسخ: أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٦هـ/ أوائل كانون الثاني سنة ١٨٥٠م.

حالة النسخة: لا بأس بها، وفي ركن كل صفحة تعقيبة تدل على ترتيب الصفحات وتسلسلها، وليس على صفحاتها ترقيم.

مكان المخطوط: مجموعة كراتشكوفسكي بالمكتبة الشرقية بلننجراد تم إعادة أرشفتها في ١٩٢٨/١٢/٢٧،الخزانة رقم ٤٧، تحت رقم ١٧، محمد بن عياد الطنطاوي، أستاذ اللغة العربية بجامعة بيتربورغ، وصف روسيا، ١٨٥٠، بيتربورغ، من مجموعة الأكاديمي يو. كراتشكوفسكي، إعادة طبع ١٩٧٤).

الترقيم القديم للمخطوطة (٣٢، ١، ٢).

يقول جريجوري شرباتوف:" هناك بعض المخطوطات الفريدة للشيخ الطنطاوي نذكر منها النسخة الأصلية لأهم آثاره الأدبية تحت عنوان "تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا"، وتقع في ١١٢ ورقة"[٦٥]، ويذكر أ.د. محمد صبري الدالي (أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر – جامعة حلوان) بأن هذه النسخة موجودة في مكتبة جامعة بطرسبرج[٦٦]، وهي النسخة التي نحن بصددها، وهي بخط المصنف؛ لذا قمنا بإعداد تحقيق لها ودراسة مفصلة عن حياة ونشأة الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، ومن الجدير

بالذكر أن هذه النسخة تمّ الحصول عليها من د. حسين الشافعي (رئيس مجلس إدارة دار أنباء روسيا).

ويستكمل شرباتوف قوله بأن النسخة الثانية المبيّضة من المخطوط سالف الذكر تحفظ في إستانبول في مسجد رضا باشا في رميلي خصار، وتقع في ١٩٣ ورقة[٦٧]، وقد أرسلها الشيخ عيّاد الطنطاوي للسلطان عبدالمجيد الأول[٦٨]، وهي النسخة التي قدّم لها وحررها د. محمد عيسى صالحية[٦٩]، ولكن لم أستطع الحصول على النسخة الأصلية لنسخة إستانبول، ومن خلال الاطلاع على النسخة المطبوعة لها، وجدت هناك اختلافات عن النسخة الأصلية التي نحن بصددها، فعلى سبيل المثال، حملت نسخة إستانبول عنوان:" تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا"، وقد وضع د. عيسى صالحية صورة أصلية من الغلاف الخارجي للمخطوط، في حين جاء عنوان النسخة الأصلية "بيتربورغ" عنوان:" تحفة الأذكيا باخبار مملكة الروسيا"، إضافة إلى وجود اختلافات في متن المخطوط.

ويعتبر المخطوط من أهم مؤلفات الشيخ عيّاد الطنطاوي، حيث استهلّه بوصف لرحلته من مصر إلى روسيا، والتي بدأت في ٢٦ مارس ١٨٤٠ من القاهرة حتى وصوله إلى بتربورج في ٣٠ مارس ١٨٤٠، وغطت ٢٧ ورقة (٥٤ لوحة) من المخطوط، ثم ثلاثه أبواب تضمنت وصفًا لجغرافية روسيا، وتاريخها، وملامح الحياة الاجتماعية والثقافية، والعادات والتقاليد السائدة في روسيا، ثمّ جاء الباب الأول ليتناول منشأ الروس، وأصل ولاية نوفغورد Novgord، وأصل ولاية كييف Kiev.

في حين تطرق الباب الثاني من المخطوط لمنشأ بتربورغ، وتأسيسها وتاريخها الطبيعي والبشري، وجاء في ثلاثة فصول سلّطت الضوء على تاريخ القائد السياسي والعسكري بطرس الأكبر "Peter the Great"، تلك الشخصية التي كانت من أكثر الشخصيات تأثيرًا في تاريخ روسيا، لتبنيه سياسات التوسع والتغريب، وحوّلت روسيا القيصرية إلى الإمبراطورية الروسية، حيث تناول الشيخ الطنطاوي حياة هذا القائد وإنجازاته وإصلاحاته، ودوره في نهضة روسيا وتقدمها في كافة المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية، ثم عرضًا لكافة الأوضاع في بتربورغ خصوصًا وروسيا عامة في عهد خلفاء بطرس الأكبر.

وأما الباب الثالث والأخير فتعرّض لعادات الروس وأخلاقهم وملابسهم ودينهم، وعادات الزواج، والتعميد والدفن ومراسم الولادة، وأعيادهم والتنظيمات الاجتماعية وأديانهم وحظوظهم، وتقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك، وأخيرًا تطرق للغة الروسية وقواعدها وكيفية الترجمة منها وإليها، واختتم المصنّف مخطوطه بعمل فهرس له، لسهولة تصفّحه.

لغة المؤلف:

من المتعارف عليه أن سمة التأليف في مصر بداية من العصر الأيوبي وصولاً للعصر العثماني كانت تعتمد بشكل قوي على اللغة العامية المصرية، وهي صفة يتسم بها الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، حيث اعتمد في مخطوطه هذا على اللغة العامية نتيجة تأثره بسمة هذه العصور في التأليف.

وكانت أبرز الظواهر الإملائية المتبعة في الرسم الذي جرت عليه المخطوطة، مخالفة المصنف في كتابة الأعلام للشائع المألوف على سبيل المثال: يرسم (أمريكا) هكذا (أمريقا)، و(موسكو) هكذا (موسقو)، و(باريس) هكذا (باريز)... إلخ.

استعمال اللهجة العامية مع عدم مراعاة القواعد النحوية والإملائية في بعض الكلمات، واشتهر بتبديل بعض الحروف في بعض الكلمات على سبيل المثال: تبديل حرف الطاء بدلاً من التاء كما في كلمة (فستان) رسمها هكذا (فسطان)، وتبديل حرف الصاد بدلاً من السين كما في كلمة (بوسطة) رسمها هكذا (بوصطة)، بالإضافة إلى تسهيل وإهمال الهمزة المطرفة، مثل: الفقرا، الوزرا، الشتا،.... إلخ.

أيضًا مخالفة المصنف في كتابة أسماء الشهور للشائع المألوف مثل: كتابة مارس هكذا (مرس)، وكتابة سبتمبر هكذا (سنتابر)... إلخ.

منهج التحقيق:

- أشرت في سياق النص إلى كل صفحة (وليست كل ورقة) من صفحات النسخة المخطوطة، وذلك حتى يرتبط النص المحقق بأصوله الخطية، وتسهل مراجعة النسخة عند الضرورة.
- كتبت النص حسب الرسم الإملائي المعاصر مع العناية بعلامات الترقيم.
- تخريج ما في المخطوط من أبيات شعرية.
- قمت بتوضيح بعض المصطلحات والألفاظ الغامضة.
- عزوت الآيات القرآنية إلى السور مع ذكر أرقامها.

- في حالة صعوبة قراءة الكلمة، يتم وضع نقاط مكانها ويشار إليها في الهامش بكلمة غير واضحة.
- ترجمة مختصرة للأعلام – دون المشهور منهم– الوارد ذكرهم في الكتاب، تشتمل على الاسم والنسب والشهرة وتاريخ الوفاة، مع ذكر مصادر الترجمة.
- ذيلت الكتاب بقائمة مصادر ومراجع التحقيق.

وبالله التوفيق،،،

د. علي متولي أحمد
باحث في مركز تاريخ مصر المعاصر
دار الكتب والوثائق المصرية



هوامش الدراسة:

(★) والكتاب عنوانه: "حياة الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوى". تأليف: أغناطيوس كراتشكوفسكى، ترجمه إلى العربية: كلثوم عودة وراجع النص العربي وحققه وعلق عليه، عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغنى حسن ونشره: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤، ولولا هذا الكتاب الفريد والمهم ما كان ممكنًا كتابة هذا المقال عن الشيخ الطنطاوى.

(١) محمد أبو بكر، من بواكير الاستغراب: محمد العيّاد الطنطاوي ١٨١٠–١٨٦١، مجلة أدب ونقد، ع ٣٥١، مايو ٢٠١٦، ص ١٢.

(٢) محمد عبدالغني حسن، محمد عيّاد الطنطاوي ١٨١٠–١٨٦١، أعلام النهضة الحديثة، المجلد ٨، يونيو ١٩٤٦، ص٢٧٥.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٢.

(٤) حسين علي محفوظ، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، معلم اللغة العربية، العربي الأول في أوربا، مجلة كلية الآداب، العدد ٧، بغداد، نيسان ١٩٦٤، ص ص ٨١،٨٠.

(٥) أحمد تيمور، الشيخ محمدعياد الطنطاوي، مجلة المجمع العلمي العربي،، مجلد ٤، ج٩، دمشق، صفر ١٣٤٢، ص ٣٨٨.

(٦) محمد عيّاد الطنطاوي، رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠–١٨٥٠، المسماه تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، قدّم لها وحرّرها د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢، ص ١١.

(٧) هو حسن بن محمد بن محمود العطّار، والعطّار أبوه وهو محمد بن محمود كتن، وكان أبوه عطارًا، ومن هنا جاءه هذا اللقب، ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠هـ(١٧٦٦م)، ويرتدّ إلى أصول مغربية، ومن شيوخه الشيخ محمد الصبّان، والشيخ العروسي، والشيخ عبدالرحمن المغربي...إلخ، وقد اتصل بالفرنسيين اتصالا علميًا، فكان للعطار ولع بقراءة الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية، خاصة علمي التاريخ والجغرافيا، ونادى بضرورة تطوير التعليم الأزهري من حيث المناهج ومواد الدراسة، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية وبتدريس المواد الممنوعة، كما اتصل بالوالي محمد علي باشا، وتولى تحرير الوقائع العربية بين عامي

١٨٢٨- ١٨٣٠، ثم تولى مشيخة الأزهر عام ١٢٤٦هـ، وظل فيها حتى توفي سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٥م). انظر:هنادي يوسف العجب الأمين، القضايا النحوية في حاشية العطار على شرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهري:عرض ودراسة، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، السودان، ٢٠٠٥، ص ص ٧،٨؛ سامي بدراوي، الشيخ حسن العطار، رائد البعث الأدبي في مصر الحديثة: ١٧٦٦–١٨٣٥/ ١١٨٠–١٢٥٠هـ، المجلة، ع ٩٩، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مارس ١٩٦٥، ص ص ٣١–٣٣.

(٨) حسين على محفوظ، مرجع سابق، ص ٨١.

(٩) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣.

(١٠) المرجع نفسه، ص١٣، انظر أيضًا: زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص١٤٢.

(١١) جريجوري شرباتوف، الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي أول أستاذ عربي في روسيا ورائد من رواد الدراسات في اللغة العامية المصرية، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٥٥، نوفمبر ١٩٨٤، ص ٧٠.

(١٢) حسين على محفوظ، مرجع سابق، ص ٨١.

(١٣) زكريا الرفاعي، أزهريون ليبراليون "الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي"، مجلة العصور الجديدة، ع ٧، مارس ٢٠٠٠، ص ١٤٢.

(١٤) هو محمد بن عبدالرحمن قطة العدوي، وُلد بالقاهرة ودرس العلوم الدينية والعربية في الجامع الأزهر، وحفظ القرءان وجوّده على أبيه، ووقع عليه الاختيار ليقوم بتصحيح الكتب العربية بمطبعة بولاق الأميرية التي أقامها محمد علي سنة ١٨٢١م، ومن كبار تلامذته الشيخ حسن بن محمد داود العدوي المالكي، والشيخ حسن بن أحمد رفاعي الهواري العدوي، توفي الشيخ محمد قطة في عام ١٢٨١هـ. انظر: محمد حسن محمد يوسف، الشيخ محمد قطة العدوي، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط (جامعة الأزهر)، ع ٦، ١٩٨٦، ص ص١٣٥، ١٤٢–١٤٤.

(١٥) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(١٦) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣.

(١٧) محمد عبدالمنعم خفاجي، الأزهري الذي وجه الاستشراق الحديث وعلماءه وجهة جديدة: الشيخ محمد عياد طنطاوي، مجلة الأزهر، السنة ٣٦، ج ٨ و٩، شوال وذوالقعدة، ١٣٨٤،ص ٩٥٥.

(١٨) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ص ١٤٢،١٤٣، انظر أيضًا: عبدالموجود عبدالحافظ، أزهري في روسيا، مجلة الأزهر، المجلد الثاني والثلاثون، ج ٣، صفر ١٣٨٠، ص ١٩٣.

(١٩) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٥.

(٢٠) أبو الحسن الجمال، من محلة مرحوم إلى ربوع بطرسبورغ الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، مجلة الوعي الإسلامي، أبريل، ع ٦١٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ص ص ٦٤،٦٥.

(٢١) محمد عيّاد الطنطاوي، مصدر سابق، ص ٩.

(٢٢) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٥.

(٢٣) أبو الحسن الجمال، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٢٤) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٣، انظر أيضًا: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٢٥) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣.

(٢٦) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٢٧) محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٢٨) عبدالرحيم العطاوي، الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي والمدرسة الاستشراقية الروسية، أعمال الندوة التكريمية للعلامة محمد بن تاويت الطنجي، مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، مايو ١٩٩٧، ص ص ٢١٧،٢١٦؛ انظر أيضًا: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٢٩) ولد يوليانوفتش اغناطيوس كراتشكوفسكي في ١٦ مارس ١٨٨٣، بمدينة فيلنيوس البلطيقية، وقضى جزءًا من طفولته في مدينة طشقند بأوزبكستان إثر تعيين والده ناظرًا عامًا لمدارس آسيا الوسطى، ثم تعيينه مديرا للمكتبة العمومية بفيلنيوس عام ١٨٨٨، ورئيسًا لمصلحة الآثار التاريخية، التحق بكلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج عام ١٩٠١، وانكب

على دراسة اللغات الشرقية كالعربية، والفارسية، والتركية.... إلخ، ودرس العلوم العربية على يدّ الكسندر فيسلوفسكي Veselovski، ومن ثمّ عدّ شيخ المدرسة الاستعرابية الروسية خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتوفي في يناير ١٩٥١. انظر: ابن ميسة رفيقة، الأبحاث الاستشراقية لكراتشكوفسكي في مجال تحقيق التراث العربي، من أعمال الملتقى الثاني حول مناهج تحقيق النصوص بين الشرق والغرب، جامعة الجلفة، المجلد الخامس، الجزائر، ٢٠١٣، ص ص٦٤، ٦٧

(٣٠) فارس عزيز المدرس، جهود المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي في تاريخ الأدب العربي ١٨٨٣-١٩٥١، ع ٦٤، مجلة آداب الرافدين، ٢٠١٢، ص ص ٦٢-٦٣.

(٣١) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ص ٢١٧،٢١٦، انظر أيضًا: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٣٢) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ٢١٦،أنظر أيضًا: بين المخطوطات العربية من القاهرة حتى مقبرة فولكوف في بطرسبرج، ترجمة: محمد منير مرسي، المجلة، ع٨٧، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مارس ١٩٦٤، ص ٩٩؛ إبراهيم إبراهيموف، تاريخ اللغة العربية في روسيا وجامعة اللغات الحكومية ببياتيجورسك خاصة، مجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، ع ٣٦، أكتوبر ٢٠١٠، ص ٥٨١.

(٣٣) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٣٤) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦.

(٣٥) تقديم د. محمد عيسى صالحية في كتاب "رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٣.

(٣٦) بطرس بكتي كان مندوبًا قنصليًا Agent Consul لدولة روسيا في مصر، وكان معروفًا بقنصل المسكوف في مصر، وهو من أسرة سورية قديمة اشتهر أفرادها بحذق اللغات الأجنبية، وكان بينه وبين الشاعر شهاب الدين، شاعر عباس الأول، صلة ودّ، بدأها بطرس نفسه بزيارة للشاعر على غير معرفة، فمدحه الشاعر بأبيات في ديوانه. انظر: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٧، هامش ١.

(٣٧) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٣٨) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٥.

(٣٩) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦. انظر أيضًا: رجاء النقاش، الطهطاوي والطنطاوي وأحزان الوطن، مجلة الدوحة، ع ١٠، أكتوبر ١٩٧٦، ص ٣٣.

(٤٠) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦، انظر أيضًا:

-Vladimir Bobrovnikov, Al-Azhar and Shari'a Courts in Twentieth-Century Caucasus, Middle Eastern Studies, Vol.37,No.4,Oct.2001, p.4.

(٤١) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٤٢) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق،ص ٩٥٧، انظر أيضًا: راجية إسماعيل أبو زيد، الزعامة الفكرية للأزهر إبان الحكم العثماني، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، ع٤٢، يناير ٢٠٠٨، ص ٤٥١.

(٤٣) أبو الحسن الجمال، مرجع سابق، ص٦٦ .

(٤٤) عبدالرحيم مرون الوهابي، دور الأساتذة العرب في تطور الاستعراب الروسي، الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي أنموذجًا، مجلة الدفاع (القوات المسلحة السعودية)، مجلد ٣٦، ع ١٠٩، ديسمبر ١٩٩٧، ص ٧٥.

(٤٥) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٥.

(٤٦) تقديم د. محمد عيسى صالحية لكتاب "رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠"، مصدر سابق، ص ١٤.

(٤٧) اغناطيوس كراتشقوفسكي، الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، مجلة الزهراء، ع ٧، يوليو ١٩٢٤، رجب ١٣٤٣، ص ٤٢٢.

(٤٨) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٤٩) عبدالرحيم مرون الوهابي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٥٠) محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص٢٧٩.

(٥١) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٥٢) حسين علي محفوظ، الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوي، معلم اللغة العربية، العربي الأول في أوربا، مجلة كلية الآداب، بغداد، نيسان ١٩٤٤، العدد ٧، ص ٨٣.

(٥٣) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦؛ محمد صبري الدالي، في تطور رؤية الأنا للآخر (روسيا الحديثة في الكتابات التاريخية المصرية ١٥١٧- ١٩١٧، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٤٨.
(٥٤) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٤.
(٥٥) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق،ص ٩٥٥.
(٥٦) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ص ١٩٣،١٩٤؛ انظر أيضًا: أحمد تيمور، مرجع سابق، ص ٣٨٨.
(٥٧) جريجوري شرباتوف، مرجع سابق، ص ٧٢.
(٥٨) أحمد تيمور، مرجع سابق، ص ٣٨٨؛ انظر أيضًا: اغناطيوس كراتشقوفسكي، مرجع سابق، ص ٤٢٦.
(٥٩) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ص ١٤٥،١٤٦، : اغناطيوس كراتشقوفسكي، مرجع سابق، ص ٤٢٥.
(٦٠) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ٢٢٢.
(٦١) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٨.
(٦٢) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ٢٢٣.
(٦٣) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق،ص ٩٥٧.
(٦٤) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٧، انظر أيضًا: حسين على محفوظ، مرجع سابق، ص ٨٣.
(٦٥) جريجوري شرباتوف، مرجع سابق، ص ٧١.
(٦٦) محمد صبري الدالي، مرجع سابق، ص ١٥٠.
(٦٧) جريجوري شرباتوف،مرجع سابق، ص ٧١.
(٦٨) محمد صبري الدالي، مرجع سابق، ص ١٥٠.
(٦٩) محمد عيّاد الطنطاوي، رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠، والمسماه بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، قدّم لها وحرّرها د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢.





صورة من غلاف المخطوط



صورة من اللوحة الأولى من المخطوط



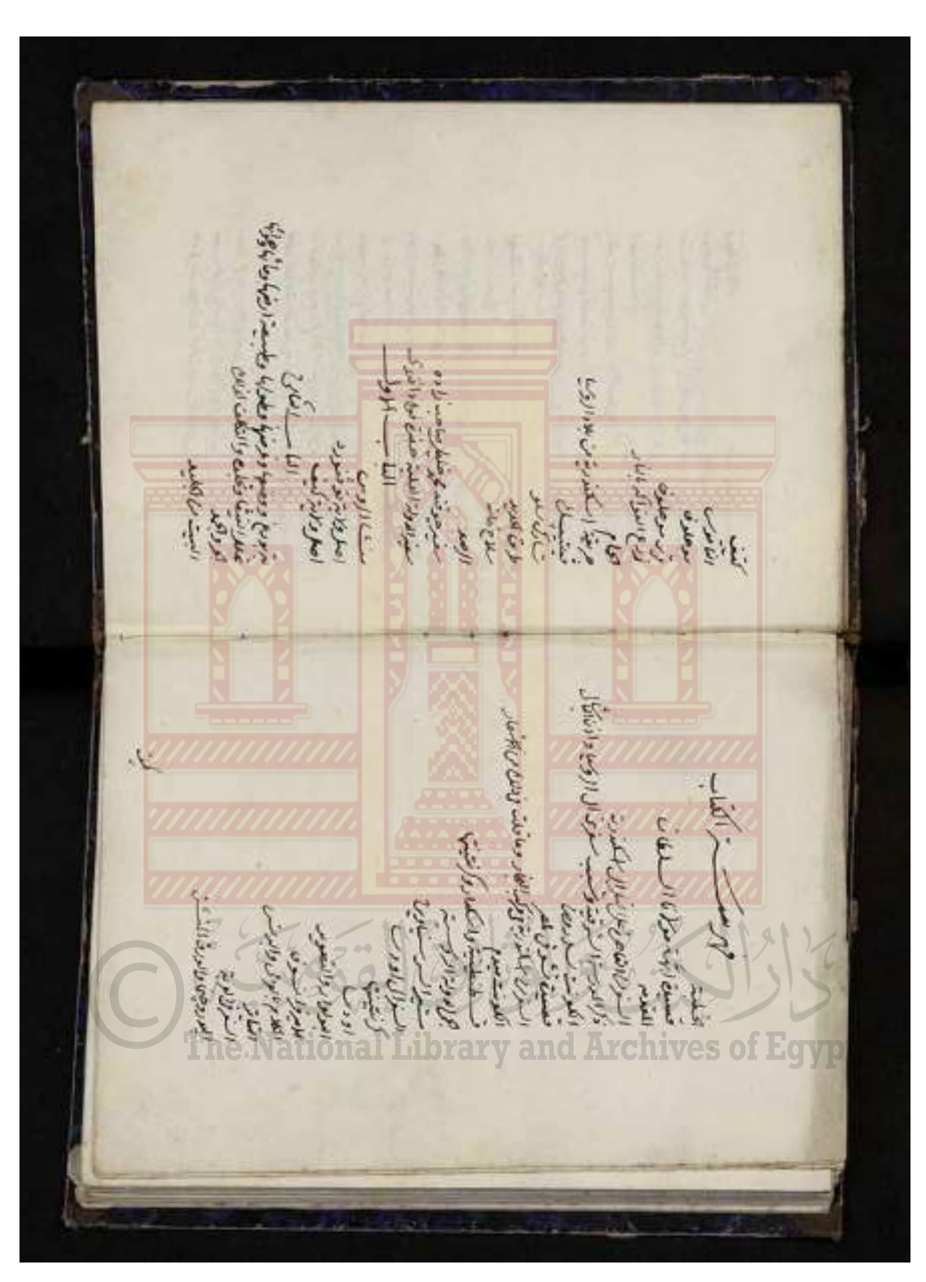
صورة من اللوحة الثانية من المخطوط وبها عنوان المخطوط.



صورة من اللوحة الأخيرة من المخطوط.



صورة توضح مكان المخطوط في المكتبة الشرقية ببطرسبرج.



صورة من الصفحة الأوى من فهرسة الكتاب.

[/١ظ] بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لمن سيَّر سيرة العالِم في أقصى أقطار العالَم، وقيّضَ له أعوانًا يعضدونه وأنصارًا يحمونه، وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده، ووده الغرباء، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء، وعلى آله المهاجرين والأنصار، آناء الليل وأطراف النهار.

أما بعد؛ فيقول محمد بن سعد عياد – أجراه الله على مناهج الرشاد–: العلم رأس مال الأكياس، والجهل لكل ضرر أساس، والعلم لا حدَّ له ولا نهاية، وبحره لا سيف له ولا غاية، والمشتغل به كل يوم يدرك جديدًا ويستنبط بديعًا فريدًا[1]:

ما حوى العلم جميعًا رجل ... لا ولو مارسه ألف سنه
إنَّما العلمُ بعيدٌ نيله ... فخذوا من كل شيء أحسنه

ويزداد بالسَّفار، وجَوْب البراري والبحار، ومعاشرة أجناس العالم الشاسعة البلاد، والنظر فيما أبدعوه من البدائع التي ليس لها نفاد، وأما من لازم وطنه، ولم يفك من أصر الدار رسنه، فقد عاش كالصغير الذي يبكي لفراق الحجر، وكان ضيّق الفطن، قليل الحجى[2]، كما قلت حين سافرت:

---

(١) منسوب للإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عند: الثعالبي، "التمثيل والمحاضرة"، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط٢، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦٥.

(٢) أي: العقل، جمع (أحجاء). انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٤، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ص ١٥٩.

ومـــن لم يغتـــرب في كـــل قطـــر فكالطفـــل الـــذي في حِجـــر أمّـــه
تـــراه ســـاذجًا لا عِلـــمَ يـــدري ويبكـــي حيـــث فارقهـــا همَّـــه

فلهذا رغب عقلاء الأمم على اختلاف أجناسهم في السفر، ولم يبالوا لفرط نفعه بما فيه من الخطر، وقد كان ذلك ديدن الأفاضل ودأب الأماثل، وانظر أيها اللبيب الماهر لتمثل العلامة الثاني السعد التفتازاني[1]، بقول الشاعر: [البسيط]

[/٢و] يومًا [2]بجزْوَى ويومًا بالعقيق وبالعُذيْب يومًا ويومًا بالخُلَيْصـاء

ولقول الحريري[3]:

أنَـــا في العَـــالَم مُثْلـــه ولأهـــل العِلْـــم قِبلـــه
غَـــيرَ أني كُـــلَّ يَـــوْمٍ بـــين تعْـــريسٍ وَرِحْلَـــه[4]

---

(١) هو: مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين.توفي سنة ٧٩١هـ. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ص ٣٥٠؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق:د. حسن حبشي، ج١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ص ٣٨٩-٣٩٠، وسماه فيه محمودًا ولعله سهو؛ وجلال الدين السيوطي؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (تحقيق) محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٦٤، ص ٢٨٥؛ وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (تحقيق) عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ج٨، دار ابن كثير، ط١، دمشق ـ بيروت، يناير ١٩٨٦، ص ص ٥٤٧- ٥٥٠.

(٢) ورد البيت عند الثعالبي منسوبًا لأبي محمد بن أحمد الخازن في: الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ج ٣، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٢٨. ضمن أخبار الصاحب إسماعيل بن عباد.

(٣) الحريري: مقامات الحريري، المقامات الطيبية، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٨٣.

(٤) التعريس: هو النزول آخر الليل، رِحْله: أي ارتحال. انظر: الحريري، نفس المصدر.

و غريبُ الدَّار لَوْ حلّ بطُوبى لم تَطِبْ له

ولقول أبي الطيب، أحمد بن عبد العزيز المقدسي[١]: [الكامل]

يا واقفًا[٢] بين الفُراتِ ودِجْلةَ عطْشان يطلبُ شَرْبةً من ماءِ

إن البلادَ كثيرةٌ أنهارُها وسَحَابُها فغزيرة الأنواءِ

ما اختلّت الدنيا ولا عُدم الندى فيها ولا ضاقتْ على العلماءِ

أرضَ بأرضٍ والذي خلقَ الورى قد قسَّم الأرزاقَ في الأحياءِ

وقد أتاح الله لي السفر إلى بلاد الروسيا الواسعة، وأقطارها البعيدة الشَّاسعة، بسبب طلب دولتها لي أُعلِّمُ اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية، فوافق ذلك ما عندي من الميل الحسن، وسرت لا ألوي على أهل ولا وطن، والعاقل أينما سار مع سكنه، والجاهل غريب في وطنه، وما عاقل في بلدة بغريب.

هذا مع شغف النفس بالأوطان وتأسفها على فراق الأهل والخِلاّن قال الأدباء: كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك إلى أن أوضحها ابن

---

(١) هو: أحمد بن عبد العزيز بن محمد بن حبيب السلمي، أبو الطيب المقدسي، اختلفت المصادر حول سنة وفاته، فقيل ٥٢٩هـ، وقيل ٥٣١هـ . ترجمته والأبيات عند: ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر ١٩٨٨، ص ٩٨٨- ٩٩١؛ و الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (تحقيق): بشار عواد معروف، ج ١١، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٤٨٢؛ والصفدي: الوافي بالوفيات، (تحقيق): جماعة من العلماء، ج ٧، دار النشر فرانز شتايز شتوتغارت (النشرات الإسلامية)، ١٩٦٢ــ ٢٠٠٤، ص ٧٢.

(٢) بغية الطلب : يا واقعًا.

الرومي في قصيدته لسليمان بن عبدالله، يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل، جبره على بيع داره واغتصبه بعض حدودها، فقال[١]: [الطويل]

ولي وَطَنٌ آليت أن لا أبيعَهُ ... وأن لا أرى لي غيره الدهر[٢] مالكا

عهْدتُ به شرخَ الشبابِ ونعمةً ... كنعمة قوم أصبحوا في ظِلالكا

[٢/ظ]وحَبَّبَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ ... مآربُ قضاها الشبابُ هنالكا

إذا ذكَروا أوطانهمْ ذكَّرتْهمُ ... عُهُودَ الصّبا فيها فَحنُّوا لذلكا

فقد ألفَتْهُ النفسُ حتى كأنه ... لها جسدٌ إن بان غودِرَ[٣] هالكا

وعند إبرام العزم على الظعن إلى هذا القطر الحسن، سألني جمع من الأصدقاء والمعارف، وجمّ من أهل المعارف أن أسطر في سفري هذا كتابًا، أودع فيه ما يَعذُب مذاقًا، ويطيب شرابًا من بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية، وطُرف استحسانية، ومُلَح اختراعية، فأجبت السؤال، وبادرت بالامتثال، فشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته «تحفة الأذكيا باخبار مملكة الروسيا»، ولما حان حين تمامه، وبدا بعد النقص حسن إبرامه، أردت أن أشرف ديباجته، وأزين فاتحته بذِكر اسم مولانا أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، سلطان البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين، وارث تخت السَّلطنة كابرًا عن كابر، الممدوح

(١) انظر ديوان ابن الرومي، ط٣، دار الكتب المصرية، ٢٠٠٣، ص ص١٨٢٥- ١٨٢٦. مع اختلاف ترتيب الأبيات.

(٢) الديوان: وألا أرى غيري له الدهر.

(٣) الديوان: غودرت.

اسمه على أعواد المنابر، السَّائر عدله سير المثل السَّائر، والفائض كرمه فيض البحر الزاخر، حامل أعباء الخلافة على كاهله، ومجدد ما اندرس من معالم الدين ومناهله، الباني على ما شيد سلفه الصالح، الباني على ما يقوي الدولة من المصالح، حامي الدولة العلية، وناصر المملكة العثمانية، القائل عزمه الظافر، كم ترك الأول للآخر، والمنشد فخره بين الملأ، قول المعري أبي العلاء[1]: [الطويل]

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ ... لآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ

[٣/و] والمتمثله رعيته لما عمّها من الخصب والسهل، بقول ابن سهل[2]:

جاءنا آخر الزمان كما تفـ ... ـترُّ عند الأصائل الأزهار

مولانا السُّلطان ابن السُّلطان المحفوف بعناية الملك المجيد، والملحوظ بحسن التأييد على التأبيد مولانا السَّلطان عبد المجيد[3]:

---

(١) أبو العلاء المعري: سقط الزند، بيروت، دار صادر، ١٩٥٧، ص ١٩٣.

(٢) هو: إبراهيم بن سهل الأندلسي الأشبيلي، اختلفت الروايات حول تاريخ وفاته والأشهر سنة ٦٤٩هـ. ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف ج١، ط٤ دار المعارف، القاهرة، ص ص ٢٦٩-٢٧٠؛ والذهبي، تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٩١١؛ والصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج٦، ص ص ٥-١١، والأبيات في: ديوان ابن سهل الأشبيلي، تحقيق: أحمد حسنين القرني، المكتبة العربية، مصر، ١٩٢٦، ص ٤٨.

(٣) السلطان عبد المجيد: الابن الأكبر للسلطان محمود الثاني، ولد في ١٤ شعبان ١٢٣٧هـ/٦ مايو ١٨٢٢م، تولى الخلافة، ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت الدولة في غاية الاضطراب بسبب انتصارات جيوش محمد علي باشا والي مصر ودخولها إلى الأناضول، فتدخلت الدول الأوروبية عندئذ وأجبرت والي مصر على توقيع معاهدة ١٨٤٠، وتولى الحكم في ٢ يوليه ١٨٣٩، وقد قام بالعديد من الإصلاحات لتنظيم الدولة العثمانية فأصدر فرمان=

لازال للإسـلام أشـرف كعبـة لم تخل يومًـا مـن طـواف وفـود

لازالت أوامره نافذة ماضية ولا برحت دولته زاهرة باهيه:

بقيـت بقـاء الـدهر يـاكهف أهلـه وهـذا دعـاء للبريـة شـامل

وقلت مقرظًا اسمه الشَّريف بقصيدة أول صدورها حضرة السُّلطان عبـد المجيـد خان، وأوّل أعجازها خلَّد الله ملكها إلى آخر الزمان، وهي:

حمـت بـالظبي هيفـاء بنـت عيـد خـدود ورود عـن ورود عيـد

ضنيت أسـىّ مـن ميلـها وهـي بانـة لها حسن ثغـر كالجمـان نضـيد

رنت بلحـاظ فـاعترى الظـبي خجلـه دهتـه وآوتـه لبلقـع بيـد

هفـا نحوهـا قلـبي فقـال رقيبـها أتهفو فقلت اللـوم غـير مفيـد

أأنقـاد غيًـا في هواهـا كمسـلم لهـدي أمـير المـؤمنين رشـيد

لفخـر بـني عثمـان خاقـان أرضـها لحـائز مجـدٍ طـارفٍ وتليـد

سـليل الأسـاطين الكـرام وفـائق هصور طويل الباع أصـيد صـيد

لـه الله مـن ملـكٍ محـا بحسـامه مـآثر ظلـم في العبـاد شـديد

=الكلخانة ١٨٣٩م، ثم الإصلاحات الخيرية ١٨٥٦م، وقيام حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) ضد الروسيا والتي انتهت بتوقيع معاهدة باريس ١٨٥٦، توفي في يونية ١٨٦١ .لمزيد من التفاصيل انظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: د. إحسان حقي، ط١، دار النفاس، بيروت، ١٩٨١، ص ٤٥٥-٥٢٩؛ أحمد آق كوندز، سعيد أوزتوك، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، إستانبول، ٢٠٠٨، ص ٣٩٧.

طبيــــب بـــأدواء الخلافـــة عـــالم لديــه دواء الجــبر غــير بعيــد

أفــاض علــى الإســلام صــيّب عدلــه كغيث على قفــرا جــشّ جيــد

نمى الخصــب مــا بــين الرعايــا بوقتــه هنيئًــا لتنظــيم أشــاد ســديد

عــلا درجــات ســاميات إلى الســهى إلى حسب عــالي النجــار عتيــد

بــنى وأقــام الــدين فــازداد مجــده لهذا دعــاه النــاس عبــد مجيــد

دعا الناس بالحســنى لمــا فيــه خيرهــم يســير إلى الــيمنى بكــل ســعيد

أعــدّ لنصــر الــدين كــل سميــدع أفــاض عليــه ســابغات حديــد

لعســكره الجــرار صــولة زاخــر خضــم بــأمواج الــرداء مديــد

مهيب شديد البــأس في حومــة الــوغى رؤوف وحيد العصر خــير فريــد

[٣/ظ]جرى مدحه في عــالم الأدب الــذي أتــى بنظــام معجــز للبيــد

يجــود علــى العــافي ويجــزل رفــده لمحسوب ذيــاك الحمــى ووصــيد

دنـــوت بآمـــالي إلى روض جنـــة زهى حلا شِعري بــه وقصــيدي

خــدمت ببيــت الشــعر عــالي بابــه مريد العلى فالباب خــير عميــد

أتيـــت إليـــه خاضـــعًا لعلـــوه أخوض غمــارًا أو بطــيء بريــد

نعمنـــا وللـــدنيا بـــه ورعيتـــه نعــيم فأيــام الأنــام كعيــد

المقدمة

في سفري من مصر المحروسة إلى بتربورغ المحمية، وما رأيت من البحار والجزائر، والبلاد البهية مع تحلية ذلك بما قلته من الأشعار المطربة في البدائع المستغربة، فأقول: فارقت وطني وأهلي وعيالي غروب شمس يوم السبت ٢٤ من محرم الحرام، افتتاح سنة ست وخمسين بعد الألف والمئتين من الهجرة النبوية ــ على صاحبها أفضل الصَّلاة ــ وأزكى التحية، الموافق ذلك ٢٦ مرس[1] الأفرنجي ــ يعني آذار ــ سنة ١٨٤٠ مسيحية بحساب فرنج مصر والقسطنطينية الجاري على بلاد فرانسا والنيمسا ونحوهما، وأمّا على حساب الروسيا فينقصون اثني عشر يومًا، فيكون ذلك اليوم عندهم رابع عشر مرس، ويسمى الأول الحساب الجديد، والثاني الحساب القديم، وينبني على ذلك بعض التواريخ والأعياد، كأول السَّنة وعيد الميلاد مما لا يتعلق بالقمر، أمّا ما يتعلق به كعيد الفصح، فإنه في يوم واحد عند جميع النصارى من الروس وغيرهم، ومن حيث إني أذكر في هذا الكتاب ما يتعلق بالرُّوس وأخبارهم فأبني على تاريخهم، فنزلت بعد التوديع والتشييع:

وكان أوّل عهد العين من جَزعٍ بالدمع آخر عهد القلب بالجلد

في صندل على ظهر النيل، يسير مع تياره الجميل، والنيل هادئ، [٤/و]والقمر هادي، والملاَّح حادي، والنوتيّ شادي، فهبّت بعد برهة روائع الأزهار، فاستنشقها الأنف، ولها القلب استطار، فأعلمتنا أننا أمام جنينة شبرى الفائقة على البساتين قدرًا:

(١) كذا رسمها المصنف وسنورد هذا الخلاف هنا فقط.

كهيفاء رامت تختفي في شعورها فنمَّ عليها عَرْفها وسوارها

ثم عند الصباح، تلاعب الموجُ بالزورق حتى أسقط الشراع، فأرسينا عند بلد يقال لها زاوية رزين[1] وما رزن عندها بحر النيل ولا استطاع، فقلت مواليا:

في السبت فارقت أحبابي صفارى شمس
من كل أهيف رشيق من كل بدر وشمس
نزلت صندل ظريف لأجل أن أسلي النفس
غلب عليه الهوى زيي وكُثْر الريح
وعند زاوية رزين البحر هاج بالنفس

وعندما أرسلت ذلك في ضمن مكتوب إلى مصر، قال الشيخ يوسف الصيداوي مجيبًا في مكتوبه عن هذا المواليا بمواليا مثله:

فارقتنا والجوى في القلب منارس
والدمع منا انطلق والأسر راح في حبس
والعقل منا أتى له من فراقك مس
والفلك فيكم جرى والهم بي أرسى
مذ غبت عنا تحققنا مغيب الشمس

(١) في القرن الثاني عشر وُجدت قرية قديمة تسمى شبرا لون، تسلّط النيل على مساكن هذه القرية ودمّرها، فاضطر أهلها إلى إنشاء قرية أخرى بدلاً منها في أرض مرتفعة بالقرب من شاطئ النيل، وسمّوها زاوية رزين نسبة إلى الشيخ رزين الذي كان ضريحهٍ في ذلك الوقت بتلك الجهة. للمزيد راجع: محمد رمزي في: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، ق٢ (البلاد الحالية)، ج٢ (مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ٢١٧.

وقد ساعده الوقت على إحكام التوريه، وقوله: «والفلك فيكم جرى» معناه: إنكم بحر، وقد ينسى التشبيه كما في قول الشاعر[1]: [المتقارب]

ويصْعَدُ حتى يظن[2] الجهول بأن له حاجة[3] في السماء

[/٤ظ] ثم سرنا بعد هدوء الريح قليلاً، ولا زلنا في سير ووقوف، وجرايان وتجديف غروف، حتى وصلنا بعد اللتيا والتي ثغر سكندرية ليلة الجمعة بعد غلق الأبواب، فلم نستطع الوصول إليها بسبب من الأسباب، فقلت متغزلاً مشيرًا لقصة زليخا مع يوسف لّما غلّقت عليه الأبواب وقالت له : هيت لك، وهذا يسمى في علم البديع التلميح:

وافيتها أزورها جنح الدياجي والحلك
فغلقت أبوابها ولم تقل لي هَيْتَ لك

ثم دخلت في الصبح المدينة عند «الكونت ميدن» من أعيان دولة الروسيا وكبرائها، وكان إذ ذاك القنصل الجنرال، والآن هو سفير الدولة الروسية في بلاد

(١) هو أبو تمام حبيب بن أوس انظر: ديوان أبي تّمام الطائي(ت ٢٣١ هـ)، (فسّر ألفاظه اللغوية): محيي الدين الخيّاط، (طبع بمناظرة والتزام): محمد جمال، نظارة المعارف العمومية، نومرو ٤١٣، ص ٣٥١، والبيت في رثاء خالد بن يزيد الشيباني: انظر: الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، قدّم له، راجي الأسمر، ج٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤، ص ١٨٧.

(٢) في الديوان: لظنّ.

(٣) في الديوان: أن له منزلاً.

أمريقا بعد أن كان سفيرها في بلاد الفرس، فأقمت عنده أسبوعًا بغاية الإكرام ووفور الاحترام، وهو الذي هيّجني حين كان في مصر على الذهاب إلى بلاد الروسيا، وذلك أن الأمم منذ تقدمت في التمدن، علمت فائدة ارتباطها بعضها ببعض، وأنشدت قول الشاعر:

النَّـــاس بالنَّـــاس فـــلا تنفـــرد وكـــن أخـــا حـــزم وتعيـــيش

مـــا لقـــويّ عـــن ضـــعيف غِـــنى لا بـــدَّ للســـهم مـــن الـــريش

فلذلك أنشأت مدارس للألسن الغربية، وعلمت بعض رعاياها هذه الألسن لكـــي تكون لها ترجمانات عند الحاجات، ولقوة الدولة الروسيا، وكثرة ارتباطها بالـــدول الغربية، فعلت ذلك وتقدمت فيه على غيرها، حتى إنه يوجد فيها من أهل الألســـن المختلفة ما لا يوجد في غيرها، وقد اعتنى وزير الغرباء سعادة الكونت [٥/و] «نسل روض» بالألسن الشرقية، فأنشأ لها مدرسة مخصوصة غير قانع بالمدرســـة العموميـــة لشدة الاحتياج إلى الألسن الشرقية، ففي هذه المدرسة معلمون لهذه الألسن، لا كما في الأوروبا، بل كل لسان له معلم من أبناء جنسه، ففيها العالم الفاضل «مرزا جعفر» معلم اللسَّان الفارسي، ومربي التلامذة والتراجمة الروسية، ليس فقط في هذا اللّسان بل وفي اللّسان التركي، وفيها «مسيو ديميزون» وهو وإن كان ليس مشرقيًّا، لكنه تعلم هذه الألسن بكفاية بحيث إنه يتكلم بها بالسهولة.

ومن حيث إن سعادة الوزير معتن بإحياء مدرسته لا زال في كل حين يجتهـــد في تسهيل تعلم التلاميذ، فلهذا لما توجه جناب الكونت «ميدن» إلى الدِّيار المصرية كلّفه

بالتفتيش على معلم عربي للمدرسة، ومن حيث إني تعرفت بجنابه بواسطة «مسيو فرينل» الذي طالع معي كتبًا عربية أدبية وتاريخية، واكتسب في هذا اللّسان مهارة المعية، بسبب كثرة صحبة العرب، والمعية طلب مني الذهاب، فأجبت، ومن مدة أربع سنين بالدخول في هذه المدرسة تشرفت، وبعدما رضيت استأذن لي جناب الكونت من حضرة الباشا عزيز مصر وممدها، وحامي ذمارها ومؤمنها، فأذن لي وطلب حضوري، فذهبت عنده فأمرني بالجلوس، ثم حضني على تعلم لسان الروسيا، ووعدني بالإكرام إذا تعلمته؛ لأنه مشغوف بجلب الألسن الغريبة إلى بلاده؛ ولذلك ترى في مدارسها نجابة التلامذة خصوصًا في اللسان الفرنساوي، وكتب لي مرسومًا بختمه كالالتزام بما وعد، وقلت متشوقًا لمصر[/٥ظ]وأهلي فيها:

فاض جفني بماء دمع حميم ... لتنائي صحابة وحميم

حيث فارقت غير قال دياري ... ومباني علومها والفهوم

حيث نيطت عمائمي وألمت ... بي ثياب الصبا وبرد النعيم

تعتريني الخطوب منكدرات ... تتوالي وتارة في نجوم

ولثغر الإسكندرية يممت ... لطرد النعا وصرف الهموم

بلد أهله حماة ذمار ... لم يكونوا كمثل ذا من قديم

ودعاني عزيز مصر إليه ... وحباني بالعز والتكريم

قال لا تضع زمانك إلا ... في اكتساب العلوم والتعليم

فيمينًا لأرحلَنَّ سريعًا ... لبلاد الشمال أفق النسيم

أنـــا نجـــمُ وكـــم بمصـــرَ شمـــوس	ومع الشمس كيف مـــرأى النجـــوم
فلهــــذا بزغــــت نحــــو بــــلاد	أنا فيهـــا شمـــس لكشـــف الغيـــوم
في ســـفين الـــنيران قـــالوا ولكـــن	هي عندي تـــدعي ســـفين النعـــيم
جنـــــة جُنَّـــــة تجـــود في البحـــر	ولـــو هـــاج مثـــل خيـــل هـــيم
مـــا شــــراع بهـــا فيخرقـــه الـــر	يح وتلقى حمـــلاً كحمـــل الـــدهيم
مثل ما قد عاينـــت في نيـــل مصـــر	حيث كنا تحـــت العنـــاء الـــوخيم
كم سفين هوت بمـــا كـــان فيهـــا	لاعتساف الملاح مـــن ســـوء خـــيم

ثم نزلت في سفينة بخار نمساوية ٢٦ مرس وفيها ثلاث درجات:

الأولى: جهة الدفة، وهي مشتملة على عدة أوض وديوان وسفرة للطعام، وفيهـــا كتب لمن أراد المطالعة.

والثانية: جهة السكان وليست كالأولى.

والثالثة: في الوسط لا أوض فيها، وهناك مطبخ وكرار.

ووقت الغدا مقرر، وكل من طلب شيئًا أحضره له الخدَّامون، ولو كـــان الـــثمن [٦/و]أغلى بسبب أن هناك ليس سوق، وسرتُ في البحر الأجاج المتلاطم الأمـــواج،

وذلك أول ركوبي المالح والوابور، فحصل لي دوخة وتقيـأت، وضـاقت نفسـي، فذكرت قول ابن رشيق[1]:

البحـر صـعب المـذاق مـرٌّ لا جُعِلـت حـاجتي إليـه
ألـيس مـاء ونحـن طـين فمـا عسـى صـبرنا عليـه

ثم هدأت ثاني يوم، فقلت إذ ذاك:

النيـل غضـبان علـيَّ كأنـه لحـبتي لا يرتضـي بتنـاءي
وأرى الأجاجَ الملح عذبًا سـيره فكأنـه متشـوق للقـاءي

وقلت:

وبورنـا ونـار كانونـه من هول هذا البحـر نصـران
أزرق فيـه زبـد أبـيض كأنـه كشـمير نصـراني

وفي ذلك اليوم لم نر أرضًا أصلاً كما قلت:

والبحر أزرق كالسماء ولا نـرى أرضًا كأنّـا في طبـاق سمـاء

ثم وصلنا جزيرة جريد إحدى الجزائر المعتبرة في مملكة بني عثمان، يحفها جبل عال متعرج بالغاب، وهي مخصبة بسبب كثرة الينابيع، والإقامة فيها أحسن ما يكـون في الدنيا كما قيل؛ لأنها مملوءة بالمواشي والأثمار الطيبة، والنباتات المختلفـة، والمعـادن

---

(١)الأبيات منسوبة لابن رشيق عند النويري في: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مجموعة من العلماء، ج١، دار الكتب المصرية والوثائق القومية، ط١، ١٩٣٢ـ ١٩٩٧، ص ٢٥٥.

الكثيرة، وافرة المحصولات من الحنطة والخمر والزيت والخشب والكتان والعسل والشمع والحرير والقطن والسمك والطير، وقد قاست كثيرًا من التقلبات والفتن، ولولا ذلك لكانت من أحسن البقاع، وسكانها كانوا في زمان الروم مليونًا ومئتي ألف، والآن نحو خمسمائة ألف فقط، وفيها مسلمون من ذرية العرب الذين كانوا رؤساء هذه الجزيرة، وروم، وبعض [٦/ظ] يهود، وأرمن.

وأرسينا في «كنى» أشهر مدنها، ومرساها جميلة تحيط بها البيوت المبيضة، فحكت لنا مباني الروم، إذ كانت أول ما رأينا منها، وبها منارة توقد في الليل لاهتداء السفن، وقد رأيناها موقودة؛ لأننا وصلنا في الليل.

وفي الصبح اجتمعت الناس أفواجًا على السَّاحل لمشاهدة الوابور، وتكاثروا لما سافر، وهكذا في كل البلاد. هذه الأعجوبة لم تنقض جدتها ولا أظنها تنقضي.

ومثلها في ذلك سكة الحديد البخارية، هذا ومخترع منفعة البخار الأول حُبس وعُدَّ كلامه كالهذيان، ومخترع سفينة البخار طلب من نابليون مالاً لعملها، فأعطاه ثم لما عملها وسيرها أخبره، فلما حضر واجتمع الجمُّ الغفير للرؤية ما سارت، فقال: يلزم أن تسير لأني سيرتها البارح، ولكن بعض الحُساد لعب في آلاتها، فما استمع له نابليون، فلما حُبس في جزيرة إلبن، رأى سفينة بخار تجري، فتحسر زيادة على حسرته، وعض بنان الندم.

وقلت في سفينة النار، وكان بها كثير من الحجاج، وذلك عند سفري من إسلامبول إلى مصر مُوَرِّيًا:

هذي العجيبة لا تَقَضى جدة هي جنة قد صُورَت من نار

فيها لبيت الله ساروا شُرعًا فغدت منافع مسلمٍ ببخار

وعسر عليَّ جدًّا الخروج لرؤية هذه المدينة بسبب الطاعون المصري المقتضي حبسنا في هذه السفينة ثم في الكرانتينة حتى نتطهر من هذا الحدث الأكبر، فما خرجنا أبدًا إلا في إسلامبول، لكن جاءت زوارق كثيرة فيها برتقان وغيره للبيع، فيؤخذ بالاحتياط التام وعدم الملامسة، إذ من لمس انتقض طهره، ثم سرنا منها في بحر الروم وقد هاج وماج، فعاد لي ما قاسيته أولاً، فقلت:

يا راكبًا لجج البحار مخاطرًا لا تغترر إن مرّ يوم صالح

لا يُنضح الماعون إلا بالذي قد حلّ فيه وهو بحرٌ مالح

وقلت:

للروم بحرٌ أزرق كعيونهم لي مُقلقُ

لكنه متشعبٌ والطرف منهم ضيقُ

لا تعجبوا إن خِفته فهو العدوُ الأزرق

فلذاك قلبي نحو بحر النيل دومًا شيّقُ

وقلت عن طريق التخميس:

لما أردت إلى المعالي أرتقي

لم أخش من خطر السفار وأتقي

بل جبتُ فيه مغربًا من مشرقٍ

وركبــت لجــة بحــر رومٍ أزرق [٧/و]من خَطبه هيهات ما لي مشفق

أغبرّ عيش بالتصافي أخضر

والعود من بعد اسوداد مقمرُ

وأزور محبوب بديع أصفر

وقد حلا فيه الممات الأحمر

وما رثى لي العدو الأزرق

فيه تلميح لقول الحريري: فَمُذْ اغْبَرّ العيشُ الأخْضَرُ...إلخ[1].

وقلت:

يا ليتني مثل الحريري قــد رثــى له من الخُطَبِ العــدو الأزرق

وقلت مواليا:

يا ناس علــى شــان غــزال الــبر في الأبحــار
نزلت أدورو وفي الحــال خــدت مركــب نــار
أنــا تــرابي وجــاني الضــد ليــل ونهــار
أهين مــن البحــر أهــين مــن الهــوا والنــار

وفي «الهوا» تورية بالهوى بمعنى «الحب» ، وكذلك في النار تورية بنار العشق.

(١) الحريري: المقامات البغدادية، مصدر سابق، ص١١٣.

ثم أرسينا ثالث يوم عند جزيرة سيرة وبها محل للكرنتينة ككنى، وبقربها منارة، وتزودنا منها لسفينتنا فحم الحجر، فوقودها الحجارة لأنها سقر، ثم سرنا ومررنا على عدة جزائر إلى أن أرسينا عند أزمير، وهي مدينة عظيمة من بلاد الأناضول، بها كثير من الأشجار والمباني، وهي شبه جزيرة؛ لأن البحر لا يحيط بها من جميع النواحي، واعلم أن بعض علمائنا يطلق على شبه الجزيرة جزيرة كقولهم: جزيرة الأندلس، وهي تجوز بسبب المشابهة كما نبه عليه الشهاب الخفاجي[1].

وها هنا نكتة لطيفة، وهي أن بعض مترجمي مصر ترجم كلمة «بريسيكل» بالفرنساوية بقوله: «بحيث جزيرة» [٧/ظ] وهذا من ضيق الفطن؛ لأن هذا التركيب لا يحسن في العربية، وزاد ذلك تعسفًا بضم الباء التي هي حرف جر فيكون تصغير بحث، وهو خروج عن البحث، وقد غربت عنه فصاحة استعمال حيث فإنها لا تضاف للمفرد إلا نادرًا، وأيضًا أراد الاختصار فوقع في الإطناب من حيث لا يشعر، فإنه ترجم بثلاث كلمات مع الركاكة، فحقّ أن يقال له: «حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء»، والذي ألجأه إلى ذلك أن كلمة«برسك» تترجم تارة ببحيث، وقد كان يغنيه عن هذا كله أن يقول: شبه جزيرة كما قلنا:

ومكلف الأشياء ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

(١) هو: أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي، توفي سنة ١٠٦٩هـ. المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج١، المطبعة الوهبية، ١٢٤٨ هـ، ص ص ٣٣١-٣٤٣.

وهذا باللغة الروسية «بولواوستروف» أي: نصف جزيرة.

وقد دخلت أزمير عند رجوعي إلى مصر، فوجدتها بلدًا كثيرة الزحام، نافقة المتجر، بها كثير من الروم والغرباء، ورأيت فيها بيوت الروم مبلطات بالرخام من أسفل، وعند رجوعي ثانيًا من مصر كرتنت في بيت ظريف على خورها، محفوف بالكروم والأشجار، فأعقمنا هذه الأعناب، فلم يولد لها بنت تسحر الألباب.

ثم مررنا على بحر مرمرة، وعندها ساعد اعتدال الهواء الماء والنار، وقرب الأرض المخضرة بالأشجار، فاجتمعت لنا العناصر الأربعة، وكم رأينا من بلاد وقلاع وجبال وتلاع، ورأينا سمكا يطفو على الماء، وكذلك في الخليج القسطنطيني، ثم وصلنا مدينة الإسلام والتخت الشامخ على الدوام، مدينة قسطنطينية المحروسة، ونعمنا بطلعتها المأنوسة، وكان ذلك ليلة السبت، فحصلت لنا الراحة والسبت. لكن أسفت جدًّا على الوصول ليلاً بسبب عدم إبصار المواضع القريبة، وشكرت النار التي أخرجتني من الماء، إذ المراكب القلعية تمكث شهرًا أو أكثر، فقلت حينئذ:

لم يدر عُبّاد السعير بنفعها ... بل أجَّجوها في هباء هواء
وأرى الفرنج دروا بخالص سرها ... إذ سيّروا سفنًا بها في الماء
مع أنهم لم يعبدوا فكأنهم ... قصدوا التماس العذر للقدماءِ

[٨/و] ومرسى إسلامبول أبهج المراسي، ووضعها أحسن الوضع؛ لأنها ملتقى أوروبا وآسيا بين البحر المتوسط والبحر الأسود، محدقة بريف مخصب، وقصبة مملكة واسعة عريضة، ويمر بها محصولات الشرق والغرب والجنوب والشمال، تتابع فيها قوافل

آسيا وسفاين أوروبا القلعية والبخارية بلا انقطاع، مملوءة بأمم عديدة وطوائف شتى من الترك والروم والأرمن واليهود والفرنساوية وغيرهم، نافقة المتجر، بهية المنظـــر، يظهر عليها الخصب والخير والترف والمسير، وزوارقها كالقسي.

ونزلنا من الوابور في زورق في الخليج القسطنطيني إلى قصر الكرنتينة في اسكدار، وهي مدينة كبيرة من آسيا أمام إسلامبول على شاطئ الخليج القسطنطيني الأيمـــن، فيها نحو مئة ألف ساكن، مشتملة على عمارات وحدائق ذات بهجة، وقرافات مملوءة بقبور الرخام، في وسطها شجر السرو، فدهشت من حسن الأبنية علـــى الطـــرفين خصوصًا من سراية حضرة مولانا الُسلطان، فإنه لا يفي بحسن نعتها قلم ولا لسان، وإحكام شرفها يؤذن بشرفها، فهي حرية بقول من قال[1]:

إنّ الملـــــوك إذا أرادوا ذكـــــرهم — مـــن بعـــدهم فبألســـن البنيـــان
إنّ البنـــــاء إذا تعــــاظم قــــدره — أضحى يدل على ارتفاع البـــاني

فقلت:

مذ لاحت إسلامبول وهـــي الـــتي — مـــن يرهـــا ودّ بهـــا مســـكنة
علمت أني ضـــاع عمـــري سُـــدًا — في مصر دار الـــذل والمســـكنة
نســـيت مـــن حســـن مشـــيداتها — أني يُغـــدى بي إلى الكرتنـــه

(١) نسبهما ابن سعيد المغربي للملك عبد الرحمن الناصر المرواني في: المغرب في حلى المغرب، ج ١، مصدر سابق، ص ص ١٧٩-١٨٠.

فإن قلت: لِمَ قلت الكرتنة، وإنما هي الكرنتينه؟ [٨/ظ] لأن أصلها كرانتين كلمة أفرنجية من «كرانت» أي «أربعين»؛ لأنها كانت أولاً كذلك، وأما الآن فأربعة عشر يوما، قلت: نعم لكن المصريين لما أخذوا هذه الكلمة استقوا منها فعلاً مع القلب، فقالوا: كرتن يكرتن ومصدره الكرتنة. وقَصَّرُ الكرنتينة باسكدار على الخليج، وبه إوض كثيرة للأمتعة والمسافرين، وفيه حنفيات كثيرة، عذبة للوضوء، وغيرها من المرافق، فلا يحتاج للسقايين مع أنه على المالح بخلاف قصور مصر، فإنها محتاجة للسقايين ولو على النيل، وبقربة مقبرة للمسلمين ومقبرة لغيرهم، فمن مات أيام الكرنتينة دُفن هناك.

وعندما وافيناه كان هناك رجل مغربي معه جوار ماتت إحداهن بالجُدري، فغسلت وكفنت ودفنت هناك، وقد أخبرني ناظر الكرنتينه أن الطاعون من مدة ثلاث سنين يعني من وصولي، فُقد من إسلامبول وإلى الآن هو مفقود فيها، فله نحو ثلاث عشرة سنة معدوم والحمد لله:

قالت وقد عزمت على ترحالها: ماذا تود؟ فقلت: أن لا ترجعي

فمتى تُفقد من مصر هذه الطامة والداهية العامة التي تخرب البلاد، وتهلك العباد، وقد أصبت في طاعون سنة ١٢٥٢هـ، ومكثت نحو عشرة أيام بلا نوم، وكان رأسي ثقيلاً جدًّا وخيف عليّ الهلاك وقت البحرانه، وغاب عني الإحساس والعرفان، ولكن الله سلَّم، فانفتحت كرة الخطوب وبثرة الكروب، فهل سمعت قولي:

يكفيك يا كرة الخطوب إقامةُ وتدحرجي ما للكرات قرار

وتفجري لو كنت أنـتِ حجـارة فلربمـا تتفجـر الأحجـار

فأحسست بالخفة، وبعد نحو أسبوعين التأم الجرح، [٩/و] وانضم الفتح، وقد كان لي وِرْدٌ أقرؤه للحفظ صباحًا ومساءً، فلتنفيذ إرادة الله نمت ذلك اليوم مستأخرًا، واستيقظت وبرجلي أثر خفيف، ثم تضاعف وأضعفني، وأشيع في القاهرة موتي، فلما علمت بذلك قلت مضمنًا:

تمنى أنـاس أن أمـوتَ وإن أمُـت فتلك طريق لسـت فيهـا بأوحـدِ
وإن أظهروا مـوتي فلـيس بمُنكـر إذا أظهر الشـيطانُ مـوت محمـد

وهذا تلميح لإشاعة الشيطان: قُتل محمدًا. يعني النبي صلى الله عليـه وسـلم في بعض الغزوات.

ثم إن قصر الكرنتينة تحت الجبل وكله أخضر بالأعشاب. والجبل مملوء بالخضـرة والأشجار، وهكذا جبال الروم، فليست محله كجبل الجيوشي بمصر، فمـا ألطـف العبور في الزوارق في طول الخليج إلى البحر الأسود، فهناك الجبال محفوفة بالأشجار من الطرفين، مزينة بالبيوت الجميلة والبعيدة، مسكن الأمراء أيام الصيف، ثم خرجت من الكرنتينة ونزلت غلطة، وهي بلد كبيرة مشحونة[١] بالفرنج وطرقها وعرة ضيقة في صعود وهبوط، متعبة في المشي، أمام إسلامبول، وبها قبة عالية سلالمها كالمنـارة،

(١) هكذا وردت في المخطوط، والصواب: كبير مشحون. كما جاء في قوله تعالى "لا أقسم بهذا البلد" (سورة البلد، أية: ١)، فالبلد مذكر وليس مؤنثًا.

لكن في وسطها اتساع وفيها قهوة فوق وشبابيك محدقة بها من سائر النواحي، نظرت فيها المراكب والقصور، وفيها ساعة دقاقة من حديد.

[٩/ظ] ثم ذهبت في زورق إلى إسلامبول، فوجدتها لطيفة جدًّا إلا أن لطف الظاهر أبدع، ولعل بهمة مولانا السُّلطان أن يكون ظاهرها عنوان باطنها يومًا، وغالب أسواقها ظريفة كخان الخليلي بمصر وأحسن، ومساجدها كثيرة جميلة معتبرة، وكذلك قرافاتها خصوصًا قبور السلاطين، ففيها تأنق زائد، وفيها حمامات عديدة حسنة البناء، وبها كثير من تجار العرب كالمغاربة والشوام، ويظهر على أهليها الغنى، وبها كثير من الأقمشة من كل جنس، ومن الطرف المنسوجة والمطرزة والشيلانا الكشميري وغيرها، وأصناف الحلوى، والعطر كدهن الورد، وبها الخطوط الحسنة حتى في نقش الفصوص التي يختم بها، وبيوتها مبلطة بالخشب، وسقوفها مسنمة بالحجارة أو الخشب، لكثرة الأمطار، فالربيع بها كشتاء مصر، مع أن المطر لا يكثر بمصر حتى في الشتاء، وأما فيها فكثير.

وعند هبوب الريح من البحر الأسود تغيم السماء وتمطر، وعند هبوبها من بحر الروم تصحو السماء، ولا يكون مطر، ومع وجود الكلاب في إسلامبول ومصر، فليس خطر، فلا يسمع أن أحدًا مات من عضة كلب كلِب كما في بتر بورغ وأطرافها، فإنه تارة يتفق ولو نادرًا وجود هذه المصيبة، وقد وجد هذه السنة عدة كلاب بعضها كان بيتيًّا وعض بنتًا صغيرة وماتت من العضة، وقد كانت عضت أختها، [١٠/و] فبعد مدة تغير لونها، ثم ثار عليها الداء وهو كريه جدًّا؛ لأنه لا يقصر

على من عضه الكلب الكلِب ، بل كان من عضه المعضوض يصير مثله، وهكذا ولو حيوانًا فيصير الإنسان أو الحيوان سعرانًا، وكذا كل من عضه، وتارة يتأخر ظهور هذا المرض حتى يظن أنه ذهب بالكلية، ثم يظهر وتارة بعد سنة. ولا يصدق الأوروبيون ما في كتبنا، بل ولا نصدق نحن أن دماء الملوك شفاء من الكَلَب، قال الشاعر:

بناةُ مكارمٍ وأساةُ كَلَمٍ   دماؤكم من الكَلَبِ شفاءُ

وعلى ذكر الكلاب، فينبغي أن يتنبه أنه لا يوجد في بلاد الترك الكلب المسمى «الكلب التركي»، فهذا الاسم لعله مبني على بعض خرافات لا أساس لها، ومثل هذا أيضًا الكلب المسمى الدانيمارقي لا يوجد في دنيمارق، وقد تنسب بعض الأشياء لبعض البلاد لنفاقها ورواجها. مثلاً يسمون تارة المطاوي التي تضنع في مصر مطاوي إنكليزي، والسفر ونحوها المشغولة في الروسيا نيمساوية، وبالجملة فليس كل اسم على مسمى، بل تارة تسمى الأشياء باسم ضدها تفاؤلاً كما سميت القافلة قافلة من القفول، وهو الرجوع تفاؤلاً أن ترجع، وكما سميت المهلكة مفازة تفاؤلاً بالفوز، وهذا باب واسع الذيل غزير السيل.

ولقد وقع في مصر جليد في بعض السنين فاتخذته العامة تاريخًا لغرابته، وقالوا سنة الجليط أيَّ الجليد، وتكثر الحريقة بإسلامبول لكثرة الأخشاب دون مصر فإن ذلك نادر فيها، ولذلك لَمَّا وقعت الحريقة في القلعة صار ذلك تاريخًا عند أهل مصر، وقالوا سنة حريقة القلعة ، وكذلك لَمَّا وقعت في الموسكي، ولذلك ليس [١٠/ظ] فيها

مواضع معدة لنظر الحريقة، ولا آلات الإطفاء من الطرنبات ونحوها كما فى بلاد الإفرنج.

والمسلمون يقفلون دكاكينهم يوم الجمعة، كما تغلق اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد بخلاف مسلمي مصر، فإنهم لا يقفلون حوانيتهم، ولقد صليت الجمعة بمسجد قريب من الخليج محكم البناء، مفروش بالبسط، مقبب إلا أن الخطيب تارة يتأنق في الخطبة زيادة عن العادة، وطورًا يسرع وتارة يُسرّ وأخرى يجهر، وهناك دكة صغيرة بالصدف يجلس عليها من يقرأ سورة الكهف، ومن تحتها موضع بدارابزي صغير يصلي فيه إذا نزل، وهذا لا يوجد في مصر، فإن من يقرأ سورة الكهف إذا نزل من الدكة كغيره، ولا توجد في هذه الجوامع ميضئات كمصر، بل حنفيات وأباريق، وكل ذلك الماء عذب.

وفي الطرق حنفيات كثيرة يستقى منها، ويملأ السقايون قربهم ويحملونها على ظهورهم، وربما ملأوا بالري على الخيل، لكن في غير الأسواق، وفي مصر السقايون يحملون القرب على الحمير، والري على الجمال لكثرة الجمال والحمير هناك، وقلتها بالقسطنطينة، ولون البقر بها أغبش، والجواميس توجد بها قليلاً، لكن مع الغطاء في البرد بخلاف مصر فبكثرة مع عدم الغطاء، ولون بقرها أحمر وأبيض ناصع وأسود، ومن المباني العجيبة بالقسطنطينية قبة أية صوفية، وتسمى قبة السماء، كأنها هرم ما ضارّها قدَم ولا هَرَم، جامع عظيم، وأصله كنيسة لقسطنطين، [١١/و] واحترقت

فبناها يوستينيان، وصرف فيها على ما قيل خراج مصر سبعة عشر[1] سنة، وضاهى بها الباني المسجد الأقصى، وما علم أنها تنقلب بالإسلام في كعبة إسلامبول مسجدًا أقصى.

ففي سنة ٨٥٧ لما افتتح السُّلطان محمد الثاني[2] المدينة، دخل هذه الكنيسة راكبًا على حصانه، وبعدما صلى فيها وأزال آثار عُبَّاد الصليب وصورهم، [و][3] جعلها مسجدًا يتلى فيه القرآن بدل الإنجيل، فجزاه الله خيرًا على سعيه الجميل، ويرشد لذلك وضع القِبْلة والمنبر، فإن المنبر بارز في جانب والقِبْلة خارجه من الحائط، وبينهما مسافة والعادة في بناء الجوامع أن يجعل المنبر ملتصقًا بالقِبْلة، وتكون القِبْلة في حائط الجامع، وفي القبلة شمعتان كعمودين وبقربهما ألواح معلقة بالخطوط النفيسة، وفي هذا الجامع دواليب للمجاورين، كما في الجامع الأزهر، وبوسطه خابية كبيرة من رخام يستقى منها، وبها كثير من العرب خدمة وفقراء وبوابين، ورأيت فيه

---

(١) كذا وردت في المخطوط، والصواب: سبع عشرة.

(٢) محمد الثاني الفاتح: ولد هذا السلطان في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هـ (٢٠ ابريل سنة ١٤٢٩) وهو سابع سلطان، تولى الملك بعد أبيه، و كانت آسيا الصغرى جميعها تحت سلطانه إلا جزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب ومملكة طرابزون الرومية، وفي يوم ٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ (٣ مايو سنة ١٤٨١م) توفي السلطان محمد الثاني الغازي عن ثلاث وخمسين سنة ومدة حكمه ٣١ سنة، استطاع خلالها أن يفتح القسطنطينية، وزاد عليها مملكة طرابزون الرومية والصرب والبوشناق وألبانيا، وجميع أقاليم آسيا الصغرى، ودُفن في أحد الجوامع التي أسسها في الآستانة. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ص ١٦٠، ١٧٦-١٧٧.

(٣) الواو: زيادة يقتضيها السياق.

خمسة عميان وبصيرًا يقرأون البُردة كما في مصر، وتلفظهم حسن، لأن أصلهم عرب، فأعجبني ذلك، إلا أنهم يلحنون، وهم معذورون لأن اللحن قد يتفق ممن يقرأها[1] في مصر، بلد العربية، فكيف في إسلامبول بلد الترك؟! ويقول بعضهم:

مولاي صل على من حلَّ في الحـــرم   محمد المصطفى المخصـــوص بـــالكرم

بدل قول المصريين:

مولاي صـــل وســـلم دائمـــا أبـــدًا   على حبيبـــك خـــير الخلـــق كلـــهم

[/١١ظ] ويقرأ الباقون بيتًا من البردة، وبين أيديهم محرمة لجلب الصدقة. وقبتها عالية جدًّا ومناراتها أربع سامية.

لطيفة:

اعلم أن إسلامبول تسمى القسطنطينية بالنسبة العربية إلى قسطنطين بانيها، وكانت تسمى قبل ذلك كستنتينيول، أو نحو ذلك، يعني بلـــد قســـطنطين، فلمـــا أخـــذها المسلمون، قالوا: إسلامبول – أي بلد الإسلام– ولم تبق التسمية القديمـــة إلا عنـــد النصارى، وتسمى بالتركية استانبول، وعوام مصر يقولون: اصطنبول، قيـــل هـــذا مأخوذ من لسان الأروام؛ لأن استينبولي معناها «إلى المدينة»، وعند أخذ الترك هذه المدينة سمعوا مرارًا عديدة الروم يقولون هذا اللفظ، فظنوا بسبب عدم معرفة اللسان أنه اسم المدينة، ومن أمثالهم: «جاي من اصطنبول في علبه»، أي حضري غير فلّاح،

(١) كذا وردت في المخطوط، والصواب: يقرؤها.

يقولون ذلك: هُزأ، ويقولون أيضًا: منديل اصطنبولي، أو بابوج اصطنبولي، وربما بدلوا الطاء صادًا وقالوا: اصنبول، أو: اصنبولي، وقلت مواليا:

يا ناس على شان أشوف الأهيف المكحول
سافرت اجريد ورحت أزمير واصطنبول
رأيت ملامح شكلهم في كل شيء مقبول
ما عندهم شيء رزالة زي ما في مصر
علل على القلب لكن يلتقوا المعلول

وشرط المواليا الخلو من الإعراب، واستعمال اللحن كما في المستطرف، ولم استنكر من إسلامبول الأقواويق[1] [١٢/و] الأرمن التي هي كالبوش، وزي النساء، ومسئلة الذوق لا حرج فيها وكل حزب بما لديهم فرحون:

لا تعذل الإنسان في شهواته ... في الناس من يلتذ طعم الحُصرم

وكذلك صعوبة الطرقات في بعض الجهات بحيث يعسر فيها مشي العربات، ولذلك الغالب فيها المشي أو ركوب الخيل، فهي أجدر بأن تكون جحيم الخيل، وقلت في مدحها:

قد عاب إسلامبول من لم يدرها ... وكذا المليحة عند ذي عُنّة

(١) مفرد قاووق (تركي): قلنسوة غير ذات وبر أسطوانية الشكل تلف في أسفلها قطعة من الموصلي (المويلين)، وحشيه من القطن. (بوشر). دوزي: تكملة المعاجم العربية، ج ٨، ص ١٦٠.

ما ضارها إن كان بعض طريقها مثل الصراط فإنها جنّة

وبالجملة فلا تعدم الحسناء ذامًّا، وقد ركبت حصانًا مرة من غلطة، وتوجهت إلى إسلامبول على القنطرة، وهذه القنطرة طويلة جدًّا، من رآها علم عرض الخليج؛ لأنه في المرآى صغير، وذهبت إلى بالقلي – منتزة جميل- كبركة الشيخ قمر بمصر كل أرضه مخضرة، فيها أشجار، وكذلك كل الطريق خارج المدينة لينة سهلة ليست كلها حجارة، بل في وسطها لكثرة المطر، وبها كثير من الأشجار، وفي هذا المحل كنيسة الروم التي بنوها بإذن السُّلطان محمود[1] عليه رحمة المولى المعبود، وكان ذلك ذريعة إلى استدعاء أرمن مصر تجديد كنيستهم لّما نازعهم في ذلك علماء مصر، وقد أجيبوا، وفي هذه الكنيسة موضع ينزل إليه بسلالم فيه ماء يزعمون أنه قدسي، فيغسلون منه رؤوسهم ويشربون تبركًا، وقد وجدت فيها جآذرًا وظباء، كما قال الأخطل في كنيسة الروم[2]: [الخفيف]

إنَّ مَن يدخل الكنيسة يومًا يلقَ فيها جآذرًا وظباءً

(١) هو ابن السُّلطان مصطفى الثاني، ولد في أغسطس سنة١٦٩٦م، وخلال عهده اتسع نطاق الدولة العثمانية بآسيا وأوربا، ومحت معاهدة بلغراد ما لحق بالدولة من العار بسبب معاهدة كارلوفتس، ثم توفي في ١٣ ديسمبر ١٧٥٤، بالغًا من العمر ما يقرب من ستين سنة، وكانت مدة حكمه ٢٥ سنة. للمزيد راجع: أحمد آق كوندز، سعيد أوزتوك، مرجع سابق، ص ٣٥١؛ محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ص ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٦.

(٢) ابن حبيب السكري، شعر الأخطل، الأب أنطوان صالحاني اليسوعيين، الطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩١، ص١٩٨.

وهناك ناس كثير يجتمعون كما في موالد مصر وسوامر للرقص [١٢/ظ] بتقليب الأرجل بصناعة، لا بَهَزِّ الأرداف كما في مصر، وهناك آلات الملاهي كالكمنجة والقانون، وخيام فيها القهاوي والشربات ونحو ذلك، وللصغار مراجيح كمصر، وقد رأيت بالاتفاق بجانب سامر الرقص، سامرًا في وسطه ميت أرمني يراد دفنه، وجهه مكشوف، وعليه قاووقه، ثم حفروا له حفرًا عميقة، ونضوا قاووقه وألقوه مكشوف الرأس، ورمى عليه القسيس خرقة كأنها لستر وجهه، ثم رش عليه ماء، وهمهم بكلام لا أدري ما جنس هذا الماء والكلام، فهؤلاء كما قال الحريري: «لم يمنعهم الدفن عن الزَّفْن»[1]، وما رأيت أحدًا بكى عليه ولا استعبر.

وبجانب هذه الكنيسة قبور المسلمين وأكثرها بالرخام، ومكتوب عليها الأسماء، ثم ذهبت من جهة ثانية، درت فيها حول المياه العذبة تحت الجبل المخضر، ثم عديت على قنطرة أخرى إلى مروج واسعة، ثم إلى كاغد خانة، سمي بذلك لأنه كان كرخانة للورق أيام السُّلطان أحمد، وهناك يتفسح كثير من الناس، خصوصًا سكان غلطة ويتنزهون، وهناك قهوة كبيرة، وقصور حسان، وحور وولدان، وذكرت بسيري هناك السير في ريف مصر أيام النيل لكثرة الماء، فصار الحصان يزلق في الماء، وهذا في الربيع، فكيف بالشتاء، ثم صعدت فوق الجبل، ورجعت إلى غلطة من جهة ثانية، وطريق هذا الجبل سهلة لينة، وكله أخضر، وفيه أعمدة جميلة، مكتوب عليها بالذهب، وعليها نشان السُّلطان محمود، وضعت [١٣/و] علامة على غاية رمية

---

(١) وردت العبارة بصيغة مخالفة عند الحريري هكذا: (وضحكتم عند الدّفن. ولا ضحككم ساعة الزّفْن)، والزفن : نوع من الرقص، المقامات السّاوية، مصدر سابق، ص٩٤.

السهام، لأنه كان فارسًا راميًا، ولهذه الجهالات والأوهام راميًا، أخضل الله ضريحه، ورفع بالرحمة روحه، وتحت الجبل مقبرة كبيرة مخضرة مشحونة بالأشجار المتناسقة، فلله ما أحسن تلك المواضع التي كان السحاب لحسن تربتها من المراضع، ورآني رجل مغربي في كاغدخانه فعرف بزيي أني من مصر، فقال لي يامصري أين ذهبت؟ فقلت إلى غلطة فدّلني على الطريق.

وقد ذهبت إلى بيت الجي الدولة الروسية في غلطة[1]، فقابلني بالبِشْر وحسن الملاطفة، وأوصى عليّ الترجمان المسافر معي مسيو موخين بالتلطف بي في الطريق، وهذا الترجمان كان صاحبي في مصر[2] منذ أعوام وقرأ عليّ شيئًا من المعلقات وأخبار شعرائها، وله دراية في كثير من اللغات كالفرنساوية والتركية، واسمه نِقوله موخين، وفي هذه السنة لّما رجعت إلى إسلامبول، وعدت إلى ساحلها المطلول، والعَوْد أحمد، ذهبت إلى الجي الدولة الروسية الجنرال تيتوف، فتلقاني بالطلاقة والبِشْر، وذلك أولاً: من حسن طبيعته، وثانيًا: بسبب رسالة وصاية كتبها لي حامي الغربا وناصر العلما مدير الديوان الآسي والمداوي لعلل القلوب، والآسى الجنرال سيناوين، وبحسن عنايته، أتنعم في هذا السفر، كأني في الحضر، وأتلو فيه قول الشاعر:

وما سافرتُ في الآفاق إلاَّ	ومن جدواك راحلتي وزادي
محبك حيث ما اتجهَتْ ركابي	وضيفك حيث كنتَ من البلاد

(١) أي سفير الدولة الروسية.

(٢) لعلها زائدة.

[١٣/ظ]ثم فارقت إسلامبول، ولِيَّ على فراقها أسف الثكلى، ونزلت مع الترجمان المذكور في وبور روسي **٢٣** شباط، وسرت في الخليج القسطنطيني مدة أتمتع فيها برؤية البيوت والأشجار من الطرفين، وأتلذذ بطيب الهواء الذي تقر به العين حتى وصلت إلى البحر الأسود، وهناك عند الخروج من الخليج بيوك در لطيفة البيوت والأشجار، ولم أجد الماء أبدًا، وصرت أجري على ظهر الوبور، وابتدأت في تعلم الروسي مع صاحبي الترجمان، وقلت مواليا في فراق إسلامبول:

أهيف من الترك خلي القلب في تفتيت
لّمن رأى الحب من عيني عمل تتليت
إن قلت جيت يا بديع الحسن قال لي جيت
من خجلتي فت له اصطنبول أنا وجريت

وكان الوقت طيبًا، والقمر يخلف الشمس كما قلت:

الشمس إن غربت يبدو لنا قمر فنحن بين السماء والبحر في نور

وقلت:

البحر أسود والسماء زرقاءُ لكنَّ فيه سفرتي بيضاء
أنا آنس من طيب وقتي راقص ومطيتي طنانة غنّاء
تشدو فيضطرب الصحاب بشدوها لكنني طرِبٌ فذاك غناء
ببخارها تعدو على أمثالها إن صحّ أو إن لم يصحّ هواء

وتنِق في البحر العميق كضفدع … وتخافها حياته والماء
فالماء منها قد تغير لونه … وعلاه نوحٌ مقلق وبكاء
[١٤/و] هل نارها نار الجحيم أما ترى … تلك المياه وما لها إطفاء
في بطنها قيظ وفي ظهر ربيع … أو خريف تارة وشتاء
وركبتها فوق الأجاج وقبلُ ما … للنفس جارية حلت سوداء
فكأنها عربية تجري على … عجلٍ ولكن خيلها سحراء
عامودها قذف الدخان كأنه … بركان نار عمّها الإذكاء
أو مثل سعلاة أطار الريح في الـ … ـجو الشعور ورأسها شمطاء
وتخال مروحة الهواء كأنها … راقصة لكنها صماء
أعجوبة في شكلها فاقت فقُلْ … في وصفها ما تشتهي وتشاء
هي خان زاد أو حصان مسافر … أو مركب للسير أو رمضاء
أو معمل الحداد أو هي نزهة … أو بيت سكنى جادَهُ البنَّاءُ

ثم اتفق الإرساء عند ميناء أودسا غروب شمس يوم الخميس، ومدة السفر كانت أربعًا وخمسين ساعة، وعند الرجوع هذه السنة كانت مدة السفر تسع[1] وثلاثين ساعة، بل قال لي الملاَّحون إنهم وصلوا تارةً في إحدى وثلاثين ساعة، فبتنا في الوبور، ثم توجهنا الصبح في زورق إلى محل على البحر مع القبطان، فنظرونا ونظروا تذاكرنا ثم ذهبنا إلى محل آخر نظرنا فيه حكيم، وأمرنا بوضع أيدينا على آباطنا بقوة، وكل ذلك مع الحاجز، ثم ذهبنا إلى الكرنتينة مع أمتعتنا، فأما نحن فذهبوا بنا إلى محل،

(١) كذا وردت في المخطوط، والصواب: تسعًا.

أمرونا فيه بالتجرد من الثياب جميعها، ثم ينظرنا الحكيم مقبلين ومدبرين، وفي هذا الوقت حصل لي خجل عظيم، وأَبَيتُ أوّلاً كعنيزة[1] مع امرئ القيس، يوم دارة جلجل[2].

ثم أخذنا ثيابًا نظيفة غير ثيابنا من هناك، وهذا الملبس قميص ولباسان، وقفطان تتري، وطاقية، [/١٤ظ] وطربوش طويل، وصديري، ومنديل، كأن الشخص في هذا الملبس من التتر أو من رؤساء الغجر، وقلت إذ ذاك:

ويوم أودسا جردوني ببدلتي فصرت بلا ثوبٍ كيوم ولادتي

لبست ثيابًا غيرها فكأنني صغير تبدّى في قماطٍ ولفةِ

(١) شبّه الشيخ الطنطاوي حادثة رفضه التجرد من ثيابه جميعًا لخجله بحادثة عُنيزة عشيقة امرئ القيس– ابنة عمه– وأنه طلبها وأراد أن يتزوجها ولكنها رفضت، فكان يريد أن يراها عارية فراقبها حتى إذا كان يوم الغدير – وهو يوم دارة جُلجل– فراقبها مع بعض الفتيات اللاتي= =تجردن من ملابسهن ودخلن الغدير، فقام امرؤ القيس بأخذ ثيابهن وأقسم ألاّ يُعطي جارية منهنّ ثوبها حتى تخرج كما هي فتأخذ ثوبها؛ فخشين التأخر عن المنزل مع اقتراب رحيل النهار، فخرجت إحداهن، فوضع لها ثوبها فأخذته، وتتابعن على ذلك حتى بقيت عُنيزة، فناشدته بأن يعطيها ثوبها؛ فأبى، ومن ثمّ خرجت عُنيزة ونظر إليها، فأخذت ثوبها فلبسته. أبو الفرج الجوزي: المنتظم من تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت،طبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ص١٣٨–١٣٩. وانظر أيضًا: ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب ٢٤، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، هامش ٩، ص ١٠.

(٢) دارة جلجل: تقع في بطن الهضب، من جهته الجنوبية الشرقية، ويقال لها اليوم دارة جلاجل، وهي دارة عظيمة تحيط بها هضبات. راجع عنها: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧، ص ١٥٠.

ثم ذهبنا إلى المحل المُعد للإقامة مدة الكرنتينة فوق الجبل، وهو مشتمل على عدة أوض كاملة الأدوات، محكمة البناء، وحيطانها بالورق المنقوش، وأعطي لنا خفراء يحرسوننا، وفي الظهر أُحضر لنا الغداء وهو محكم، وكلما طلب الشخص شيئًا حضر. وخُبز هذه المدينة نظيف ظريف إلاّ أنَّ ماءها ثقيل الطعم كما قلت:

وﷲ يوم أودسا وطودها تطل على مرسى به حفت السفن
وقد طاب عيشي في رباها ومرجها ولكن طعم الماء ليس به حُسْن

وذلك أنها على البحر الأسود المالح، وليس فيها نفسها ماء عذب، إنما يجلب إليها من آبار أو عيون، وتارة يشربون من ماء الصهاريج المملوءة من المطر والعيون بعيدة بنحو ست فرست- يعني فرسخ- روسي كما يأتي بيانه، وبسبب حلاوة ماء العيون أكثر من ماء الآبار دائمًا ترى العربات ماشية حاملة البراميل المملوءة بالماء، ثم ذهبنا ثاني يوم وأخذنا ملابسنا الأصلية وأمتعتنا، فوجدناها منشورة على أخشاب معطرة مبخرة، ومحل الكرنتينة نظيف ظريف، وهو قسمان: قِسْمٌ لمن ألمَّ به الطاعون، وإذا مات فيه أحد أُحرق هو وأمتعته، وقسم لغيره.

وهناك المروج، فكنا نتفسح فيها وننظر السفن الواردة والذاهبة، [/١٥و] وإنما لم يكتفوا بكرنتينة إسلامبول؛ لأنها جديدة ليست قاسية، فيظنون أنها غير كافية، وشدة خوفهم من الطاعون أوجب ذلك خصوصًا من وقت حصوله في أودسا سنة ١٨٣٧ مسيحية، بسبب إخفاء بعض البضائع، ولهذا بعد وفاء أيام الكرنتينة يحلفون الناس هل خانوا الكرنتينة، وأمَّا أنا فأرسلوا لي ورقة مكتوبة بالتركي متضمنة للحلف

بالأيمان المغلظة التي منها الطلاق، فقلت: لأي سبب هذا الحلف، هم قلعونا الثياب، وصرنا عرايا بين أيديهم ثم بخروا الثياب وردوها لنا. ففي أي شيء نخون الكرنتينة، فقيل لي: الروس وكل الفرنج يخافون جدًّا من الطاعون، ومع كل هذه الاحتياطات فيمكن أن في وسط الأمتعة بعض شيء وباء، فلدفع التهمة بالكلية يحلفون، فحينئذ كتبت اسمي على هذه الورقة.

والتحليف كثير عند الروس، فيُحلفون المستخدم حين دخوله في الخدمة أن يكون أمينًا للقيصر وولي عهده، وكذلك عند قبوله الرتب حتى إن أولاد القيصر يحلفون حتى يبلغون[1] الحلم. ولنترجم هنا ما ذكره بعض مصنفي الروس في ظهور الطاعون أيام كترين الثانية[2] سنة ١٧٧١ قال: «هذا سوط غضب الله النازل من مملكة الترك

(١) كذا وردت في المخطوط، والصواب "يبلغوا".

(٢) هي صوفيا أوجستا فردريك دهالت زر بست، ولدت سنة ١٧٢٩ بمدينة ستيتن من مدن بروسيا، ولم تسمّ باسم كاترين إلا وقت زواجها بغراندوق الروس إذ منحتها إياه الكنيسة الأرثوذكسية، وكانت أسرة "دهالت" بروتستانتية لوثيرية، ولم تكن أصولها مشهورة، ومع ذلك فكان لها امتياز الاقتران بالأسر المالكة، ومع أنها كانت تابعة للملك بروسيا فكانت لها السيادة في بلادها،وفي سنة ١٧٦٢ توفى زوجها بطرس الثالث، ثم تم تتويجها إمبراطورة للروسيا، واشتهرت بالسير على خطة بطرس الأكبر، فاستولت على بلاد القرم وقلعة آزاق وغيرها، واقتسمت مملكة بولونيا مع النمسا والبروسيا، وتوفيت عام ١٧٩٦. انظر كاترين الثانية « أشهر الخاطئات من صاحبات التيجان»، قصة تاريخية، ترجمت خصيصًا لمجلة الهلال، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٢٢، ص ٦؛ محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ١، ص ٣٢٩.

إلى الملية المجاورين لهم في وقت زحف الروس على بغدان[1] وبلاد الأفلاق».

ومع وجود الكرنتينات التي رتبت في الروسيا أيام كترين الكبيرة للاحتراز، دخل الطاعون في وطننا وانتشر في ٣ كانون الثاني، وفي ٩ من ذلك الشهر دبروا في دفع هذه الداهية بكل الوسائط، وفي الأثناء الكبة، افترست الأخطاط الجنوبية الغربية من الروسيا، وبسبب ذهاب العسكر إلى اللين والترك كان غير ممكن إحاطة القرى الوبائية. ولهذا أخذت المملكة أوّلاً في عمل الوسائط التي [/١٥ظ] توقف هذا الحادث وتقمعه، فانتخبت أبعاد سليم العيال من مريضها، وإبقاء المرضى في البيوت، ويعطي لهم من الشبابيك الأقوات على الميري بعدم الملامسة وكثرة الاحتياط، وعلى تقدير موت المطعون يهدمون بيته ويحرقونه هو وأمتعته، وهذه الواسطة كان معمولاً بها فقط في المدن، وبسبب عدم احتياط الناس وجهلهم المتسبب عند عدم تصديقهم بنفع هذه الواسطة انصبّ الطاعون كالسيل المهلك في الروسيا متقوتًا بألوف من القرابين، ومنتقلاً من محل إلى آخر وقبله الأخبار المهولة التي آيست الروس من الحياة، فقط الهلع والأنين يسمعان حيث الهدوء والسعادة المقترنين عن قريب قوما معيشة الروس تحت حكم كترين الكبيرة، وفي الآخر أسوار موسقو ما حمتها من الضيف الملعون الجالب الموت، ففيها كان ظفر الموت الساكن ومنظر الجهل، ولنقل هذا بلا لوم أسلافنا، لكن لومهم لازم أولاً لتعلم الذرية.

---

(١) هي المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود الاتحاد السوفيتي والكائنة بين نهري بروت Prut وسيرت Siret. انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش (٢) ص ١٧٣.

وأودسا أول ما رأينا من بلاد الموسكوب، بل من بلاد الفرنج، وهي جديدة العمارة من منذ خمسين سنة، وازدادت عمارة من منذ ثلاثين سنة، وكل وقت تزيد، وهي فرضة عظيمة من فرض الديار الموسقوبية، كثيرة التجارة والأمتعة فيها وسائر الأشياء رخيصة بالنسبة لغيرها من بلاد الموسقوب، بسبب أنه لا جمرك فيها على البضائع الداخلة ترغيبًا للمسافرين [/١٦و] في الوصول.

والمنهل العذب كثير الزحام، فلذاك تراها مملوءة بعربات المتجر، وقلَّ أن تنفك إلاّ في أيام الأحد والأعياد، ولسانها العام اللسان الروسي كسائر بلاد الموسقوب، وإن كان يتكلم فيها بكل الألسن بسبب كثرة الغرباء، وزيادة على ذلك، إن الكبراء لا بد لهم من معرفة الألسن الغريبة كالفرنساوي والنيمساوي والإيطالياني، فذلك فرض عندهم في التربية خصوصًا لبناهم. وهواؤها معتدل في الغالب، لكن الغبار فيها كثير بسبب كثرة العربات المحملة بالبضائع وغيرها، فهي لا تنقطع من طرقها، وتارة بسبب كثرة الرياح والأمطار بها قليلة، لم نرها إلاّ ثلاث مرات مدة الكرنتينة.

ورأينا الرعد والبرق ليلة واحدة، لكنه كالمدافع والمشاعل بحيث ينير الجو كله، ولا يقدر الطرف أن يحققه، وتارة يظهر كالأعمدة، وتارة كالمشاعل، فتذكرت إذ ذاك حريقة جبر الخيلج في مصر، وكانت الأيام طويلة أكثر من مصر، فكأن النهار أكثر من ستة عشر[1] ساعة، وهكذا كلما بَعُدَ الإنسان جهة الشمال، كما نذكر في أيام

(١) كذا وردت في المخطوط، والصواب: ست عشرة.

بتربورغ، وقد قضينا هذه الأيام في الحظ واللعب في تلك المروج والتفرج على البحر والسفن فلا عيب فيها، إلا إنها تُعد من العمر كما قلت:

وأيــــام علــــى أيــــام مصــــر تطول وغينــها عنَّــا مُحجّــب
ولست أرى بها عيبًــا ســوى أن تُعدّ عليَّ من عمــري وتحســب

واستمررت على تعلم لسان الروسيا مع صــاحبي، وحفظــت بيــتين [/١٦ظ] بالروسي مناسبين لحالي، وقلت في ترجمتهما:

الــــوداع الــــوداع ثم وداعًــــا يا بــلادي وعتــرتي الأقربينــا
يا بلادًا من أســعد الأرض فيهــا أنــا قضَّــيت بالمســرة حينــا

ثم عند خروجنا من الكرنتينة جاء حكيم آخر ونظر آباطنا وعورتنا، ثم توجهنا إلى ديوان الجمرك، فنظروا الأمتعة جميعها، وأرسلوا الكتب إلى محل آخر لينظروهــا، ثم أخذنها بعد ذلك وسكنت في موضع معدّ للغرباء متسع نيِّر ، وكل هذه المواضع التي للمسافرين كذلك، وكذلك البيوت وطرقها واسعة جدًّا دائمًا يســمع بهــا قرقعــة العربات ليلا ونهارًا، وفيها منتزه على البحر يسمى «البولــڤار»، وهو أربعة سطور طويلة من الشجر تمر الناس بينها للتفسح خصوصًا في العصاري، وخصوصًا في اليوم الذي تكون فيه المويسيقى[1] مثل يوم الأحد، وفيه ذلك لطيفــة مثبتــة لاســتراحة المتفسحين، وعند طيب الهواء ليلاً تذهب النَّاس وتجلس هناك على السَّلالم الكــبيرة

(١) كذا وردت في المخطوط، وسنكتفي بذكر هذا الخلاف هنا فقط.

الموصلة للبحر لاستنشاق الهواء، وقد ذهبت هناك في ليلة سكن بها الريح واستروح بنسيمها العليل كل قلب جريح:

وطاب لي النَّسيم فَرَقَّ حتَّى ... كأنّي قد شكوتُ إليه ما بي

فجلست هناك أنظر للبحر الأسود وكان هاديًا، وإلى القمر وهو كحسناء تارة تحت برقع السحاب، وتارة يلوح باديًا:

والبدر مثل جميلة تاهت على ... عشَّاقها فترقبوا الميعادا

[١٧/ظ] فيروح طورًا تحت سُحب براقع ... ويلوح طورًا حبّذا إذ عادا

وعند هذه السلالم الكبيرة المبنية في وسط البولفار صورة رشيلي حاكم أودسا السالف، مادًّا يده إلى البحر، وواقف على قاعدة عظيمة مرتفعة، وذلك أنه فعل أشياء نافعة للمدينة كأنه مُنشئها، والعادة ببناء آثار لحفظ ذكر الأشخاص النابغين الذين فعلوا شيئًا عظيمًا خارجًا عن العادة، وفي بتربورغ كثير من هذا النوع على ما نذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

فلِمَ لا نعمل آثارًا لأسلافنا البارعين وآبائنا الفائقين؟.

وليس لازمًا في الأثر صورة حتى يقال إنها محرّمة، بل يمكن عمل الآثار بلا تصوير، لكن لا يكون بهذا الحسن. وبالجملة فعلْم التصوير علمٌ نفيس يحكي لك الأجيال، ويريك أباك وأمك والعيال، ويمثل لك صورة البلاد والجبال والوهاد، فلمَ لا تشتغل به لتشحيذ القرائح القريحة، وتعليل النفوس الجريحة، مع الخروج من الحرمة، إمّا

بالاقتصار على تصوير غير ذي روح من النباتات والأشجار ومناظر البلاد؛ أو بتصوير ذي الروح بكيفية لا يعيش بها، على أن التعلم شيء آخر كما قيل:

تعلَّمِ السحرَ ولا تعمَلْ به ... العلم بالشيء ولا الجهل بهِ

وقد كتب لي مسيو فرنيل في مكتوب ما معناه هذا: «ومن جملة ما ذكرتم من محاسن بتر بورغ لم تذكروا التصاوير، لأن أولاد إسماعيل مع حدة فطنتها مفتقرة إلى حاسية عظيمة، وهي حاسية الصنائع النفيسة، وعلم التصوير». فكتبت إليه: إني ما كتبت شيئًا من شأن الصور لأني رأيتها في مصر. وأحدثت [١٧/ظ]أول مرة تعجّبي واستغرابي حتى قلت:

وصورة حُسْن قاتلَ الله من غدا ... يصورها ما باله كيف يفعل
كَلِفْتُ بفيها إذْ بدَت غير أنني ... إذا رُمْتُ تقبيلاً فماذا أُقَبِّلُ

وقلت أيضًا:

وصورة حسن أبدع الدهرُ شكلها ... إلى أن تعدَّى طورها لبَّ جاهل
توهَّمَا من عيَّة آدميَّةٌ ... ولكنها قد أوتيت عيٍّ باقلِ
فنهنهتهم فاستبدلوا الغيَّ بالهدى ... فكانت لدى الشيطان أقوى الحبائلِ
فقولهم زور شبيه بصادق ... وزجري لهم حق شبيه بباطل

فكتب إليَّ: إنه أنسر من ذلك، وإن قولي «كلفت بفيها» من أحسن المعاني التي يمكن أن تقال في التصوير، وإنه وجد إنسان عشق تمثال العذراء عشقًا حقيقيًّا حتى

عانق التمثال، فأزالوه من الكنيسة، وذلك في رومة معدن هذا الفن التي رن فوقاها وطن.

وفي آخر البولـڤار بيت الكونت فرانسوف حاكم أودسا وما صاها، وما قرب منها مثل بلاد القرم، وقد ذهبت عنده فتلقاني بالطلاقة والبِشْر، وفرجني بنفسه على قاعته المزخرفة المشحونة [١٨/و] بالصور النفيسة والأواني البديعة، وهي مطلعة على البحر، والأشجار محدقة بها كما قلت فيها:

في قاعة الكونت أشكال منوعة تلهي نفوس الأناسي عن أمانيها
على وفاق الهوا فوق القباب بدت فهي السفينة وهو البحر منشيها

وسألني عن مصر وما فيها من البدائع، فأخبرته وهو محبب في هذه المدينة، كأنه أب للناس، مجتهدًا في تحسينها وتعميرها بأحسن أساس، وقد عينه القيصر وزيره في بلاد ضاغستان وتفليس، لما رأى أن غنى غنائه في الرشد والإصلاح لا يدخل في باب الحجر والتفليس.

وفي وسط المدينة جنينة صغيرة كجنينة روشتق بمصر، إلا أنها كلها طرق، وفيها معمل للماء المعدني، فتأتي الناس كل يوم في الصباح وتشرب الماء المعدني كل على حسب علته، وتتفسح هناك في خلال الشرب. وهناك في هذا الوقت مويسيقى في بعض الأيام، فلهذا يأتي ناس أخر غير المتداوين للتفسح. وعادة الأوروبيين أن يتداووا من بعض الأمراض بشرب الماء المعدني مدة شهر أو أكثر، فيشربون كل يوم مقدارًا معلومًا كما يأمر الطبيب، منهم من يشرب أربع كبايات، ومنهم أكثر، وبعد شرب

كل كباية يتفسحون نحو ربع ساعة، ثم يشربون أخرى وهكذا، وربما سافروا من بلادهم إلى بلاد أخرى لشرب الماء المعدني كما يفعل سكان بتربورغ، حيث يذهبون في الصيف إلى هلذت فورس لشرب الماء المعدني وبعضهم يتداوى بالاستحمام في البحر، ويذهبون لأجل ذلك، وبعضهم يتداوى بالأمرين، ومنهم من يتداوى بشرب الماء البارد غير المعدني كما في غريفين بورغ من بلاد النيمسا، فهناك يتداوى تقريبًا من جميع الأمراض بلا عقاقير.

[١٨/ظ] وفي خارج المدينة حديقة كبيرة تسمى حديقة النباتات، تذهب الناس إليها فرارًا من غبار المدينة وحرها، وهناك أشجار كثيرة وبيوت للسكنى أيام الصيف، وقد ذهبت في يوم حار كثير الغبار خارج المدينة، فمررت بين صفوف الأشجار، فكان الهواء ألطف مع قرب المسافة بسبب عدم كثرة الأبنية، وأمّا في بتربورغ فلكثرة الأبنية خارج المدنية غالب النواحي حارة، فلا بد لاستنشاق النسيم من التباعد، ثم وصلت إلى بيت الجنرال فونتون مترجم الدولة الروسية في اللسان التركي، فأكرمني ونوّه بقدري، وبيته على ساحل البحر الأسود محفوف بالأشجار والأزهار، وقضيت هناك النهار في الحظ والسرور بين العين والحور، واندفع عني بهوائه ونسيمه وظله الحرور.

وفي خارج المدينة أيضًا مدرسة عظيمة فيها تتعلم البنات الألسن الفرنساوي والروسي والنيمساوي والإيطالياني والخياطة والنسيج، ونحو ذلك، وقد ذهبت للتفرج على هذه المدرسة، فقابلتني ناظرتها بالبشاشة، وفرجتني على جميع الأوض؛

أوض الدروس، وأوض الطعام، وأوض النوم، وكلها نظيفة ظريفة، وتطل من جميع جهاتها على حديقة كبيرة، ومن حيث إن نساء الأوروبيين وبناتهم يحضرن المجالس فلا بد لهن من التعلم ومخاطبة النساء والبنات في المجالس، مُهذَّبة أخلاق الرجال، مُلطفة طبائعهم، إذ ليس التكلم مع الرجال كالتكلم مع المرأة، الطبيعة تقتضي ترقيق الخطاب للنساء،[١٩/و] فبكثرة ذلك يصير الإنسان مؤدبًا في الخطاب، ومن محال التفسح محل يسمى القصر الملكي، وليس هو بقصر، إنما هي مخازن ودكاكين منضمة، وفي وسطها فسحة مغروسة الأشجار، في غاية اللطف فهذه التسمية مجازية، فتذهب الناس هناك في العصاري، ويتحلون ويتبردون، إذ هناك الحلاوات والمبردات ونحو ذلك. وبالجملة فمنتزهات أودسا تشرح الصدر والفؤاد، وتنسي الغريب هموم فراق الأهل والأولاد. وفي كل يوم ترى هناك الناس بكثرة من الرجال والنساء، وكل هذا ناشئ عن رفاهية البال وحسن الحال، وانتظام القوانين، وكثرة المُثرين، ولما كنت أدور فيها كانت الناس تستغربني وتحدق النظر بي خصوصًا النساء؛ لأن لباسي عربي بالكُلية، خصوصًا لما كنت أركب العربة، والعربات فيها كثيرة كالحمير بمصر، والخيل بإسلامبول، وقلَّ مَنْ يركب الخيل، فعمَّ النظام، وكل عربيات الركوب بالخيل، وأما عربيات البضائع فبعضها بالثيران، وثيرانها كثيران إسلامبول، ولا توجد بها الجواميس، وأما الحمير فإني رأيت بها أتانًا تجري في مروجها فكأنها هربت من أثقال مصر وفي هذه المرة رأيت اثنين، ولم أجد هناك مَن يتكلم بالعربية أوّلاً كما قلت:

إن جُزتَ مملكة الفرنج تجد بها ما تشتهيه النفس من أمنية

لكنما العربيُّ في طرقاتها مُستَغربٌ يبكي على العربية

فيه تورية باللغة العربية.

لم يلـــقَ فـــردًا عارفًـــا بلســـانه أبـــدًا ولا هـــو عـــارف الروســـيَّة

[١٩/ظ]هو ساكتٌ إذ لم يجد عربًـا بهـا لكنـــــه مـــــتكلِّمٌ بالنيـــــة

ثم بعد ذلك رأيت بعض إفرنج من الذين كانوا في مصر وكلموني بالعربية، وقـد كلمتني بنتهم في وسط البولـڤار، ثم قالت عند الذهاب: اقعد بعافية – على عـادة نساء مصر– فقلت حينئذ:

أمرضـــــــتني عيونهـــــــا وهـــــي أن تبـــــغِ شـــــافية

مـــــع هـــــذا لســـــانها قـــــال لي اقعـــــد بعافيـــــة

وقلت أيضًا:

فتاة من الإفـــرنج تنطـــق بـــالعرب فتطـــربني ألفاظهـــا غايـــة الطـــرب

لباقـــة ألفـــاظ وســـحر لـــواحظٍ وثغرٍ كنظم الدُّر أحلى مـــن الضَّـــرب

تربـــت بمصـــر بلـــدتي ولقيتـــها غريبين في مرسى أودسـا فيـا عجـب

وقالت بلطف بعـد طـول تحـدُّث بعافيـة اقعـد سـليمًا مـن العطـب

فقلـــت لهـــا إني فـــديتك راحـــل غدًا وفؤادي قاعد عنـد مـن أحـبَّ

وصادفت في منتزه أودسا فتاة أفرنجية ببرنس عربي، فذكرت بلادي التي كنت فيها أثرى الأنام من الصبوة واللهو والصبا والمجون:

كان عيشي بهـا عزيـزًا فـلا غَـرْ وَلعـــيني تبكـــي بمـــاءٍ مهـــين

وقلت:

في أودسا بـدت حسـان الغـواني   يتبختـرن في ثيـاب الجمـال
وأرى بينـهن فـوق فتـاة   برنسًا مـن ثيـاب عـرب الرجـال
أتراهـا بـذلك اللـبس ترمـي   لسـلامي بغايـة الإجـلال
فيها قـد نسـيت وحشـة بُعـدي   وكـأني بـذاك بـين الأهـالي
أذكـرتني بمصـر كـل رشـيق   يـزدري لحظـة بعـين الغـزال
ونضـته مـن بعـدما علمـتني   عاشـقًا والهـوى قـرين الـدلال
ظلم الردف خصرها مثـل مـا قـد   ظلمتـني ولم تَجُـد بوصـال
سـجنته بـين النطـاق أسـيرًا   مثـل أسـرى لقـدها الميـال
هـو بعـض منـها ومـا رحمتـه   كيف يرجـو الغريـب رحمـة قـالِ
وأنـا ميـت بحيـة صـد غيهـا   سـليم لكـن بغـير قتـال
ليس إلاّ اللحـاظ في وسـط البلـ   ـقلب حتفـًا أمضّـه بالنكـال
وعيوني تنزهـت فجنـت للـ   ـفار يسـطو علـى النـهي بـالنزال
آه مـن عينـها وعـيني وآهٍ   مـن جفاهـا وصـدها المتـوالِ
يـا أودسـا رفقـًا بكـل غريـب   واسـترى كـل طفلـةٍ في الحجـال

وقلت أيضًا:

تبرنست في أودسـا غـادةٌ حسـنة   من الفرنج نفت عني الكـرا وسـنَه
فهـل تشـير إلى أنسـي ببرنسـها   وأنهـا مـع مثلـي تفعـل الحسـنة

وفي أودسا مارستان للمرضى، وبيت لليتامى، وفيها التياتر بالإيطاليـــاني كتيـــاتر مصر، إلا أنه كله بالمويسيقى ذهبت إليه مرتين، الأولى أظهروا فيها السلطان محمـــد، وألبسوا ناسًا عمائم كالمسلمين فصوروا إحراقه البلاد، وحين خرجت وجدت المطر، فقلت: «هربت من الحريقة وقعت في المطر»، ولم يكن متعمم غيري إلا اللاعبين، فهل أنا منهم؟ لا، ويقصدون بذلك تعليم الناس أخبار الأمم وأحوالهم وطبائعهم، فهو في الحقيقة درس أدب ومغنى طرب، يقول لسان حاله[1]:

يـــا مُغرقًـــا في أدب الـــدَّرس　　أفضـــلُ منـــه أدبُ الـــنفسِ

والثَّانية أظهروا فيها متدلهة من العشق وعاشـــقها، [/١٩ظ]ولا شـــك أن هـــذا يكشط عن القلب جلدة الخشونة والغلظة، فبالجملة التياتر كما قال ابن عطاء الله: في الدنيا ظاهره غِرَّة، وباطنه عبرة، وكما قال الآخر:

لـــيس شـــيء إلاَّ وفيـــه إذا مـــا　　صادفته عـــين اللبيـــب اعتبـــار

وفيها خانات مُعدَّة للطعام مع غاية الإحكام في البناء والنظافة، وعندهم قائمة بما يوجد من أصناف المأكول، فيطلب الشخص ما يريد، وقد يتفق أن جماعة يذهبون معًا للأكل، وكل يأكل ما يريد، وفي بعض الأحيان تأتي في هذه المواضع نســـاء حســـان يضربن بالقانون، فوالله قد أشغلني حسن صورهن عن حسن صوهن، وتذكرت قولي سابقًا:

(١) البيت في: أبي منصور بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٣، ص ٥٢٨.

ليتني للسماع ما كنت أشتا ق ولا كنت مولعًا بالملاح
إنَّ عيشي يمرّ في اللهو والحز ن وعيش الغبيّ في الأفراح

ومعهن بنت صغيرة جميلة تلم النقطة، وكل مَن أعطاها شيئًا سلمت عليه بكيفية جميلة، وهذا نوع من الانحناء يسمى «ريفيرانس»، فأين صورة هذه النساء المكشوفات الوجوه من صور من يضرب القانون في مصر من عجائز الرجال؟

تنبيه: لا أعرف كلمة عربية تؤدي معنى ريفيرانس، فلا بد إمَّا من الاتفاق على كلمة، أو استعمال اللفظة الفرنساوية وتعريبها، والروس دائمًا يستعملون كلمات فرانساوية ونيمساوية من جملتها هذه الكلمة مع وجود كلمة روسية، لكن استعمال الكلمات الغريبة ألطف، وهذا كما تستعمل [٢١/و] الكلمات العربية في التركي والفارسي، أو الكلمات الفارسية والتركية في العربي، وأمّا ترجمتها بعمل التمني فلا يناسب:

أولاً: هذه الكلمة للسلاطين والباشوات والأمراء. ثانيًا: عمل التمني باليد، والريفيرانس بالرجل وبينهما بَون بعيد، وقلت مخاطبًا لبعض أحبائي بمصر وأنا في أدوسا:

يا حبيبي بمصر ما لك تنسى ولديك المحب غادر نفسا
سافر الجسم عنك في سفن النا ر وما في الوصال مرسا

تورية بشهر مرس الأفرنجي:

جاز بحر الهوى الأجاج وقاسى فوق قيس عشقًا وضعفًا ونكسا

ثم أضحى الهوا لديه حميدًا فتراه في دولة الترك أمسى

عاش فيها فوق الخليج زمانًا في التذاذ ما فيه صادف بوسا

ثم أجلاه دهره وهو خصم عند مُسوَد بحر شدة فتخسى

ويرى البحر كالسماء ولا أر ض يراها أفي السموات وأمسى

ثم طاب الهواء وأحسن لي الدهـ ـر فأرسيت عند سيف أودسا

بلد تلتقي إذا كنت فيه منزلاً واسعًا وخصبًا وأنسا

فيه تمشي الولدان والحور زهوًا في جنان النعيم صبحًا وأمسا

ثم إن أودسا تسمى باللغة التركية قواجه بيك، وهو اسم محل فيها إلى الآن. ولما رجعت إلى أودسا وجدها زائدة العمارة، حسنة الشارة، فهي كل يوم في ازدياد، إلا أني دخلتها في يوم عاصف الرياح، كثير الغبار، أنساني خماسين مصر، ولكن لما وصلت، وذهبت عند الجنرال فيدروف النائب [٢١/ظ] مناب الكونت فرانسوف بسبب غيبته، تلقاني أيضًا بغاية البشر، فقلت:

لِمَ لا تقتدي أودسا بأهليـ ـك فتلقيني بأحسن بِشْر

ثم إن علماء الجغرافيا قسموا الروسيا إلى أقسام: الروسيا الصغيرة، والروسيا الكبيرة، والروسيا الجديدة، والروسيا القديمة، والروسيا البيضاء، وقد انضمت إلى الروسيا ممالك أخر دانت لها، وانقادت كمملكة الليه والفينلاد والجرج وغير ذلك كما سيأتي.

ثم خرجنا من أودسا يوم الأربعاء **٢٢** آيار في عربة اشتريناها، ومررنا على ديوان الجمرك الذي مررنا به أولاً، فنظروا الغزال وربطوه بحبال وربطوا فيها قطع رصاص، ثم ختموها وأرسلوا خفيرًا معنا إلى ديوان المكس الثاني في طريق الذاهب من أودسا وبينهما مسافة قليلة، فأخذوا الرصاص المختوم، وسرنا حتى وصلنا إلى أول محطة لأخذ الخيل، وهناك، بل وفي سائر المحطات لا يعطون الخيل إلا إذا رأوا ورقة مسماة البدروجين، وتلك الورقة مُنشنة وعليها نشان القيصر، فبلا هذه الورقة لا يمكن السفر، فهي كالحارس للإنسان، وذلك أن تعطي هذه الورقة فيكتبون عليها: وصل هذا المسافر في ساعة كذا، وسافر في ساعة كذا مع كذا، فإذا حصل بعض شيء يكون التفتيش سهلاً، وهذا البدروچين تارة يشتري، وتارة يعطى على الخزنة إذا كان الإرسال لمنفعتها.

هذا وكل أوراق العقود والتمسكات وحجج الأملاك والشهادة، والعرضحالات وتذاكر المرور وأوراق الولادة، والتعميد والتزويج، والعتق، وغير ذلك لا تكتب إلاّ في ورق منشن بنشان الروس وثمنه مختلف، وفي كل ورقة مطبوع ثمنها. وأول ما دخل ذلك في الروسيا **٢٣** كانون الثاني **١٦٩٩** بأمر القيصر بطرس الكبير[1]، وكان

[1] يعد القيصر الروسي «بطرس الأكبر» القائد السياسي والعسكري الأكثر تأثيرًا في تاريخ روسيا، وُلد في يونيو ١٦٧٢، وتقلّد الحكم بعد وفاة والده، وهو لم يزل في السابعة عشر من عمره، خاض حروبًا عديدة، أولها ما كان في عام ١٦٩٦، وكان عمره لم يتعد الرابعة والعشرين من عمره، وكانت هذه الحرب ضد الأتراك في «أزوف» فانتصر عليهم، وأمن بذلك معبرًا لروسيا إلى البحر الأسود، كذلك كانت حربه ضد السويد، عام (١٧٠٠–١٧٢١) وانتصر عليهم أيضًا لتصبح بلاده أهم قوة أوروبية في الشرق، كما أسس بطرس=

الفرخ من النوع الأدنى بدائرة صغيرة فيها نقش ثمنه نصف كبيك فضة، والوسط بدائرة وسطى فيها نقش ثمنه كبيك فضة، والأعلى بدائرة كبيرة، فيها نقش ثمنه عشرة كبيك فضة، ثم ارتفع ثمن النوعين الأخيرين في أيام بطرس، وبقي الأخير على حالة زمانًا طويلاً، وأما الآن فارتفع الثمن جدًّا، فالنوع الأول ١٥ كبيك فضة، ثم ٣٠ ، ثم تسعون، وللحجج بحسب قيمة المكتوب له، وأنواع ذلك أربعة وعشرون، فالنوع الأول ٩٠ فضة لما قيمته من ١٥١ إلى ٣٠٠ ، والثاني ربل وثمانون لما قيمته من ٣٠١ إلى ٩٠٠ ، وهكذا على الرابع والعشرين فقيمته الكاغد المنشن ١٢٠٠ ربل فضة لما قيمته ٣٠٠،٠٠١ فصاعدًا، وللتمسكات كذلك بالنسبة، ولذلك تفصيل يستدعي التطويل، وإنما القصد ذكر أنموذج من كل شيء.

فأعطينا البيدروچين وأعطي لنا خيل بالأجرة المقررة وبسبب البدروچين لا يقدرون أن يزيدوا في [٢٢/و] الأجرة، وعلى هذه الكيفية سرنا من محطة إلى محطة،

=الأكبر مدينة باسمه « سانت بطرسبرج»، ثم تغير اسمها بعد الثورة إلى لينينجراد ثم عادت بعد تفكك الاتحاد السوفيتي إلى اسمها الأول، كانت له إصلاحات في مجال التعليم وراح يرسل البعثات للخارج، وكانت كل بعثة تتكون من ١٥٠ طالبًا، لكل مناحي الأرض بما فيها دول الشرق الأوسط لتعلم اللغة العربية. وأمر بطرس الأكبر بترجمة ألف كتاب علمي وتكنولوجي وتاريخي، نضف إلى ذلك أن بطرس الأكبر وقف وقفة جريئة لإدخال الإصلاحات على الكنيسة الأرثوذكسية متهمًا رجالها بالكسل والبطالة، ووضع على رأس الكنيسة رجلاً علمانيًّا ساعده في القضاء على استقلالية الكنيسة. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة: فولتير، الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر، تعريب،أحمد بن محمد عبيد الطهطاوي، إشراف، رفاعة بدوي رافع أفندي الطهطاوي، سلسلة أوائل المطبوعات، العدد الأول، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٣، ص ص ت، ث.

وكل محطة منقسمة إلى عدة مسافات يعبرون عنها بفرست يعني فرسخ، والفرست خمسمائة سجين، والسجين ثلاثة أذرع روسية، فبعض المنازل عشرون، وبعضها أكثر أو أقل، وعلى كل رأس فرست عمود من خشب لطيف منقوش مكتوب عليه الذاهب والباقي من المترلة، وقد كانت في زمن كترين الكبيرة علامة الفرست عمودًا مبنيًا من الحجارة، ويوجد إلى الآن بعض هذه الأعمدة قرب چيتومير، فهذا مما ينشط المسافر، وعند عمد المحطة مكتوب عدة الباقي إلى المدن الكبيرة مثل موسقو وبتربورغ، ولهذه العلة نفسها قسمت الكتب إلى أبواب وفصول، وفي كل مترلة أفراس بالأجرة إلى المترلة الأخرى.

فكنا نغير الخيل في كل مترلة، تارة نأخذ أربعة، وتارة أكثر بحسب المنازل سهولة وحزونة، وتارة لا يأخذون أجرة السادس، والليل كالنهار في السير والغيم كالصحو فلا مانع أبدًا ولا خوف من هذه الطرق التي هي صحارى بلا أشجار مدة، ثم مملوءة بالغابات والأشجار الكثيرة، ويوجد في بعضها ذئاب وأرانب وحشية، وطالما تعجبت حين رأيت في هذه الطرق امرأة وحدها في عربة أو ماشية، فحقيقة هذا من الأمن العجيب، وليس بلازم للمسافر في بلاد الروسيا حرس ولا خدم، بل هذا من زيادة الخير، وقد ضاع لبعض القادمين إلى بتربورغ. أشياء سقطت من عربته في وسط الطريق ففتش عليها وأرسلت له في بتربورغ، [/٢٢ظ] والبلاد التي جزنا عليها في المنازل كلها محفوفة بالأشجار، وبيوها أكثرها بالخشب مبيضة من داخل ومن خارج، فهي لطيفة وإن كانت فقيرة، ومررنا على بلاد قديمة معمورة باليهود، وهم كثير في الطرق من أودسا إلى نمر دفينا، وبالمروج كثير من الأنعام غير الإبل والجواميس،

وأعجبتني هذه الكيفية المسهلة للأسفار، ووددت أن لو كان للحجاج طريق بهذه الكيفية، وأعجبني رعي عجول البقر الصغار، وحدها أو مع الغنم، وكان الهواء معتدلاً، فكان السير لذيذًا في تلك الغيطان والأشجار التي لا تنقطع حتى قلت:

أبصرت إذ جزت على الروسيا ... أشجارها بالحسن مغبوطة
تدمشقت من حسن جناها ... على دمشق الشام والغوطة

وقلت:

لو الحريري أبصر الروسيا ... لقال فيها جنة الدنيا
أو عدَّها أوّل جناها ... لكنه لم يحظ بالرؤيا

وقد أتعبني ركوب العربة أول يوم، ثم اعتدت عليه، وهي أسهل المركوبات بعد السفن على أنها سفين بر الفرنج، كما أن الإبل سفن بر العرب كما قلت موريًا:

وألذ المركوب ما معه ... يسهل إذ ما تروم الرقاد

وقلت كذلك:

عربية العربي جرَّ ... ته إلى تلك البلاد
فيها مشاربه صفت ... وبها أُتيح له المراد

وكلما مررنا يسلم علينا الناس برفع البرانيط، [٢٣/و]وقد اتفق أن السماء أبرقت وأمطرت في أول السفر، فقلت:

فرحت بمقدمي البلاد وأهلها رفعوا برانطهم لأجل سلامي
حتى السما حيّت ببرقٍ ضاحك والأرض رشَّت ساعةٌ قُدَّامي

وهذا النوع يسمى حسن التعليل، وهو أن يذكر للشيء علة ليست علته في الواقع، كقول آخر:

وما نزل القطر إلاّ لكي يُقَبِّل بين يديك الثرا

فإنه من البيتين، أن علة نزول القطر وسبب البرْق ليس التَّحية والإكرام والتقبيل، وهذا من التلاعب بالكلام.

ومررنا على أنهارٍ كثيرة أولها نهر بوخ، وعديناه بالعربة في قارب كالطوف يجر بحبل كمعدية أبيار من قرى مصر، وقد شربت من مائه العذب عند المرور. قلت: وعند رجوعي قضيت ساعات قرب هذا النهر، وهناك جبل مخضر في وسط البيوت اللَّطيفة المبيضة، وفيه كنيسة مذهَّبة، وصرت أتعجب من حسن هذا المكان، وأقول: ليس في نواحي بتربورغ مثل هذا المحل في حسن الموضع وطيب الهواء، وهناك انسلخ منا جلد العجلة الحديد، فأعطيناها لحداد ليثبتها، ثم بعد مدة انسلخ ثانيًا في وسط المحطة، فصرنا نسير على المهل ونقول: العجلة من الشيطان، وحقيقة هذه العجلة من الشيطان.

ثم وصلنا كييف يوم السبت، فنزلنا بها للراحة والسبت في خان لوندرة، وهذه المدينة كرسى مملكة الروسيا أولاً وعليها آثار القِدَم، وهي مقدسة عندهم، بها كثير

من جثث قسسهم المقدسين، [/٢٣ظ] بغير بلاء يزورونهم في الكنائس، وبها كنائس قديمة منها كنيسة على شكل أية صوفية، وقد طلعت على سطح كنيسة أندريا وتفرجت على المدينة، وهي كثيرة الأشجار والحدائق يحيط بها نهر دينيبر ، وهو من أنهار الروسيا الكبار، ويتصل إلى موهلوف، وحولها غابات كثيرة تُرى سوداء من بعيد، وقد رأيت فيها النظام مجتمعين يوم الأحد، فكان تقليب أرجلهم كالموج وقلت:

لا تعجبوا إن كان أهل الروسيا أسد الحروب فأرضها غابات
إن فاتني في مصر أحسن روضة فلدى بلاد الروسيا جنّات

وهي في جبل محصنة، وبها مدافع أخذ بعضها من حروب الترك موضوعه حول القلعة إظهارًا لقوتهم، وإشعارًا بشدة شكيمتهم، وقد قطعت طرقاتها بالعربية ومتعت ناظري برؤية مبانيها وحدائقها البهية، ورأيت فيها فتاة بديعة الجمال تصيد بلحظها أرباب الجلال، قد تدنس فسطانها[1] فغسلته ثم بدلته، فقلت في ذلك:

وغادة خطرت فاقتاد ناظرها قلبي فها هو مرتج على الكفل
ورفعت بيديها الذيل من طبع أصابه تبتغي التنظيف بالبلل
وبدلته سريعًا وهي قائلة هذا جزاء الذي قد زاغ في قلبي

ولما رأتني أديم النظر إلى حسنها، سمحت بإرسال رسول الصفا، فقلت وقد عراني انقباض وجفا:

(١) كذا وردت في المخطوط، أي: الفستان.

مذ أرسلت ديوثها لي عفتها خجلاً وقلبي بالعيان قنوع

وأبيتُ حسن وصالها مع حبها إن المحبة بالوصال تضيع

فكأن قلبي سلك طريق سليك بن السلكة[1] القائل: [الوافر]

[٢٤/ر]يَعَافُ وِصالَ ذات البَذْل قَلْبِي ويَتَّبِعُ الْمُمَنَّعَة النُّوَارَا

ثم لما قوضنا خيام الإقامة وعزمنا على الترحال، صارت تجري أمامي محلقة على دجاجة بيديها فقلت:

صادت فؤادي عند كيف رشيقة سحرته بالنفثات من شفتيها

قد سرت عنها وهو باقٍ عندها بث الهوى الإيماءُ من عينيها

فكأن ذا منها عناق مودَّع لما رأت أني أميل إليها

ودائمًا تسمع في كيف دق الأجراس، وكذلك في سائر البلاد، فإنها مشحونة بالكنائس خصوصًا المدن، وقلت مكتفيًا:

وسامرها والليل مُرْخٍ ذيوله علينا كأنَّا قاضيان على الهوى

ومذ سمعت صوت النواقيس هرولت تصلي فراعت مهجتي ضربة النوى

(١) هو السُّليك بن عمرو «أو عمير» بن يثربي بن سنان من بني مقاعس، والسلكة نسبة إلى أمه. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، (تحقيق): تحقيق جماعة من العلماء بإشراف : محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢٠، دار الكتب المصرية: القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٢٩ـــ ١٩٩٤، ص ص ٣٧٥- ٣٨٩، والبيت في المصدر، ج٢٠، ص٣٨٤..

النوى: مختصر من النواقيس، وهذا هو الاكتفاء. أو بمعنى البعد، ولا يحسن الاكتفاء إلاّ إذا اشتمل على التورية كهذا، وكقولي:

شكوت للمحبوب نيران الجوى بكبدي فماس تيهًا وقلا

وقال لي أنت الخليل لي فلم لا أصبحت عليك بردًا وسلا

فإن سلا: إمَّا مختصر من سلامًا أو فعل من السِّلو.

وعلى ذكر النواقيس قال الحاجري[1]:

مذ قام يضرب بالناقوس قلت له مَنْ عَلَّم الظبي ضربًا بالنواقيس

وقلت للعين أي الضَّرب يؤلمكي ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

وعليه مؤاخذة أدبية حيث نسب الإيلام للعين وحقه أن ينسبه للقلب، وكأنه قاسه على قرة العين، والفرق ظاهر، لأن قرة العين سكونها عن الطماح أو بردها سرورًا، وهذا ناشئ عن سرور القلب، وإنما ينسب لها البكاء الناشئ عن حزن القلب، كما أن حزن القلب ناشئ عنها، فالعين تنظر فيألم القلب فتبكي العين، [٢٤/ظ]فكأنها جوزيت حيث كانت السبب، باقتسام الحظ مع القلب وبكائها بردًا للسرور وحارًّا للحزن، فسبحان اللطيف الخبير.

(١) هو: عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل الحاجري، حسام الدين. توفي سنة ٦٣٢هـ. ابن الشعار: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (المشهور بـ: عقود الجمان في شعراء هذا الزمان)، (تحقيق): كامل سلمان الجبوري، ج٥، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ص ٢٨١– ٢٨٦؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج٣، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢، ص٥٠١– ٥٠٥.

وأيضًا فلا يحسن في الذوق الأدبي إشباع الكاف فهو إشباع جائع من الأدب، وأيضا فإن ضرب النواقيس من حيث هو لا يؤلم وإنما يؤلم من حيث إنه يسبب الفراق، كما فعلتُ في شعري.

وعلى ذكر النواقيس، فلنذكر الناقوس الخالد، وهو في موسقو في حفرة متسعة محفوفة بالنباتات قرب كنيسة يوحنا الكبير، ويتوصل إليه بسلالم نحو عشرين، وهو أكبر النواقيس الموجودة في الدنيا، حتى ادعى بعض المصنفين أنه لا يمكن تعليقه ولا نقله، وكذب الروايات المشهورة أنه كان معلقا في نوفْغورد ، ونقل إلى موسقو وعُلق، ثم لفرط ثقله قطع علائقه واستراح في هذه الحفرة سآمة من طول الانتصاب، لكن حقق بعض المهندسين أنه يمكن تعليقه ثانيًا، لكن بصرف ألوف رُبل، ويظهر كجبل من المعدن، قيل إنه لما سبك رمي الناس الخواص والعوام فيه فضياتهم وأوانيهم، ولهذا يميل لونه إلى البياض الفضي ويلمع، والفلاحون يزورونه في الأعياد ويعظمونه كالكنيسة، ويخاطرون في النزول والصعود ويُصَلّبون. ومحيط دائرته على ما حسب بعض المهندسين سبعة وستون قدمًا وأربعة أصابع، وعلوه أحد وعشرون قدمًا وأربعة أصابع ونصف، وغلظه حيث يضرب ثلاثة وعشرون أصبعًا، ووزنه أربع مئة وثلاثة وأربعون ألفا وسبع مئة وسبعون رطلاً، وقيمته ستة وستون ألفًا وخمس مئة وستون ليڤر ستيرلانك وستة عشر كبيك، مبلغ جسيم وأثر عظيم يبلى الدهر ولا يُبلى.

وبعد رؤية هذا لا يتعجب من رؤية [٢٥/و] نواقيس يوحنا الكبير التي أعظمها أربعة آلاف البود ـ أربعون رطلاً ـ لكن يتعجب كيف تقدر الحيطان أن تنوء بهذا الحمل الثقيل، وبعضها من الفضة لولا بعض خلط ضروري لصيرورته مصوتًا رنانًا، وفي كييف مدارس؛ منها مدرسة البنات، وقد أعجبتني من ظاهرها، فكيف من باطنها: [البسيط]

الغصن هذا فأين الظل والثمر[1]

وفيها مواضع كبيرة ترصد فيها الحريقة مشحونة بآلات الإطفاء كالطرنبات وبراميل الماء، وعند بيت حاكم كييف حديقة كبيرة على حائطها أشجار متناسقة الوضع شاهقة في العلو مع ستر أغصانها لطرق الحائط، وفيها قلاع مبنية بالأحجار، وكذلك بيوت كذلك وبالخشب كبيوت الريف، وكل السقوف مسنمة في تلك البلاد كبلاد الروم لا مسطحة كمصر، ثم خرجنا من كيف يوم الاثنين ٢٧ منه من باب آخر مقبب، وهناك عدة قبوات تمر السابلة منها فنزلنا بالعربية في النهر في معدية كبيرة، وكذلك نزل عربيات وخيل وناس كثير، وسرنا تحت المدينة وجبلها المحفوف بالأشجار، وهناك معامل كثيرة لضرب الطوب وعدة أقمنة لإحراقه محكمة الصنعة متقنة، ثم خرجنا مع العربية من المعدية، وهناك توجد رملة مشتملة على هضاب فذكرت قول امرئ القيس[2]: [الطويل]

---

(١) صفي الدين الحلي: ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٤٣٩.

(٢) امرؤ القيس: الديوان، ص ٣٩.

فلمَّا أجَزْنا سـاحَةَ الحـيِّ وانتحـى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقـل

لكنها ليست كبيرة، بل الأشجار غالبة بحسنها وتمايلها، وفي هذه النواحي رأيت الفلاحين يحرثون الأراضي كما في مصر، إلا أن الأغلب أنهم يجرون المحراث بالعجل، ومررنا على الغربول، [/٢٥ظ] وهي مدينة محفوفة بالجبال والأودية المشحونة بالأشجار، وهناك لما نزلت للاستراحة أحدق بي ناس كثيرون يتفرجون على شكلي الغريب، وهكذا في جميع الطريق، وقد اتفق أني رأيت في بعض المحطات فتاة ظريفة الشكل، فصارت تنظر إليَّ وصرت أنظر إليها، وكان المطر أحسن إلي بالوقوف أمامها فقلت:

هيفاء من شباكها قد رنت نحوي وقد طار جناح السفر
أحسن شيء راقني أنها تحب أن أحدق فيها النظر
رُمان نهديها بدا نصفه والوجه كل الحسن فيه ظهر
لا كعذارى مصر يخفين من حسن المحيا غير غُنج الحور
أبدت ثنايا بعقيق[1] اللمى قد ختمت لا بعقيق الحجر
أوقفني في حيّها برهة حتى برؤياها نعمت المطر

ثم وصلنا إلى موهلوف، صُبح الخميس ٣٠ منه، وبها وضعنا عصا التسيار، وأقمنا بها مدة ٢٣ يومًا:

(١) ورد هامش للمصنف على يمين الصفحة ونصه: به تورية لأن العقيق قد يجعل في الختم فيختم به، والثغر يشبه بالخمر فيقال فيه مختوم مع أنه كالختم.

دخلنا على أن المقام ثلاثة فطاب لنا حتى أقمنا بها عشرًا

وهي مدينة جميلة محفوفة بالأشجار والحدائق، ويتصل بها نهر دينيبر، وقد ذهبت في يوم وصولي خارج المدينة، وكان يومًا حسنًا، لأن التلامذة كانوا يلعبون بالموسيقى، ويغنون، وفي آخر يوم آخر ذهبت إلى المدرسة، وتفرجت على المغناطيس وجذبته، فذكرت قول الشاعر(١):

كأن وجهك مغناطيس أنفسنا فحيثما درت دارت نحوك الصور

وقلت:

ما حيلتي في حب غانيةٍ قد حملتني في الهوى وصبا
الوجه مغناطيس أنفسنا لا غرو أن قلبي الحديد صبًا

وذهبت يومًا آخر في ضواحي المدينة عند عين تجري هناك، وشربت الشاي هناك على عادتهم تحت سقيفة لطيفة تقي [/٢٦و] من المطر، وكان معنا حسان، فقلت:

مضى زمن في موهلوف قضيته بحور حسان في الجنات وولدان
أرسيت بعين عند تدفقت فلله في أنسي وحزني عينان

وعليّ في تثنيه العين مع اختلاف المعنى ما على الحريري في قوله(٢):

(١) أبو الفضل المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص٢١٣، ضمن ترجمة صالح الجينيني غير منسوب لأحد.

(٢) الحريري: المقامات الرحبية، مصدر سابق، ص٩١.

جادَ بالعين[1] حين أعمى هَواهُ عينهُ فانْثنى بلا عَيْنين

مع أنه لا لوم عليه عند الأدباء. وذهبت في جهة أخرى إلى الحديقة الكبيرة التي عندها مدرسة البنات، فصرن يجرين نحوي، وتفرجت على ضرابي الطوب خارج موهلوف، وما يقاسونه من الأشغال إذ ليس الطين عندهم ليِّنًا كما في مصر، وتفرجت على قاعة كبيرة مسقفة للنظام إذا كان المطر، وهي مثل قرا ميدان في مصر.

وذهبنا إلى الزروع وبتنا في الضِّياع يومين ، ووصلنا إلى بودن، ورأينا عندها عينًا تجري تنبع من الرمل على وجه الأرض، وقد وضعت فيها عصًا كانت معي فدفعتها قوة الماء، وهي محفوفة بكثير من الأشجار، ومبني عليها حاصل صغير، فلله تلك العين ومنظرها الذي تقرّ به العين، ويسهل فيه إنفاق العين كثرة العيون، وتفرجنا هناك على صيد السمك من النهر الخارج من تلك العين، وعدينا في زورق الصيادين وهو صغير جدًّا، فطأطأت رأسي لكي يسهل عليَّ التجديف، وقد استحوذ على شيطان البق في إحدى الليلتين، فبت بليلةِ نابغية. ورأيت معمل القطران، وشجر البندق، وغير ذلك من أنواع الزروع كالبسلة والقمح الأسود والشعير والبتاتس، ورأيت زرع الفواكه كالخوخ في بيوت تدفأ بالنار، ولا تخرج هذه الفواكه إلا في الشمس، فلذلك تقل الفواكه في تلك الديار مع [٢٦/ظ]كثرة أشجارها، فليست كمصر، فإنها كثيرة الثمار جدًّا من خوخ وبرقوق ومشمش وعنب وبطيخ وتين

(١) جاد بالعين: في الحريري: بالذهب والفضة، انظر: المصدر السابق، ص٩١.

برشومي وبلح أحمر وأصفر... إلخ وقثاء، وخيار وقاوون وتفاح وموز ولوز وبرتقان وقصب السكر. وبها كثير من الرياحين كالورد والياسمين، ومن الخضار كالملوخيا والباميا والقلقاس، إلى غير ذلك مما لا يحصى مع رخص السعر جدًّا، فلذلك قلت:

لله مصر وحسن تربتها ونيلها بل رياضها النضره
إن كانت الروسيا نمت شجرا فإن أشجارها بلا ثمره

وفي موهلوف رأيت كثيرًا من البنات الصغار يلعبن بالقانون، ويرقصن عليه ويغنين، فقلت حين أطربني ذلك:

هويت أفرنجية طفلة تبرقعت بالحسن والدلِ
تلعب بالقانون حينًا كما تلعب بالقانون في وصلي

وقلت أيضًا:

بعدما أطربت بشدو لحون رقصت مرة على القانون
وتثنت في رقصها وتمادت فتبدلت حشمتي بالمجون

ثم بعد ذلك رأيت النساء أيضًا يلعبن ويرقصن من غير نكير، وهذه عادة تلك البلاد، إلا أن رقصهن بالحشمة مع الرجال بأن يضع الرجل يده على خاصرتها وينطان بصناعة ولا يستنكرون ذلك أبدًا، وربما رقص الرجل مع امرأة غيره بحضرته من غير إحساس بغِيرة، ويعدون ذلك من الأدب واللطف، وتقضية الزمان بالحظ

والمسرة، [٢٧/و] ودائمًا محادثتهم مصونة من غير الأدب، إلا أنه تارة ينشأ من ذلك العشق والفساد.

وفي موهلوف حمام، وقد استحممت فيه وحدي، لأني كنت عند صاحبه فأخلاه لي، والعادة أن يستحم الناس معًا، ويقلعون[1] عرايا ولا يتفوطون، فليس معيبًا عندهم كشف العورة في الحمامات وكذلك النساء مع بعض، وليس كحمامات مصر المشتملة على عدة مغاطس وحنفيات، بل فيه طشوت وأسطال مملوءة ماءً باردًا وحارًّا وصابون وأغصان أشجار صغيرة، وهذا أنموذج لحمامات بتر بورغ إلاّ أن فيها حنفيات وفيها حوض كبير مملوء ماء للاستحمام، وفيها الحماميون يغسلون الشخص بالليف والصابون، إلاّ أنهم لا يكيسون وبالجملة ففرق بين حمامات هذه البلاد التي هي أوض من خشب، أو حجر مدفاة، وبين حمامات مصر وإسلامبول التي هي قصور حسنة البناء والتبليط والترخيم، وبها كل ما يحتاج إليه من فوط وتكييس وتصبين إلى غير ذلك.

ثم في عصر السبت رابع جمادى الأولى ٢٣ حزيران، خرجت من موهلوف مع صاحبي، وشيعنا أقاربه وأصحابه بعض أميال ثمّ ودَّعونا، فكان ذلك الوقت مشبها لوقت خروجي من القاهرة وقلت:

لله أيَّامٌ تقضّـــت بالصفا في موهلوف
كم مِنْ حِسانٍ أبصرَت عيني وكم خِلٌّ ألوف

---

(١) كذا وردت في المخطوط، والصواب: يقلعوا.

لا تنكروا زرق العيون فهكذا نصل السيوف

ثم جزنا في الليل على قرية صغيرة تسمى سكندرية، وقد استحوذ شيطان الحريقة على بيوتها، وعند ذلك رأيت أهل القرية محدقين حول النيران، ولا يستطيعون إطفاءها، وقلت ملوحا بقصة إسكندر ذي القرنين:

[٢٧/ظ] ولما بدت إسكندرية سحرة رأيت بها نار الحريقة لا تهدا
فهل خوف يأجوج ومأجوج قد أتى هناك ذو القرنين يبني بها السدا

وقبل الوصول إليها بدا اللهيب، فكنا نظن أنه شفق، فهذه الليلة كانت كليلة ابن بابك[1] حيث قال: [البسيط]

وليلةٍ بتُّ أشكو الهمَّ أولها وبت آخرها استجذب الطربا
في غيضة من غياض الحزن دانية مد الظلام على أرواقها طنبا
يهدي إليها مجاج الخمر ساكبها فكلما دبَّ فيه أثمرت لهبا
حتى إذا النار طاشت في ذوائبها عاد الزمرد من عيدانها ذهبا

ثم مررنا على ڤينسيك ، وهي مدينة كبيرة قديمة بها كثير من الكنائس، وأقمنا بها يومين، وذهبنا إلى غيطانها وغاباتها وحدائقها الكثيرة الأزهار، وبها كثير من اليهود

---

(١) هو: عبد الصمد بن منصوربن بابك، أبو القاسم. توفي سنة ٤١٠هـ. الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ص ص ٤٣٦– ٤٤٥؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٩٦–١٩٨؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج٩، ص ١٥١–١٥٢. والأبيات في يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٣٨.

مثل موهلوف وسائر البلاد التي جزنا عليها، ومن بعدها بقليل تَقلّ اليهود، فلا يُرى إلا محض الروس خصوصًا في بتر بورغ، إذ ممنوع فيها سكناهم، فمن جاء لوقت معين. ثم خرجنا من هذه المدينة والوقت ضحو، كما في غالب الطريق والبرد قليل، وإن كان في بعض الأوقات المطر، ثم في يوم الجمعة ازداد البرد وعصفت الرياح وأظلمت الآفاق، وذلك عند القرب من بتربورغ، فقلت:

أنا يا بتر بورغ جئتك بالبـــشرٍ وتلقيني بوجهٍ عبوس

أنتِ غضبي عليَّ أم ذاك تيهٌ ودلالٌ والتيه شأن العروس

ثم بعد برهة تبسمت الشمس بالإشراق، فقلت:

عند ازدياري بتر بورغ رأيتها بنت السرو يضمها ابن سحاب

خافت وذا ماء البكاء وقبلها خافتني الأبكار لاستغرابي

[٢٨/ر] أو أنها استحيت وذا عرق الحيا والبكر يخجلها لقا الأغراب

ما زلت أخدعها بلين مقالتي حتى تبسم ثغرها لخطابي

وفي قرب بتر بورغ الروضة الملكية المحفوفة بالأشجار المتناسقة والجداول المتدفقة والقصور الشاهقة والأزهار الباسقة والطرق إذ ذاك بين سطرين من الأشجار كما في غالب الطرق فأذكرني ذلك طريق شبرى بقرب القاهرة، إلا أن الأشجار في هذه الروضات أكثر لكن في تلك أطيب وأبهى وأثمر، وبالجملة فكل طيب من جهته، وأنا شاكر للسفر على إحلالي بهذه الجهة، وهذه طريق العربيات، وهناك طريق أخرى، وهي طريق الحديد البخارية، وهي لا تنقطع كل يوم تروح الناس فيها صيفًا وشتاء،

إلاّ أن الصيف أكثر، فتذهب الناس أفواجًا للتفسح هناك والتفرج على ما هناك من العجائب مثل بيت الأسلحة، ففيه أشياء عجيبة محفوظة.

وقد رأيت هناك زيادة على الأسلحة غاشيتين من صفين بالألماس أهداهما السُّلطان محمود إلى القيصر، وهناك بيت للفيل، وللأغنام الغريبة، وسائر الحيوانات الغريبة الشكل، ثم من تسارسكياسلو [1] تذهب عربات البخار إلى بافلوسكي– منتزه جميل فيه بستان كبير وآثار عجيبة، فيقتلون الحر على شواطئ تلك الغدران ويتبردون بالحلاوات المجلدة، وشم الريحان.

وهناك مررنا على الرصد، لكن ما رأيته إلاّ بعد مع جناب سفير جوقند العالم العلاّمة محمد خليل صاحب زاده الفاروقي نقيب الأشراف، وقد شربت معه أفاويق الأدب، واستجلينا عرائس الطرب، وما رأيت من السفراء الوافدين إلى بتربورغ من ذوي الفضل والآداب إلا هو وجناب سفير الدولة العلية حضرة فؤاد أفندي، وقد مثلت بين يديه وتجاذبنا كما قال الحريري طرف الأناشيد، وتواردنا طرف الأسانيد، فوجدته تعْلمة نقَّادًا، وألِفْته روحًا لجسم الأدب، ولا بدَع أن سُمِّي لذلك فؤادا، وفي تلك السبل صارت الخيل تجري كالطيور، والأرض تطوي كطي الزبور، فتمثلت بقول الشاعر [2]:

(١) أي: قرية القيصر، مسكن العائلة الإمبراطورية.

(٢) هو : كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر، أبو صخر الخزاعي الشاعر، ديوان كثير، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧١. والبيت في ديوانه، ص ٢٠٠.

وكنتُ إذا ما جئت ليل[1] أزورهـــا أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدُها

وسبب ذلك أن هذه الطرق مثبتة بالأحجار الصغيرة، وتسمى منعولة كأنها لابسة نعلاً، فما ألطف من مشي العربات عليها بخلاف الطرق غير المنعولة، فيعسر عليهـــا مشي العربات، ثم في آخر هذا اليوم الذي هو آخر حزيران وحادي عشر جمـــادى الأولى، دخلت بتر بورغ:

وكان آخر عهد الطرف من فرحٍ بالدمع أوَّل عهد القلب بالجَلَّـــدِ



(١) جئت ليل: في الديوان: زرت سعدى.

الباب الأول

منشأ الروس





[٢٨/ظ] الباب الأول

في منشأ الروس

السَّاكنون الأُول في تلك الأرض الواسعة التي تسكنها الرُّوس الآن كانوا «سكيفي وصرماطي» يعني الصقلب[١] وكانت تلك الأراضي غابات ملتفة، وغيطان متسعة تسمى الصحارى، لكن هذا كان من الزمان القديم، وكان هؤلاء الناس مساكين لأنهم كانوا لا يعرفون الله، ويعبدون المخلوقات: الشمس والقمر والأصنام، يعني الصور المصنوعة، ولهذا يُسمون الوثنيين؛ أو عبّاد الأصنام، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ولا يبنون المدن الظريفة، ولا يخيطون مثل هذه البدل التي نلبسها، ويلبسون جلد الوحوش.

وفي الصيف يبنون أخصاصًا بدل البيوت، أو يستترون في الغابات، وفي الشتاء ينحتون في الأرض مسكنًا مشابهًا لما يفعله الآن الكلموك وسكان سيبير[٢]، ويسمونه يورطه -أي دويرة المنتجعين-، وفرقة منهم تتقوت بالصيد والأسماك والخبز تصيد، وتحرث الأرض، وتعيش دائمًا في محل واحد، وتسمى القاطنين، والأخرى يستعملون للأكل لحم مواشيهم السائمة ولبنها، ولا يقيمون بمحل واحد؛ ولذلك يسمون

---

(١) والصقالبة صنفان: سمر وأدم وهو مما يلي البحر، ومنهم بيض فيهم جمال وهم في البر. ابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان،ص ١٤٥، والصقالبة: بلاد بين بلغار وقسطنطينية. ياقوت الحموي، ج٣، ص ٤١٦.

(٢) هي: سيبيريا.

المنتجعين، ومع ذلك فسكيفي وصرماطي يعرفون عمل السلاح، ومن الخشب اللدن يحنون القسي ويربطونها بالعروق القوية، والحراب الحادة، والسهام يعملونها من العظام القوية أو الشطف والسيوف من الحديد، والجن من الجلود الغليظة، ولمحبتهم الحروب كانوا شجعانًا، لكن قاسين غالبًا يتحاربون مع جيرانهم ويقتلونهم ويحملونهم [٢٩/و] قربانًا لأصنامهم.

وقال الروم وأهل رومة في شأنهم: كأنهم لهم فوق الجسم الإنساني وتحت الجسم الخيلي، هذا بسبب أنهم دائمًا يحاربون على الخيل كأنه طار لهم في الهواء الزغب الأبيض، يعني الثلج، وكأنهم في الشتاء ينقلبون ذئابًا وضبابًا بسبب أنهم يلبسون جلود الذئاب والضباب، وحين استأصلت الحروب سكيفي وصرماطي، ظهر في محلهم الصقلب الذين تشعبت منهم الروس، يظنون أنهم جاءوا من آسيا، ومع أنهم أيضًا لا يعرفون الله، ويعبدون الأصنام، لم يكونوا قاسين هكذا، وما كانوا يقتلون أسراهم بل يتخذونهم عبيدًا، وبعد عدة سنين يعتقونهم. وكانوا أيضًا شجعانًا يغيرون دائمًا رَجَّالة، وعند الحرب يسألون ربهم الموت أو الظفر، ويهجمون على العدو بصياح مفرح وبالموسيقى، وكانوا مشتغلين بالفلاحة إلا قليلاً، وهي تصلح الناس وتمنعهم من أن يسلموا أنفسهم للبطالة التي هي أم العيوب، وبسبب القوت الغليظ والتعب صار لهم صحة البدن والقوة وجمال الخلقْة، وكانوا مستقيمين طيبي القلوب، ولا يكتمون ما في باطنهم، ولا يحلفون أبدًا، بل يقولون: «أنا أستحي إن لم أفِ بالعهد»، ودائمًا يوفون بوعدهم، وإذا جاء المسافر في قراهم، كل واحد منهم يلاقيه بالترحيب ويكرمه في دويرته ويسخن له ماء الحمام، ويحميه عمن يتعرض له، ولما

رأى اليونان كرم الصقلب أحبوا زيارتهم وحملوا إليهم الذهب والبضائع وقايضوهم على ذلك بالمواشي والجلود والغلة والصوف والعسل والشمع وغير ذلك، ومن هذا نشأت التجارة، [٢٩/ظ] صار الصقلب أغنياء، وهؤلاء البياعون يسمون عندهم الضيوف.

ونساء الصقلب كانوا في غاية الطاعة لأزواجهن، وبموتهم يحرقن أنفسهن بطيب القلب منهم، لأنهم في ذلك الوقت ما كانوا يدفنون الموتى، بل يحرقونهم على الخشب، في وقت الحرب يحاربن بقرب أزواجهن لا يستهولن الموت، وكانوا يؤدبون أولادهم بالقساوة، ويلزمونهم باحترام الكبار وتوقيرهم؛ بحيث إن الشبان لا يتجاسرون أن يعصوا إن أمروهم ببعض شيء، والشبان لا يدخلون قط في خطاب الرؤساء المتعلق بتدبير المهام، وبلا لوم يفعلون على إرادتهم، ويتميزون بالتواضع والأدب والإطاعة والاجتهاد، وأكثر الكل محبة الوالدين وتوقيرهما، وكانوا إلى هذا الحد مؤدبين بحيث إنهم إذا تلاقوا مع الكبار دائما يرفعون برانيطهم بالأدب كما يفعله الآن الفلاحون الطيبون.

والصقلب كانوا يحبون الرقص والموسيقى، إن ذهب أحد منهم في الطريق لا يأخذ معه سلاحًا بل يأخذ معه قيثارًا أو صفارة أو زمارة بالقربة أو نحوها من آلات الملاهي كالربابة، وليس فقط في وقت الصلح، بل وفي وقت الحرب عند رؤية الأعداء الكثيرة هم ينبسطون ويغنون الغنوات وينسون الخطر.

أصل ولاية نوڤغورد

أصل الصقلب نوڤغورد ڤريع غوستو ميصل روريك أول أمير روسي من سنة ٨٦٢ إلى سنة ٨٧٩.

[/٣٠و] الصقلب ينقسمون إلى عدة بطون مختلفة الأسماء منهم: صقلب دونا، وهم السَّاكنون على نهر دونا، ولم يكونوا مثل الأُخر في محبة الصلح والشفقة والعفة، بل كانوا في الغالب يُغيرون على جيرانهم، ويأخذون مواشيهم ويخربون بيوتهم، وفي واحدة من هذه الغارات استأصلوا بالنار والسَّيف بعض ولايات الروم. وقيصر تلك الأرض سأل الاقتصاص من الخان الشمالي، يعني قيصر أواروف الذين جاءوا في الروسيا في القرن السَّادس من صحراء التاتار في آسيا، لكن بيان الذين حمى نواحي كثيرة من مدة تألب ليعاقب سكان دونا على جفوتهم وغلظهم، ولما جمع جيوشًا عظيمة ذهب أمامهم وصار ينهب ويحرق الأرض ويهلك الناس، وبدلاً عن حماية الشجعان هم تخلصوا من الغارة واستتروا في الغاب، وكثير منهم ذهب في الشمال عند أجناسهم السعيدة الذين يعيشون في نواحي سواحل بحر بلطيق، وبحفظهم عفتهم الأولى وشجاعتهم تخلصوا من (أصر)[1] أواروف. والصقلب البلطيقيون كانوا أكثر تمدنًا من الأُخر، وبنوا مدنًا منها نوغڤورد[2] الموضوعة قرب غدير أيلمن ونهر ڤولخوف؛، ولهذا يسمون النوڤغوديين، ومن قديم كان عندهم قانون بتحكيم الأكبر،

---

(١) كذا وردت في المخطوط بالصاد.

(٢) كذا وردت في المخطوط.

فكل عائلة تطيع الجد أو الأب أو العم أو الأخ الأكبر الذي يملكهم ويفصل النزاع بينهم، وله التسلط التام عليهم، وفي الأمور العمومية أيضًا يحكِّمون الرئيس المسمى الأشنج، وفي العسكر ڤوجد أوڤويڤود يعني: ساري عسكر، [/٣٠ظ] وكان الصقلب النوڤغورديون زمانًا طويلاً أقوياء وأغنياء، لكن حروبهم مع مجاوريهم الذين كدروا عليهم بفتكات عديدة، وبليات عتيدة أضعفتهم في الآخِر جدًّا حتى إنهم دخلوا تحت سلطنة واريغ، قوم شجعان يعيشون على بحر بلطيق في سكاندينا التي هي الآن السويد، وفي مدة بعض أزمنة طردوا واريغ ثانيًا خلف البحر، لكن لما رجعوا خالصين منهم وقعوا في ضنك جديد فابتدأوا في النزاع والشقاق والحروب بينهم الناشئة من عدم الطاعة للأكبر والرئيس، وجيرانهم اغتنموا هذه الفرصة وابتدأوا ثانية ينهبون مملكتهم، ويأخذون مواشيهم، ويقودونهم في الآسار.

وبالسعادة كان نوڤغورد في ذلك الوقت الأكبر العاقل صاحب الهمة العجوز غوستو ميصل الذي يحبونه كلهم ويوقرونه جدًّا، ولما رجا أن يخلص قومه من ورطة العذاب والضنك الحقيقي، دعاهم في ميدان عظيم، وحقق لهم إثبات قانون الملك يعني اختيار أمير أو ملك، يحكم وحده المملكة، ويقمع البغاة والخارجين ويحميها من المجاورين الوحشيين، فحينئذ النوڤغورديون تحزبت أحزابًا منهم ويس وكريفيج، وأرسلوا رسلاً بنصيحته خلف البحر إلى واريغ، يقولون لهم: أرضنا واسعة وكثيرة السكان، ولكن لا ترتيب فيها، تعالوا املكونا واحكمونا، وثلاث إخوة من أصل واريغ، والروس مسمون [/٣١و] روريك وسيناف، وتروڤور مشهورون بالأصل والنسب وحسن السيرة، جاءوا سنة ٨٦٢ بجيشهم العظيم في أرض الصقلب،

وروريك ابتدأ يحكم نوڤغورد وسيناف «بيلي أوزر» يعني البركة البيضاء، في شمالي نوڤغورد الشرقي مملكة ويس وتروڤور أربورسك مدينة كريڤيچ في الجنوب الشمالي من نوڤغورد في مملكة پسكوفسك، فمن ذلك الوقت سميت تلك الجهات الروسيا وأهلها سموا «الروس» والصقلب تمتعوا ثانيًا بالراحة والسعادة ؛ لأن جيرانهم ما بقوا يجسرون أن يغيروا عليهم والبغاة والخارجون كانوا مقهورين، ذات يوم رجل يسمى وادم رجل رديء جدًّا، وكان نقم على روريك عدم إباحته النهب والشقاق، فتعصب مع أمثاله من الأوباش ضد أميره، لكن الله عاقبه فقُتل في الحرب، وعُوقب أصحابه كلهم، وبعد مدة قليلة مات سيناف وترڤور وورث ملكها روريك، وصار وحده ملك الروسيا الكبير، وحكم سنة ٨٦٤ مدة سبع عشرة سنة أحسن ما يكون.

أصل ولاية كييف

سكولد ودير، الحرب مع الأروام: قد ذكرنا أن روريك لما جاء، جاء معه جيش عظيم، وفي عددهم كان سكولد ودير رئيسان من رؤساء العسكر، وهما مولعان بالحرب، فذات يوم لما اجتمعت الأصحاب ذهبا إلى روريك وسألا منه الذهاب للتفتيش على السعادة في الأراضي الأخر، [/٣١ظ] وهو خلاهما يذهبان بالفرح بسبب أنهم كلهم كانوا حربيين وأقوياء، فحينئذ ذهبا إلى الجنوب ونهبا البلاد التي في الطريق، ولما صلا إلى نهر دينپر نهر كبير في داخل الروسيا على الجنوب، ويصب في البحر الأسود- رأيا على ساحل النهر مدينة فسألا: لمن هي؟ فأجيبا: بأنها مدينة صقلبية بناها ثلاثة أخوة صيادون، وباسم الأكبر كيا سميت كيِّف ، وكل الأخوة

الثلاثة ماتوا من مدة طويلة، والمدينة تحت يد الحربيين المهولين الخزر تدفع لهم الخراج حالاً، والخزر سكنوا أولاً نواحي بحر كيلان المسمى قديمًا بالخزر الموجود بين الروسيا والفرس والتاتار المستقلين.

فحينئذ سكولد ودير حكماها، ووعدا أن يحمياها من الخزر، لكن بدل ذلك جهزا السفينة وأجلسا فيها عدة كثيرة من جماعتهما ومن عساكر كييف، وركب الجميع من كييف على نهر دينبر إلى البحر الأسود، وظهرا عند أسوار القسطنطينية تخت الروم، إذ ذاك وحاصراها، والقسطنطينية – كما قدمنا – تخت سلطان المسلمين وقصبة الترك، والروم رأوا الروس أول مرة مع الاستهوال، والعسكر لم يتجاسر أن يحاربوهم استهولوا كثرتهم، والسكان ارتعدوا وظهر هلاك القسطنطينية متحتمًا، لكن كان هناك أسقف يحب الخير يسمى«فوطي» أخذ صورة العذراء التي تضرعت نحوها الناس عند الضنك، ورفعها مع الطرب على الساحل، وابتدأ يدعو بقلب مخلص، وإمام الدين والأعيان والعوام والعسكر جثوا على الركب، [/٣٢و] وسألوا من العذراء الحماية.

فحينئذ «فوطي» غطس الصورة في البحر إلى أن هدأ القلق، وسكن الضجر وبالبغتة ارتفع غيم ثقيل، وتفرقت عسكر السفينة وغرقوا ورجع سكولد ودير بعدد قليل من العسكر إلى كييف، وكثير من أهل كييف تركوا عبادة الأصنام واتخذوا دين النصرانية سنة ٨٦٧، لكن ما زال أكثرهم وثنيين إلى زمان مار فلاديمير، الذي عمّد الجميع وأدخل النصرانية في الروسيا سنة ٩٨٨، والأسقف فوطي أرسل لهم قسسًا

يعلموهم الدين والقراءة والكتابة بحروف هجي الصقلب المخترعة من بعض أزمنة في مدة الراهبين كيريل وبيفوديا اللذين ترجما الإنجيل بين الصقلب في مورافيا، وإنما لم يختر لهم فلاديمير دين الإسلام مع أنه عرض عليه أيضًا كباقي الأديان لأنه لما سمع أن دين الإسلام يحرم الخمر، قال الروسي: لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصرّ، وصار ذلك مثلاً؛ فلذلك ترى العوام يشربون كثيرًا خصوصًا في الأعياد، وترى السكارى في الطريق، وأيضًا المجاورة للأروام قوّت اختيار دينهم لسهولة الارتباط بينهم وبينهم، إذ هم معلمو الروس الدِّين والعلوم، ومن أراد بقية التاريخ فعليه بترجمتي لتاريخ الروسيا الصغير لأوسترالوف، وفيما ذكرناه هنا كفاية لمعرفة أصل الروسيا.

الباب الثاني

في بتربورغ





الباب الثاني

[/٣٢ظ] في بتربورغ

في بتر بورغ وبيان وضعها وعرضها وطولها وطبيعة أرضها ومائها وقطرها وتحلل المياه وتجلدها، وقوة البرد فيها حتى يمكن أن تنحت أحجار من الجليد ويبنى بها وتمر العربيات فوق الأنهار المتجلدة، وفيضان المياه فيها، وبيان منشأ بتر بورغ وتأسيسها، وتقدم البناء فيها، وكثرة الأشغال، وزيادة سكنى الغرباء فيها، والأهالي وصيرورتها تحت الروسيا، وتوسيع طرقها، وحسن إحكامها وتنظيمها وترقيها يومًا فيومًا إلى وقتنا هذا وفيه فصول.

الفصل الأول

اعلم أن بتربورغ مركبة من كلمتين بتر يعني بطرس بانيها، وبورغ يعني بلد أو حصن يعني بلد أو حصن بطرس، والعامة تقول بتر وهي قصبة مملكة الروسيا المؤسسة في سنة ١٧٠٣، تشغل جزءًا من إينغري القديمة، وجزءًا من كاريلي القديمة، يعني الفينلاد، موضوعة في ٣١،٥٦٥٩درجة من العرض الشمالي، وفي ٣٠،٥٩ من الطول من دائرة نصف النهار المأخوذة من الجزائر الخالدات في سهل متسع إلى فم النيڤا في خور فينلاند، وتمتد على الساحلين، وتشغل عدة جزائر في ذلك النهر العظيم في قبلي المدينة الغربي، وفي غربي المدينة الخور وسواحله، ومن الجوانب الأخر سهل متسع فيه قرى مخضرة مرتفعة تذهب بمسافة من المدينة إلى [/٣٣و] ناحية

الشرق، في قبلي جبال دوديروف التي سطحها يصور بثلاثين فرست من المدينة سطحًا مستديرًا باعوجاج مجرى النيڤا.

وبعد ٤٤ سنة من الملاحظات المتعلقة بحوادث الجو، علم أن بتر بورغ ترتفع على سطح بحر بلطيق بـ ٨٥٤١ أو ٥٩٦٢٩ قدمًا إنكليزيًّا، والأرض كثيرة الجزائر، وهي عمومًا دسمة ومهتزة، وتحت سطحها السبخي يوجد راق غليظ من تراب الفخار في بعض المواضع، وفي بعضها من التراب الصالح للوقود، وفي الأعلى رمل، وفي النادر حجارة، وهذا الحساب كان أول مرة سنة ١٨٢٧، وحاسبه القولونيل تروليتسكي، حسب أيضًا أن موسقو تحت جدران كريملان ترتفع بـ ٦٢١٨٤ على علو النيفا العادي، تحت قصر الشتاء، ومع أن الله تعالى أحاط بتر بورغ بالمياه الغزيرة ما حلى نواحيها بما هو زينة الأنهار، فالنبات فيها عمومًا ضعيف، وذابل، ومن المنتقعات تنبت أشجار قصيرة متفرقة مثلاً، هنا محل مملوء بشجر الصفصاف وبعيدًا آخر مملوء بالصنوبر أو بالقان، وهناك حور مخزن أو اسفندان بورق لطيف مرتفع على أرض رطبة أو مرملة بظل قليل ضعيف، حيث خشونة الأرض الطبيعية لم تغلبها قوى الصناعة، لكن أكثر هذه المنتقعات قد طم باجتهادات الإنسان السعيدة، وانقلبت الآن إلى مروج بهية وبساتين مملوءة بالأزهار، واليوم في الأراضي المخدومة حول المدينة تبسق في كل[/٣٣ظ] موضع الأشجار اللطيفة وتبدو الخضرة الريانة المتكاثفة والخضارات ينجح نباتاتها للغاية في حوالي بتر بورغ.

وفي سنة ١٧٧٣ اعتبر الخواجة موديل الكيماوي المشهور ماء النيفا فنتج من ملاحظاته، والملاحظات التي كانت قبل إنه يشتمل على جملة كثيرة من الحمض الفحمي بلا أدنى خلط معدني إلا بملح عادي قليل جدًّا، بحيث لا يحس به، وأيضًا ماء النيڤا معروف بأنه من أصفى المياه وأنفعها لاستعمال الناس، وإن كان ماء الأنهار الصغيرة وخلجان المدينة بسبب البالوعات التي تلقي فيها وعبور السفن الكثيرة التي تأتي لتموين المدينة غالبًا مكدرًا ومحتويًا خصوصًا في الصيف على بعض مواد مضرة بالصحة ، ففي مقابلة ذلك ماء النيڤا في كل فصل شراب زلال للسكان، عذب بارد شفاف، إلا أنه للغرباء مسهل أول الأمر، كما قلت في المفاخرة بينه وبين النيل مشيرًا لذلك:

من قاس بالنيل نهر نيڤا	ولم يذق حلوه وعذبه
عندي عليه دليل ذوق	هذا شراب وذاك شَرْبه

وقد اعتنت المملكة في كشف الوسائط الدافعة للضرر الناشئ من الخلجان، ومحيط دائرة المدينة الآن ٣٥ ڤرست، وسطحها نحو ١٨٠٠٠٠٠٠ سجين مربعة، وطولها ٦ ڤرست من ركن حارة نارڤا حيث تصب فونتانكه في النيفا إلى دير سمولني، وعرضها ٨ ڤرست من الحاجز الموسقوي إلى ساحل [٣٤/و] النيڤا الأيمن أمام جزيرة أپوتيكير أو جنينة البوتانيك الصيدلانية، ونصف المدينة تقريبا محدق بالنيڤا وخلجانه الأصلية، وربعها محدق بمياه الخور، والباقي يطل على القرى، والمدينة مكشوفة بحيث من كل طرف ولها وسائط قليلة لتلطيف صعوبة هوائها الطبيعي

لوضعها الشمالي، وفي قطرها الصعب يحدث في الهواء تغييرات متواترة شديدة، لكن أصل الهواء صافي والرياح مع شدتها تهب دائمًا، وخصوصًا من الشرق تبرد حارات بتربورغ العريضة وتفرق بخار البحر والأدخنة المضرة المتولدة من المنتقعات المحيطة بالمدينة، والطقس المتوسط نحو ٣،٠٠٩، والريح الغربي هو الغالب، والريح القبلي الغربي بسبب الغيوم والريح الشمالي الغربي مصحوب في الصيف بالصحو، وفي الشتاء بالنشوفة والبرد، الطقس المتوسط لوحظ في سنة ١٨٣١، ٢٩٦ وأيام الغليني نادرة جدًّا، عدت في سنة ١٨٣٠، ٤٩، وفي سنة ١٨٣١، ١٠٩، والرياح العاصفة لوحظت في سنة ١٨٣٠، ٦مرات هبت على ٦ مرات من قبلي و(١) من قبلي غربي و(١) مرة قبلي شرقي و(١) مرة من الشمال الشرقي، وفي سنة ١٨٣١ كانت الرياح العاصفة ١٥ مرة، (٦) من قبلي غربي، و(٢) من قبلي و(٥) شمالي الشرقي و(٢) غربي.

والعادة أن النيفا يتجلد في تشرين الثاني، ومن سنة ١٧١٨ في مدة ١١٤ سنة ما حصل إلا ١٤ مرة، إنه تجلد ٣٠ أو ٣١ تشرين الأول ومرة في سنة ١٨١١، ١٦ تشرين الأول، وفي هذه المدة [٣٤/ظ] بعينها ما تأخر تحلل الجليد إلا ٦ مرات، ووقت تعويقه في التجلد كان ليلة ١٣ إلى ١٤ كانون الأول سنة ١٨٢٦، ويمكن أن يلاحظ أن النصف الأول من نيسان وقت عادي للتحلل، وفي مدة ١١٤ سنة المذكورة لم يتحلل النيفا أبدر منها من ٢٠ آذار إلى ٣١ منه إلا ١٦ مرة، والتحلل الأعوق كان في سنة ١٨١٠م، ٣٠ نيسان، والأبدر كان في سنة ١٨٢٢، ٦ آذار، والعامة الذين أمثالهم في الغالب من قبيل المكاشفات خصوصًا فيما يتعلق بقطرهم

يحددون تاريخ تجلد النيڤا، وتحلله بهذا المثل المضاعف « ليوم مار نقوله الماء يحبس»، «وليوم مارجورج القنطرة ترتفع»، وذلك أن يوم مار نقوله صاحب الكرامات، ٦ كانون الأول، ويوم مار جورج ٢٣ نيسان.

وعلى ما قلنا يعرف القارئ إن في ٦ كانون الأول على الحقيقة الصرّ يحبس المياه ويغطيها بالجليد، وفي ٢٣ نيسان عند التحلل ترفع القناطر التي هي من السفن الجامعة لساحلي النهر، فانظر لطول مدة البرد في هذه البلاد، وقصر مدة الربيع والصيف، فهل كان هنا أبو منصور قسم بن إبراهيم[1]، الملقب ببزرجمهرمن شعر اليتيمة، حيث قال في استطالة الشتاء واستبطاء الربيع، ما تفرد بمعناه، وأحسن كل الإحسان في التشبيه البديع.

لقد حال دون الورد برد مطاول ... كأن سُعودًا غُيبت في مناحس

وحجب في الثلج الربيع وحسنه ... كما اكنّ في بيض فراخ الطواوس

وعند تحلل النيڤا، سكان السَّاحلين المتقابلين المخترقين غالبًا عدة أيام بسبب صعوبة الممر يتكاثرون بغاية الغية والقلق على ساحل النهر؛ كي ينظروا البعث الذي بواسطته يؤذن بالعبور.

قلت في سنة ١٨٤١م عوق جدًّا إلى ٨ كانون الأول وكدر الناس ورفعت القناطر مرات حتى كان هذا سببًا لفائدة عظيمة، وهي أن أبهة القيصر أمر ببناء قنطرة

(١) هو: أبو منصور قسيم بن إبراهيم القائني، وللأبيات الشعرية انظر: الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ٤، ق٢، ص ٢٣١.

مثبتة على كل حال، وقد شرع فيها من مدة سنين، وهي الآن على طرف التمـــام، حتى إنه مر عليها بعض الناس في هذه السنة في وقت هيجان النيڤا للتجلد، وفي السَّنة الآتية تسلم للعبور لجميع الناس بعد أن يعبر عليها القيصر أول مـــرة. وفي وقـــت اضطراب النيـــڤا بالجليد تأتي الناس أفواجًا على الساحلين للنظر وقلت:

على ظاهر النيفـــا جليـــد تراكمـــت جنادله ما بـــين مُـــرْغٍ ومزيـــد

فها هو يبكي رعدة وتـــرى الـــورى يقولون لا تملك أســـى وتجلَّـــد

[٣٥/و] وفي سنة ١٨٤٤ تحلل النيـــڤا بسهولة عظيمة، ففي ليلة ١٣ لنيســـان ابتدأ، وفي صبحه عبروا.

ولّما رتب بطرس الأول منجرة المدينة نسب لها في سنة ١٧٣٠ النظارة على كل أبنية بتربورغ المخصوصة، ونتج من هذا أن سلوك النيڤا بعد التحلل يتوقف على إذن رئيس المنجرة، وكان التكلف الذي يفعل لهذا سابقًا غير ما أمر به ٧ أيلـــول ســـنة ١٨٣٢، ورئيس منجرة المدينة بإشارة لائقة من ساحل الترسانة يذهب من أمام بيت القيصر بطرس الكبير في زورق بمدفع صغير وفيه بُنديرة المنجرة المذكورة إلى قلعة مار بطرس ومار بولص، وهذا الزورق يصحبه زوارق الناس الذين يريـــدون يحضـــرون التكلف، وفي ذلك الوقت بعينه يخرج من الترسانة نحو القلعة مدير أبنية وزارة البحر، وإذا كان مريضًا أو غائبًا، فناظر الأشغال المذكورة ينوبه في زورق بمدفع وبنـــديرة، وعند وصول كل أمام القلعة يسلم بطلق ٧ مدافع، والقلعة ترد سلام المدير أو نائبه بعدد مساو، وسلام رئيس المنجرة بخمسة فقط، وبعد السلام وردّه، يذهب حـــاكم

القلعة منها ببنديرة لائقة بمقامه، ورئيس المنجرة والمدير أو نائبه يذهبان لملاقاة حاكم القلعة، ويخبرونه بإمكان العبور على النيـڤا من الطرفين، فحينئذ تذهب كل هـذه الزوارق إلى مرسى القصر، يتقدم أولاً زورق رئيس المنجرة ويتبعـه زورق المـدير، ويتبعه زورق حاكم القلعة، مقدم كل الثلاثة قبـل المـؤخر، [/٣٥ظ] وإن كـان الزورق القيصري وزورق رئيس الدننما وزورق وزير البحر في الترسـانة، ذهبـت لملاقاة حاكم القلعة، وتبعت زورقه، وإذا قرب حاكم القلعة من القصر سلم بطلق ٧ مدافع.

ثم يصعد حاكم القلعة والمدير والرئيس إلى القصر ويخبرون أنهة القيصـر الأول بالدعاوى التي يرجع فيها إليه والأخيران بإمكان العبور على النيڤا مـن الطـرفين، وعند صعود حاكم القلعة مع من تبعه إلى القصر بنديرات الزوارق تجـذب أيضًـا، وحينئذ زوارق الناس التي صحبت الموكب تذهب إلى مراسيها الصيفية، وحكم جواز النهر من ذلك الوقت الجواز والألوف من الناس التي تغطي ساحلي النيفا المـتخلص من غطائه البارد وطلق المدافع، وشوبشة النواتية التي تنزل في النهر والزوارق التي لا تعد ولا تحصى التي تمخر في النهرمن كل طرف، كل هذا يظهر صورة موافقة لزمان بطرس الأول، الأب الشفوق على بلده الجديدة وعياله العديدة.

وأما في هذا الوقت فيذهب حاكم القلعة وحده في زورق، ويأخذ معـه حقّـة مملوءة من ماء النيڤا إشارة إلى جواز الجواز، وحينئذ يملؤها القيصر مجرات، وتطلـق المدافع ويبتدئ العبور، وأما تجلد النيـڤا فليس له رسم الآن، لكن في أيام بطـرس

الكبير كان المرور على الجليد متوقفًا على مررو واحد مسخرة من القصر يمر أولاً على الجليد، وعليه بدلة مسخرة وخلفه بعض أشخاص بعضهم يحمل راية من القماش، والأُخر بأيديهم قوس وحبال [/٣٦و] وقواديم والشاطئ الذي ترسي عليه السفن المزين الآن بحجر الصوان المحكم جدًّا بحيث يظهر أنه مسبوك عليه في قالب خارج عن القياس ابتدى تثبيته في حياة بطرس في بعض مواضع بأوتاد وأخشاب وموضع المرسى العجيبة المزين بالأواني الكبيرة.

كان إذ ذاك مرسى من الخشب عادية خشنية، وبعد السطر الأول من البيوت كانت العين تفضى بالحزن عن المنتقعات الواسعة، والآن تقر برؤية آثار الصنائع العجيبة والعمارات التي تنافس العمارات القديمة، ثم إن ربيع بتر بورغ المبتدأ على حساب السنة الشمسية من ٨ آذار لا يكون حقيقة إلا في آخر نيسان، وحتى تارة في أواخر آيار وزئبق ميزان الهواء يقف تحت درجة الجليد، ومع أن حر الشمس أذهب الزحلقة في سنة ١٨٢٦، حصل في بتر بورغ أمر نادر جدًّا، وذلك أن عربات الزحلقة ابتدأت بالسهولة في يوم الأحد عيد الفصح؛ لأن في أمس ذلك العيد ٢٤ آذار وقع ثلج كثير وغطى وحل الحارات، وطم حفر الماء الصغيرة، وكان الصرُّ ست درجات، لكن ما دام ذلك زمانًا طويلاً، وعلى كل حال فالربيع لا يتخلف عن تحلل النيڤا، وتحلل جليد بركة لادوغة بعده بنحو أسبوع، فأول فصل الربيع منوط بتحلل الجليد، وإذا تأخر التحلل فمرور الربيع إلى الصيف سريع جدًّا حتى إنه في ليلة تنمو النباتات.

وحينئذ الأشجار تبدو في الاخضرار، وبعد يومين أو ثلاثة تزهو بالكلية، وحـــر صيف بتر بورغ لا يزيد عن حرور [٣٦/ظ] الصيف الجنوبي، لكن يـــدوم قلـــيلاً، والهواء في هذا الفصل عرضة لكثير من التقلبات، وأعلى ما يكون الحر ٢٤ درجـــة، في ميزان الهواء في بتر بورغ، ومع ذلك ٢ تموز سنة ١٨٠٢ ، كان الحر في الظهـــر ٢٦ درجة، ٦، وفي٢٥ تموز سنة ١٨١٢ كان ٢٧ درجة ٢، والزوابع والصـــواعق عمومًا لا تمتد ولا تقوى والغيوم تتفرق بالسرعة، ونادرًا فوق المدينة وأندر من ذلك تسبب الضرر عنها، وليالي بتر بورغ في الصيف لطيفة جدًّا، فهي لا ليل ولا نهار إنما الدغيشة أو تباشير الصباح كأنها مركبة من ظل ونور، وقلت في ذلك:

في بتـــر بـــورغ بـــدائع وعجائـــــب وغرائـــــب

فالصـــبح فجـــر صـــادق والليـــل فجـــر كـــاذب

فكأنهـــــا لضـــــيائها الليـــل منـــها هـــارب

والرياح في هذا الفصل – في العادة – ساكنة، والهواء صافٍ خفيف شفاف حتى تمكن القراءة في كل ساعات الليل، ففي الحقيقة بمجرد ما يسطع شفق المساء في الأفق يرى في شرق القطب تباشير الصباح ناشرة راياتها الحمر، وأطول يوم في بتر بـــورغ ١٨ ساعة و٢٩ دقيقة، يبقى ٥ ساعات و٣١ دقيقة مسافة الليل بلا ظلمة الـــذي

نعتناه آنفًا، فإذا وقع الصوم في هذه الأيام كان عسرًا، ومع هذا فالمسلمون يصومونه، وانظر لقول أبي الغنائم الرملي، مع أنه لم ير مثل هذا الطول(١):

[الكامل المجزوء]

شهر الصيام مبارك ... ما لم(٢) يكن في شهر آب
خفت العذاب فصمته ... فوقعت في نفس(٣) العذاب

والشمس في الانقلاب الصيفي تطلع في ٢ ساعة و٤٧ دقيقة، وتغرب في ٩ ساعات وربع، ولهذا من أول شهر آيار إلى أول شهر آب لا يوقدون فوانيس الحارات، ولما رأيت أول مرة إيقاد فوانيس الحارات أول آب، وكانت كاملة الضوء وشكل مصابيحها كالهلال، قلت:

لله ما أحلى الفوانيس التي ... مصباحها يبدو كشكل هلال
لولا تعددها لقلت أهله ... لكن أقول إذن نجوم ليالي

(١) نُسبت الأبيات إلى أكثر من شخص، فنُسبت إلى أبي سهل البوشنجي في التذكرة الحمدونية، محمد بن حسن بن علي بن حمدون، تحقيق : إحسان عبّاس، بسكر عبّاس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ج٩، ص ٤٠١؛ كما نُسب إلى ابن المعتز في: حسن اليوسيي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، حققه: د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، ١٩٨١، ج١، ص ٣٠٥، ونُسب أيضًا لابن الرومي في: علي بن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، دار الطباعة الأميرية المصرية، ١٨٦١، ص ٩٢.

(٢) في التذكرة الحمدونية: (إن لم)، وفي زهر الأكم في الأمثال والحكم: (لو لم)

(٣) في التذكرة الحمدونية: (في عين)، وبين البيتين بيت هو (اليوم منه كأنه في طوله يوم الحساب)؛ وفي زهر الأكم في الأمثال والحكم: (في عين).

مع أن الليل بعد لم تتكامل ظلمته بل فيه بقايا النور، وتأتي الناس بكثـرة لرؤية ذلك أول مرة ثم يتركون، وندر تبسم الخريف، بل هو دائمًا عبوس مظلم محـزن بسبب أمطاره المتتابعة، والسماء المغطاة ببحر من الغيم السنجابي والرياح العاصفة في الجو، كل هذا يعرض النفس للحزن ويتعب ويضعف الجسم ويوحل الطرق، فـأظن أن أوحالها تقصر عن أوحال نيسابور التي وصفها الأستاذ أبو نصر الأصـفهاني[1]، فقال[2]: [البسيط]

كيف المسـير بنيسـابور في الطـرق وبيننـا أبحـر تطمـو مـن اللثـق

يا حبذا البحـر ينجـو فيـه صـاحبه بالعوم أو بركوب الفلـك مـن غـرق

تـرش منـه علـى أثوابنـا لمـع حتى يعـود جديـد الثـوب كـالخلقِ

كأنمـا رطبـها فيهـا ويابسـها ما اسودَّ وأبيض فوق الجلد مـن بهـق

وفي هذا الوقت، الهدوء مضر [/٣٧و] والحركة لازمة، والريح الغربي في شـهر تشرين الأول والثاني يهب بشدة، وتارة يهيج الصواعق التي تسبب بغتة فيضان المياه التي في وسطها أسست المدينة، ويبل الحارات الواطية، والصر القاسي من عيد الميلاد إلى ٢٠ كانون الثاني، وحينئذ ينزل ميزان الهواء إلى ١٨ أو٢٢، وندر جدًّا أسـفل، وتاسع شباط سنة ١٨١٠ كان في ميزان الهواء ثلاثين تحت الصفر، وفي ٢٣ كانون

(١) هو محمد عمر بن محمد الأصبهاني، أبو نصر. توفي سنة ٥٨١هـ. أبو الطيب الباخزري: دمية القصر وعصرة أهل العصر،ج١، تحقيق: محمد التونجي، بيروت، دارالجيل، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ص ٤٣٠-٤٣٨.

(٢) انظر الأبيات المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣٤.

الأول ٣١٠,٢٥ ، ومن سنة ١٧٦٦ إلى سنة ١٧٧٠، وصل البرد إلى ٣٣، ويحسن هنا إنشاد قول أبي سعيد الآبي[1] من شعراء اليتيمة في وصف البرد:

في موضع خفيت به الـ ... أصوات بردًا في النداء

فالريق يجمد في اللها ... والصوت يجمد في الهواء

نطأ الزجاج في الزجا ... ج إذا مشينا في فضاء

والجو يلمع في نوا ... حية ضريت كالهباء

وكأنما صقلت به ... بيض السيوف أو المراء

جمدت له الصهباء حتـ ... ـى قد أتتك بلا إناءِ

فإذا أردت خرطت مصـ ... ـمن رحيقٍ أو طلاءِ

لو عاين العذرى مثوى ... قد رضيت به نواء

أو حلَّة أهلها عن ... جر الهوى برد الهواء

وليس بلازم أن تقول إن أقصر يوم في الشتاء مساوٍ لأقصر يوم في الصيف، بحيث تكون الأشغال غالبها في نور الشموع، ومع ذلك فلا يغترون عن أشغالهم، بل الأمر بالعكس ينشطون، والظلمة لا تعوق، إذ المدينة موقودة دائمًا، وكذلك البيوت، وقلّت الأمطار في الشتاء سبب الصر الكالح، إنما هو الثلج الذي يترل أول الشتا

(١) هو: أبو سعد منصور بن الحسين الآبي. الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج٤، ق٢، ص ص ١١٩– ١٢٦؛ وابن شاكر الكُتبي: فوات الوفيات، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، ج٤، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ص ص ١٦٠–١٦١. والأبيات في يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج٤، ق٢، ص ص ١٢٣–١٢٤.

فيغطي الأرض ويبيضها فتتزحلق الناس في العربات وينسرون بذلك، وعلى الأنهار فلا يصلح في هذه البلاد قول القاضي عياض[1]:

كأن نيسان أهدى من ملابسه لشهر تموز أنواعًا من الحُللِ
أو الغزالة في شمس الضحى خُرِقت فما تفرق بين الجدي والحَمَل

ولا قول الآخر: «وكان أبخل من تموز في المطرِ»

ولا قولي:

فرأيت الحبيب شَحَّ بوصلٍ مثل ما شحَّ بالحيا تموز

[٣٧/ظ] إذ ليس المطر من ملابس نيسان حتى يهديها لتموز، بل الأمر بالعكس، فتموز كريم بالأمطار في هذه الديار، فيحسن فيه قول الأستاذ أبي المعمر يعمر من شعراء الخريدة[2]: [البسيط]

والجو ما بين تسجال الغمام وتسجاع الحمام وتسجام الشآبيب

---

(١) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي، القاضي، أبو الفضل السبْتيّ. توفي سنة٥٤٤هـ. ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأُدبائهم، تحقيق: بشار عواد معروف، ج٢، تونس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠،ص ٧٤-٧٥؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ٣، ص ص٤٨٣-٤٨٥؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج١١، ص ص ٨٦٠-٨٦٢. وانظر الأبيات عند ابن حجة الحموي: ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شعيتو، ج٢، بيروت، ط١، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧، ص ٢٤٤.

(٢) هو أبو المعمر، نعيم بن الحسن بن المظفر. أبو الطيب الباخزري: دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج١، ص ص ٦٠٤-٦٠٦، وانظر الأبيات في المصدر السابق ج١، ص ٦٠٦.

فمن هــزارٍ علــى الألحــان مرتجــز ومن رذاذٍ على الريحان مسكوب

وقد لوحظ أن عند قرب البرد القاسي يتغطى أديم الأرض في وقته ببساط ثخين أبيض من الثلج، وتتغطى السطوح الذي غالبها أسود بالثلج، كما قلت:

واسنمة السطوح السود حازت بياضًا حين جللها الجليد

فهل شابت من البرد الذي لا محالة قد يشيب به الوليد

وقلت:

انظـر لأسـنمة السطو ح وقـد تغطت بالجليد

كبرادة مـن فضـة نثرت على لـوح حديد

وفي سنة ١٧٠٩، وسنة ١٧٤٠ حين الشتويات القاسية جدًّا غطت جزءًا من خور البندقية بسطح قوي وكبير من الجليد، كان البرد بحسب ملاحظات العلماء نازلاً في ليبزيغ إلى ٢٠، وفي فرانكفور إلى ٣٠، وفي أوپسال إلى ١٨، وفي ڤيمار إلى ١١، وفي لوندرة وهامبورغ ودانتزيغ أسفل من ١٨، وفي بتر بورغ من ١٥ كانون الثاني إلى ١٥ آذار سنة ١٧٤٠ بين ٢٦ و ٣١، وبملاحظات علماء الطبيعة اختبر الثلج الذي يغطي الأرض بأكثر من قدمين في العمق، وبرهنوا أن الأرض مع وجود هذا البرد المستمر الخارج عن العادة ما تجلدت إلا بعمق ثلاثة أقدام؛ ولهذا البذور وجذور الشجر ما انضرت، والصيف الذي عقب ذلك كان مخصبًا للغاية.

وفي كانون الثاني سنة ١٧٤٠ بنى على النيفا أمام القصر بيت من الجليد طوله ٨ سجين، وعرضه ٢ وسمكه ٣ [/٣٨و] مسقف والجدران مبنية بصخور عظيمة مكعبة من الجليد الذي صبّ بينها كالخافقي الماء الذي يتجلد في الحال ويلحم الصخور، وعلى السقف بنيت ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة، ووجه البيت مزين بأعمدة فوقها قوصرة متوجة بالتماثيل، وتحويط الباب والشبابيك الذي في غاية الذوق منقوش برخام أخضر، والشبابيك وحتى قزازها من جليد رقيق، والبيت محوّط بحاجز جميل بدرابزي فيه باب كبير وبابان صغيران، وعلى هذه الأبواب موضوع قصاري برتقان أخضر، وفي الجوانب أشجار عادية جذرها وأوراقها حتى والأغصان الجاثمة عليها الطيور مصنوعة من الجليد بغاية الإتقان، وخارج الدرابزي ٦ مدافع عيار ٣ أرطال مع آلاتها من عجلة ودكة وغير ذلك، و٢ هاون عيار ٨٠ رطلاً، و٢ دارفيل، وعلى يمين البيت وشماله هرمان مربعان فارغان، وفيهما في الجهات الأربع من أعلى طبقات مدورة، وعلى يمين البيت بمسافة قليلة فارسان ربعا القامة بقرب فيل كبير كالعادة فوقه فارس ثالث قائده، وعلى الشمال حمام معرق دفئ، وفي عدة مرات لبعض ناس استحموا، وكل هذه الأشياء مصنوعة من الجليد المنشور المنحوت المصقول بغاية الاعتناء بلا خلط شيء آخر من الإجرام الجامدة.

وهذه الأشياء مع اتساقها وإتقان كلها[1] وكل جزء على حدته، تتميز بهندسة دقيقة، وتقضي العجب بصلابتها، خصوصًا مدة الامتحانات المختلفة المصنوعة بحضرة

(١) هكذا وردت في المخطوط: والصواب: وإتقانها كلها.

القيصر [٣٨/ظ]وعائلته، وجملة كثيرة من الناظرين، وقد طلقت مدافع الجليد بجلة حديد ونصف رطل بارود صب بلا تعمير في القصبة، والجلل أصابوا لوحًا من الخشب ثخنة قدمان موضوع بمسافة ٦ خطوة، والأهوان المعمرة بربع رطل بارود رموا البنب.

وفي الليل الدرافيل تصب من مناخيرها من عمد عالية النفط الملتهب، والفيل يصب من خرطومه ماء بقوة بعلو ٢٤ قدمًا الذي في محلها في الليل عمود نفط بتلك القوة، والماء والنفط مجلوبان من الترسانة بواسطة مجاري، وزيادة على ذلك رجل مستتر يحكي صياح الفيل بواسطة بوق موضوع في جسمه، وفي الأهرام كان معلق فوانيس تهتز طول النهار، وكانت منقوشة بمئة لون وبصور غريبة ومضحكة، وفي كل هزة تظهر صورة في طبقات الأهرام تحظ السكان، وفي الليل تولع الفوانيس، وزينة هذا البيت الشتائي من داخل تقضي بالعجب أيضًا بواسطة إتقان الأشياء الجليدية الموجودة هناك ودقتها، فيدخل الإنسان بعد صعود بعض سلالم في مدخل محتو على أربعة شبابيك.

وفي كلٍّ من جهتي هذا المدخل أوضه بخمسة شبابيك بسقف تحتاني فقط، في واحدة منها سفرة الفندرة تحت مرآة، وشمعدانات، فيها شمع يولع مدهونًا بالنفط، وساعة وأواني[1] مختلفة، وجزر صغيرة، وقزازات صغيرة، وفي الجدار الحاجز معلقة مرآة أخرى، وفيها فرشة بناموسية ومخدات وألحفة وغير ذلك، وبقرب الفرشة

(١) كذا وردت في المخطوط: والصواب: وأوانٍ.

طاقيتان وزوجان[/٣٩و] من البوابيج، وفي مدخنة مزينة بالتماثيل المجسمة، يولع قطع الجليد المدهونة بالنفط، وفي الأوضة الأخرى سفرة عليها ساعة دقاقة، وورق حقيقي للعب ملصق بالسفرة بواسطة الصر، وفي الطرفين كراسي[1]، وفي الأركان تماثيل، وهناك دولاب مزين بصور، ومملوء بأواني النقل والحلاوة وصواني للشاي، وكبايات وملاعق وأناجر مع أطعمة وصحون مملوءة بالفواكه، كل هذا من الجليد مصنوع في غاية الذوق واللطف في غاية التطقيم لهذا الغرض، وهذا البيت في النهار بسبب شفافية الجليد المصقول الذي يميل لونه إلى الزرقة كأنه مبني من حجارة الياقوت الأزرق، وفي الليل الأضواء تلمع في داخله، وفي أعلى الأهرام والجدران تصير بالكلية نيرات، وهذه الأنوار التي تقصر العبارة عن وصفها الساطعة على ألف زينة من الجليد تظهر للناظر المندهش صورة قصر من قصور الجن، وهذا القصر بني لأجل عرس، واحد مُسخَّرة من القصر الملكي الذي غير دينه، ومعلوم أنه سكن هذا القصر مع زوجته بعض أيام، وكان مأذونًا لكل الناس الذهاب للتفرج على هذه الأعجوبة والتحفة المرغوبة، لكن كثرة الغاوين وازدحام المتفرجين خرج عن الحدّ حتى اضطر إلى تحويطه بالخشب ونصب ديدبانات عليه.

ومن ١٥ كانون الثاني إلى أوائل آذار بقي هذا البيت العجيب الساحر للُب اللبيب بغاية القوة بواسطة البرد المستمر من ٢٥ درجة إلى ٣٠ درجة، وفي نصف آذار الثاني ابتدأت الحيطان في الانشقاق، وبعد ذلك بقليل تساقطت [/٣٩ظ]

(١) كذا وردت في المخطوط: والصواب: كراسٍ.

بالكلية نحو الجهة القبلية، فحينئذ خرب ونقلت صخور حيطانه بالتعظيم إلى سردابات الجليد التي في القصر؛ لأن في هذا الشهر تقطع صخور كالجنادل من النيفا، وتحمل إلى السراديب لتبريد المياه وتجليد الحلوى وبعض الأطعمة فتبقى إلى الشتاء، وقد صنَّف الخواجة كرافت أحد أعضاء أكديميا العلوم والمعاصر المعاين لذلك الزمان كتابًا وصف فيه هذه البنية العجيبة، وذكر التجربات والملاحظات التي ذكرها علماء الطبيعة في شتاء سنة ١٧٤٠ في هذه المدينة، وهذا الكتاب طبع في بتر بورغ سنة ١٧٤١.

والآن يوضع في الشتاء تارة نحو الحافات اليمنى واليسرى من المنزل المنحدر الذي يبنى بأخشاب وألواح ثخان فوق مرسى النيفا دعائم من الجليد لإمساك حائط هذا المنزل، وفي سنة ١٧٣٣ في المنزل المجاور لقصر المرمر بنى فلاح دويرة من صخور الجليد التي يغطي بردها دائم الخرق المحفور لغسل الثياب، وباب البيت وشبابيكه رميت بصناعة بواسطة كرات الثلج، وهذا يمكن أن يكون وحده المرئى من هذا النوع في بتر بورغ بعد القصر المشهور سنة ١٧٤٠، وقد بنى في مدينة لوبك سنة ١٧٤٠ أمام باب المدينة الكبيرة برج من الجليد، وعلى المتراس ٥ مدافع، وفي الوسط سبع طوله ٧ أقدام، وهذا البرج كان محكم البناء، إلا أنه تقليد صغير، لقصر بتر بورغ الفريد في بابه، وإذا تجلد النيفا وسكن تماوج الجليد على سطحه وضعت ألواح من ساحل إلى آخر لأجل العبور، فما أعجب هذا أول رؤيته والجمّ غفير والخلق كثير، ثم بعد تقوِّي الجليد لا حاجة لهذه الألواح بل يمر الناس على سطح النيفا، فكم من واقية تمشي على الماء، وإذا زاد تقويه [/٤٠و] أذن في وطئه

بالعربيات، وحينئذ يكون كالأرض الصلبه وعليه كالتراب، ويكون مصفرًا قليلاً من دوس المارة، وقلت في المفاخرة بينه وبين النيل:

هيَّا انظــروا مــا أصــاب نيڤــا … حــتى غــدا أصــفر الإهــاب

النيـــــل مـــــاء وذا تـــــراب … والمـــاء يعلـــو علـــى التـــراب

وقلت أيضا:

إن قيــل إن النيــل في المـــــــــــ … ـــــــــدبه طـــين قـــذِر

فـــإن نيفـــاكم حكـــى … جمـــوده الشـــب الزفَـــرُ

النيـــــل عـــــذب ســـــائغ … وذا كطـــــــــود منقعـــــــــر

وإنما وضعت هذه الألواح لتعجيل المرور، فإنه إذا انتظر وضع القناطر أو تقــوى الجليد طال الأمر، وذلك لأنه لابد من أسبوع لوضع القناطر بسبب قطــع الجليــد الذى كالصخور، وربما هلك فى هذا الشغل الشاق بعض الناس ، وأمَّا بعد التحلــل فالعبور فى الزوارق ممكن حتى مع وجود بعض جليد ورد القناطر سهل لعدم الجليد، وفي كل سنة بعد تحلل النيڤا بنحو أسبوع يرجع الجليد من بركة لا دوغة بقــوة لا تستطيع أن تبقى معها القناطر، بل ترفع لكن فى هذه السنة سنة ١٨٤٤ لمــا تحلــل النيڤا لم يمكن الشغالة رفع القناطر، بل أخذها الجليد وذهب ٧ فرست، ثم ردت بعد جمعة بواسطة مركب النار لكن متفرقة، وذلك إن هذه القناطر مركبة من ١٧ سفينة كبيرة ملوح فوقها، ويمكن رفعها وردها حتى عند عدم الجليد كل ليلة ترفع لأجــل عبور السفن، لكن عمّرت وردت كحالها، وما رجع الجليد هذا العام من لادوغة.

[٤٠/ظ] فهذا من نوادر هذه السنة كما إنَّ من نوادرها تحلل النيڤا بسرعة بحيث لم يمكث على سطحه الجليد، وأما فيضان ماء النيڤا في بتر بورغ فيقع كل خمس سنين أو ست بسبب تغير الهواء وعصف الريح، لكن في سنة ١٧٨٨، وفي سنة ١٨٠٢ اشتدّ ذلك ففاض الماء في الحارات، ولكن هذا بالنسبة لمصيبة طوفان ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٢٤ كلا شيء، وكان اليوم السادس كنذير الخراب، فأمطرت السماء طول النهار، وكان الريح باردًا جدًّا، يهب بشدة عظيمة، بحيث إنه عند المساء زاد الماء جدًّا، والسُّكان الذين لم يتعودوا على هذا الفيض العميم، ولم يتصوروا أن ينشأ عنه هذه المرة من الخسارة أكثر من المرات السابقة، ولو استمر الماء على الارتفاع قضوا الليلة بلا خوف، وناموا بالهدوء والسكون، وما أنشدوا قول الشاعر:

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبه

وتفكر أهل الحزم والاحتياط أن الماء في الصبح يهبط على العادة، لكن من المصيبة أن كان هذه المرة بالخلاف- ولله خرق العوائد- فهبت في الليل ريح بارد قبلي شرقي، وزاد من ساعة إلى ساعة في العصف حتى صار صاعقة، وفي الصبح اجتمع على ساحل النيڤا أمام قصر الشتاء خلق بلا عدد يضربون الأمواج المتصاعدة بسبب الصواعق، وعلى وجوه الناظرين يلاحظ الحيرة والانبهات لا الهول؛ لأنه لا أحد إلى تلك السَّاعة خاف مصيبة دانية، وطاقة قاصية، ثم بالسرعة تجاوز الماء الحد، وبلغ ١٣ قدمًا، [٤١/و] و٧ أصابع وعبر السَّواحل إلى الحارات من كل جهة إلا حارات ليتيني وكاريتني ورروجيستفينسكي، وزاد حتى عامت السفن الكبيرة في الحارات،

وأرست عند شبابيك البيوت ومشربياتها، وقصر الشتاء كان كصخرة يتفجر منها الماء من كل طرف وتضربها الأمواج وترمي بزبدها إلى الدور الأعلى، والنيڤا يغلي ويتماوج بقوة وسرعة فرقت شمل القناطر، وشتتت جمع السفن الثقيلة، وركابها رفعوا أيديهم إلى السماء منتظرين الممات قانطين من الحياة، وكثير من صخور الصوان تخلخل أو انقلب، وفي كل موضع الناس الذين يفاجئهم الماء ينطون إلى شبابيك البيوت، أو يتعلقون بأعمدة الفينارات، أو بأغصان شجر البولڤار، أو بأعلى العربات، والخيل هلكت وفي لبّاتها العدة، والأطفال الذين ذهبوا إلى المكاتب غرقوا، وفوق الماء يطفو كثير من الأمتعة الذي نهبها الماء من البيوت، ومن الصلبان التي قلعها من القرافات البعيدة، فهل هو مسلم؟

والمصيبة كانت أدهى وأمر وأشأم في النواحي الموضوعة على ساحل النيڤا الأيمن في الأماكن القريبة من الخور، فهناك علا الماء ١٦ قدمًا، وهلك كثير من الناس خصوصًا في معمل الحديد، فإنه لما أخذ الماء في الفيض أذن للشغالين بالسكنى في الدور الفوقاني، لكن سرعة الماء عاقتهم، واضطروا لتخليص حياتهم أن يشاهدوا هلاك أموالهم وعيالهم ونسائهم بلا وسيلة للخلاص، وبعد الظهر بساعتين ظهر حاكم [٤١/ظ] المدينة الكونت ميلو رادو ڤيج في زورق باثني عشر مجدافًا في شارع نيڤسكي، وكثير من الناس ذهبوا في الحارات في زوارق، وبسببهم تخلص كثير من الناس.

وبعد الظهر بساعتين وبعض دقائق بلغ الماء منتهاه من الفيض، ثم أخذ في النضوب والفيض ذلك النهار بعينه، وكل شيء بلغ الحد انتهى، فما أفظع تلك الليلة الخراب والظلمة العظيمة، والاختلاط بحيث يستحيل توليع الفينارات؛ لأن الصاعقة كسرها، وفي كثير من الحارات تساقط الأبنية وانشقاقها، وفي غيرها كان العبور مستحيلاً، وكم من مئات من الناس يبكون على هلاك أموالهم وغيرهم أسوأ حالاً منهم يبكي جيف أقاربه، وغيرهم محروم من المسكن والقوت والملبس يئنون على طلول بيوتهم المندرسة.

وفي اليوم الثاني أخذت الرأفة قلب الكبار، وذهب ثلاثة منهم أولاً إلى بيت الحاكم، وأعطوا مبلغ ٧٥٠٠٠ رُبل لحوائج المساكين اللازمة وبيت الحاكم فتح، وصار مضيفة للناس الذين فقدوا أسباب المعيشة، وأعطى لأربعمائة عائلة وثمانين ثيابًا ونقودًا للإعانة، وكان يتغذى في بيت الحاكم ويتعشى ٥٠٠ نفس كل يوم، الذي منهم ٢٥٠ يسكنون فيه دائمًا، وقسم في اليوم الأول خبزًا بأكثر من ٣٥٠٠ رُبل، وفي هذه الفرصة ظهر كثير من صدقات الناس السرية الذين لا يريدون أن يظهر اسمهم لتواضعهم، وكثير من المحسنين يأتي إلى بيت الحاكم، ويأخذ بعض الفقراء منه ويموهم عنده سنة، والمملكة أعطت المثل على عادتها فنسيت خسارتها الخاصة [٤٢/و] واشتغلت بإنقاذ العامة وإعانتهم، فأعطى القيصر مليون رُبل ليقسم عليهم، ولأجل تسهيل وسائط الإعانة والإسعاف أمر بنصب ثلاثة رؤساء تحت حاكم المدينة: واحد في وسيلي استروف، وواحد في جزيرة بتر بورغ، وواحد في ناحية ڤيبورغ.

وكان القيصر يروح بنفسه لامتحان (ليتفقد) المباني المنهدمة، ويعين رعيته بالرقة والشفقة كالأب الرحيم، والملك الكريم، ورتب جمعية في وسط المدينـــة، وأمـــر أن تُرسل الأدوية للمرضى في كل موضع بلا تراخ حسب أمر الحكيم، وبعد أيام قليلة من هذا الطوفان البارد جاءت الحمى الصفراوية بين أدوان الناس، إن المصيبة ليست بيضة الديك، فأرخص القيصر الملح والخبز وغيرها من الأقوات اللازمة، (وفي عـــدة من أخطاط المدينة يقسم الخبز وغيره من الأقوات)[1] اللازمة صدقة مـــن طـــرف المملكة، وجلب من الريف كثيرًا من الفلاحين للأشغال، أجرة الواحد عينت برُبـــل ونصف في اليوم، وهذا السعر ارتفع بسبب الدعاوى المفرطة من الشغالين الموجودين في المدينة آخر تشرين الثاني، وصاروا لا يأخذون أقل من ستة رُبل في اليوم.

وبواسطة هذه الاجتهادات زال الضنك والمرض المسببان عـــن هـــذا الحـــادث المنحوس، وبرحمه الله وإسعاف القيصر والمحسنين انمحى ذلك الأثر.

وفي ١٥ تشرين الثاني اشهرت الصلاة لشكر الله الـــذي يعاقـــب ويعفـــو، ولا يستقصي في الغضب، وفي ٢٢ من ذلك الشهر أشهرت صلاة الجنازة على كل غرقى هذا الطوفان، ثم انمسح ذلك حتى من حافظة الناس ودخل في تاريخ هـــذه المدينـــة، [٤٢/ظ] تذكرة للنقم والنعم، والخسارة العظمى في هذا الحادث، هـــي خســـارة الناس، ففي المدينة وأطرافها هلك ٤٨٠ نفرًا، ولا يمكن ضـــبط الأشـــياء التالفـــة بالتحديد بل بالتقريب، وانهدم من البيوت بالكلية ٤٦٢، وتعور ٣٦٨١، وانكسرت

(١) تكرار بالمخطوط.

القناطر غير الحجرية، وهلك من المواشي ٣٦٠٠، وفي سوق المتجر تلف ٣٠٠٠٠٠ بود سكر- والبود أربعون رطلاً- ومثلها من الملح، ومن الغرقى ما يساوي أكثر من ٥٠٠٠٠٠ رُبل، ومن الدقيق ٦٠٠٠٠٠ بود، ومن الخمر الغريب وغيره من المؤنة ونحوها ما يساوي عدة ملايين، وكان المبلغ الموزع على المصابين بهذا الحادث من طرف المملكة ومحسني الرعايا ٤٠٦٦٤٨٦، وهذا بقطع النظر عن الصدقات السرية الحاصلة من ناس عديدين للعيال المحتاجين، ومع وقوع الفيضان، بل الطوفان في هذه المدينة، فليس الخطر عظيمًا بسبب الوسائط والاحتياطات المرتبة، وأكثر وقوع الفيضان في الشهر الأخير من الخريف، لكن في سنة ١٨٢٧ عصف ريح غربي وارتفع الماء ٢٩ ذراع ٤ أقدام و١١ أصبعًا، فكان هذا حادثًا خارقًا للعادة في مثل هذا الفصل، وأطلقت المدافع وولعت منارات الخوف لإنذار الناس، لكن ذهب ذلك الخطر من حيث أتى.

الفصل الثاني

اعلم أن بتربورغ مشبهة لحادثة من حوادث الدنيا أصلية وحكمية التي أنشأها خواطر القيصر الراسخة بلا حد، وأعانه على ذلك اجتهاد قومه المذعنون له بالقلب، طبعت خاتمًا في صفحة الدهر لا ينمحي، بتربورغ منشأ التجديدات [٤٣/و] الروسية، بتربورغ التي ظهرت[١] بغتة في النواحي المتباعدة من الشمال مثل نجم صغير التفت نحوه كل العالم بلا اسره بلا إرادة، هذا التخت المزهر اللامع الريان الذي لم تذبله[٢] يد غريب متغلب، الذي له أول رتبة بين مدن الأوروبا بسبب تاريخه العجيب وحسنه وتأثيره المتوحد على المملكة الواسعة التي قبضت بين يديها في أيامنا بخت الأوروبا بتر بورغ التي تفكرنا دائمًا ببطرس الأول أصل كل ما نراه في الروسيا، ومنبع منه يغترف كل ما يفعل في المستقبل، ومن وقت ما أظهر الشمال بتر بورغ إلى الثلث الأول من القرن الثاني حصل التأسيس والزيادة والتحسينات العجيبة في هذه المدة القصيرة التي مع أنها غير مرئية في تواريخ المدن الأُخر كافية لها تمشي بقدم جبار من صغرها إلى العمر المستوى.

بتر بورغ مشابهة للشجعان الروس في زمن الخرافات لم تشب من سنة إلى سنة بل من ساعة إلى ساعة، وحذق مؤسسها عام على مهدها، والعقل الثابت الألمعي

(١) كتب المصنف فوقها: بزغت.

(٢) بالهامش الأيسر من المخطوط كتب المصنف: يعني وأما موسقو فذبلتها يد نابوليون كما هو معروف.

والجسور من أمة الروس المحلى بقوة متينة رأسية لا تتزلزل، رَبّي وغَذّي شجاعة الشاب، وبتربورغ لم تزل من يوم إلى يوم تجذب ملاحظات الناس المتمدنة، وهذه المدينة منبع الحمية الروسية، ولها تعلق واسع بالتجارة، وتزورها سكان المدن الأخرى غالبًا، وتحتوي على أشياء لطيفة وكبيرة حقيقة، وبالنظر إلى طباع الروس وكيفية معيشتهم وقلة معرفة الأوروبا بلسانهم، وبألف سبب آخر تقتضي تبيينًا كافيًا وتفصيلاً وافيًا فنقول:

[٤٣/ظ] الجهة التي رمي فيها أساس بتر بورغ في سنة ١٧٠٣، كانت منسوبة للروسيا في الزمن القديم، ونهر النيڤا المحدق بالمدينة معروف للروس من زمن نستور، والخطان القديمان اللذان على النيڤا: واحد على الشمال ويسمى ناحية اينغري، والثاني على اليمين ويسمى كاريليا، كانا باسم فوتسكيا بياتينا من أعمال نوڤغورد الكبرى، والقيصر إيڤان الثالث في القرن الخامس عشر لما أضعف القوة الجمهورية التي كانت مزهرة في الزمان السَّالف أدخل في ذلك الوقت تحت قوانينه كل البلاد التي كانت تحكمها، وسواحل النيڤا الذي كان مدة قرون طريقًا لنوڤغورد الخارجية رأوا عدة مرات الروس، وسمعوا غير مرة صياحهم بالنصر قبل أن ذهب بطرس الكبير لتملكها وردها إلى الروسيا.

والنوڤغورديون من مدة النصف الأول من القرن الثاني عشر كانوا يرسلون السفن موسوقة بالوسق المفتخر، وفي سنة ١١٤٢ فرقوا وهزموا دننما السويد التي دخلت في النيڤا لتخريف اينغرى وكاريليا وبعد نحو مائة سنة يعني في سنة ١٢٤١

أرسل ملك السويد إريك الكبير مهيجًا بحقد النوفغورديين الذين كانوا يغيرون على الفينلاد بالتوالي دننما كثيرة العسكر؛ لتسخير نوفغورد، ولما جازت عمارة أريك بحر بلطيق ودخلت في النيفا، وقاطعت الطيار[١] حتى وصلت لملتقى النيڤا ونهر أيـزور، وصل في رأس جيش اسكندر يار وسلافيج أمير نوڤغورد الـذي قدسـته حينئـذ الكنيسة، ودعا السويد للقتال، وبعدما غرق أغلب السفن ألجأ البـاقين إلى الفـرار بالسرعة، وبعد ذلك النصر المشهور بخمسين سنة [٤٤/و] الذي بسببه لقب هـذا الأمير نيڤكسي سيمون ويوسادنيك رؤساء القوة الجمهورية في نوڤغورد تسلحوا على الأبطال الحاملي السيوف الذين لا يزالون يكدرون الأرض المنسـوبة إلى ڤوتسـكيا بياتينا، وكان التلاقي سنة ١٢٩١ عند فم النيڤا وقاتلوهم ودمروهم، وبحيث أُغرقت كل مراكبهم.

وقبل سنة ١٢٠٣ السويد الأعداء الزرق للنوڤغورديين اجتهدوا في سد أبواب التجارة عليهم، ولهذا القصد منعوا أن تصل لهم في البحر الأسـلحة وغيرهـا مـن الحديد، ولأجل أن يصلوا بالسرعة إلى مرامهم، اجهتدوا في تملك فم النيڤا، وبنوا في سنة ١٣٠٠ على ساحل النهر أوضة، وعلى ملتقاه مع النيڤا قلعة صـغيرة سموهـا لانديسكرون يعني «تاج الأرض»، لكن هذه الحركة ما دامت؛ لأن النوڤغورديين لما فهموا الأمر جاءوا في ربيع السنة التالية وطردوا السويد وحلقوا[٢] القلعة، ثم في سنة ١٣٢٣ لأجل التضييق على أعدائهم الحربيين في السفر من بحر بلطيـق إلى بركـة

(١) كذا كتبها المصنف.

(٢) بها تحريف والمقصود: حرقوا.

لادوغة بنوا في المركز الذي فيه ينفصل النيـڤا من البركة في قرية أورخوف الحصن المسمى في هذا الوقت أورخوفتز أو أورشوك المذكور كثيرًا في تاريخ الروس.

ثم في سنة ١٣٤٨ ماغنوس ملك السويد لما صمم على نقـل النوفغـورديين إلى الدين اللاتيني هجم على اينغرى وأخذ أورشوك، واستعد للهجوم أكثر لما رأى نتيجة الظفر، لكن النوفغورديين غلبوه، وعلم أن الروس من كل طرف مهطعـون حـول دننماه الراسية في النيفا، فالتجأ إلى تولية الأدبار بالسرعة والبداء. وفي سنة ١٤٨٧ يوحنا الثالث هجم بحملة فاصلة على نوڤغورد، وصار أيضًا مالكًا لكل العمـارات البحرية [/٤٤ظ] التي بعد نحو قرن صارت للروس إلى الأبد.

وفي سنة ١٥٨١ وسنة ١٥٨٢ القيصر يوحنا الرابع الملقب بالمهدد أو المهـول أشرف على ضياع أينغرى وكاربلي، وأخذ السويد نارڤا، وإيڤـان غـورد، ويـام، وكوبوريا، وكاريله أو كيكسولم وصارت في تصرفهم إلى سنة ١٥٩٠.

وفي تلك السنة رجع الكل إلى الروس، وفي سنة ١٥٩٥ اعترف بأن الكل ما عدا نارڤا منسوب للروس بواسطة عقد تياوزين، وفي مدة الكدر الحاصل في فترة الروس عرض عليهم السويد أن يعاضدوهم ثم انتهزوا فرصة إهمالهم الذي خـرب الـبلاد، وفهموا فحوى قول الشاعر[1]:

(١) هو: صلاءة بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث بن عوف بن منبه، الأفوه الأودي، شاعر يماني جاهلي، توفي سنة ٥٠ قبل الهجرة. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٢: ١٦٩، وانظر صدر البيت ضمن قصيدة طويلة في ديوانه، ص ٦٦. وعجز البيت هو:

ولا سراة إذ جُهالُهُم سادُوا

لا يَصلُحُ النَّاسُ فَوضى لا سَــراةَ لَهُــم

وملكوا اينغرى وكاريلي اللتين رُدّا لهم في سنة ١٦١٧ بواسطة عقد سطولبون، ولما رأى السويد أنهم حكام سواحل خور فينلاند، ومجرى النيڤا من كــل طــرف لم يريثوا أن ينتقضوا بحسن وضع هذا النهر، فمن سنة ١٦١١ أسسوا بناء علــى رأي جنرال غرديا المشهور على ملتقى أوخته على الساحل الشمالي قرب لانديسكرون، ويمكن في محلة بالنفس مدينة سموها نين وبقربها قلعة صــغيرة سموهــا نينسشــانتز، والروس يسموها كانتزي.

والتقارير التي كتبها غوستاف أدولف في خصوص هذه المدينة ووقعــت عليهــا كرستينا دعت كثيرًا من التجار أن يستوطنوها، وصارت من سنة إلى ســنة أعمــر وأزهر حتى صارت في سنة ١٦٩٤ صارت مركز تجارة معتبرة بحيث إن في مدة تلك السنة أرسلت عليها ١٠٨ من السفن، وخرج منها ٨٠، لكن مع تقدم تجارة نــين كانت سعادتها قصيرة المدة بسبب أن في سنة ١٧٠٠ وسنة ١٧٠١ سكانها الــذين كلهم بحيث تجار وعدة منهم أغنياء جدًّا؛ حتى أن واحدًا منهم يسمى فريزيوس سلِف شارل [/٤٥و] الثاني عشر مبلغًا جسيمًا، رأوا قرب الاشتغال الحربي، وخافوا زحف الروس فتسللوا في الوقت المناسب، وأقفرت بعدهم نين ونينسشانتز المحروس بخفــر ضعيف انقلب إلى بوصطة عسكرية منفردة، وكان بشير تضعضعه المستقبل في شهر تشرين الأول سنة ١٧٠٢ حرب نوتبورغ السفاكة هكذا يســمى الســويد قلعــة أورشك الذي بناها النوفغورديون وقعقعة السلاح التي كانت مبتدأة في سنة ١٧٠٠

في حصار نارڤا المنحوس على كثير من الروس، ابتدأت من جديد في سنة ١٧٠٢ على سواحل النيڤا، ولما اشتهى السويد تغريق عساكر الروس التي تتماوج بالظفر بقرب دورباط، أرسلوا من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة دوننما مخصوصة لإخراب القرى، وهدم الديور الروسية المبنية على السواحل، لكن لما علم أوكولنيتشي ضابط المحل وما صاقبه، وابراكسين مأمور هذه الناحية بظهور السويد، أرسلوا ضدهم تجريد قرابة في ثلاثين سفينة، وقابلوا على البركة سفن الأعداء، وتملكوا جملة منها على كثرة المحاماة العنادية، وأغرقوا جملة، وألجأوا الباقي إلى التحصن في جدران نوتبورغ.

وفي السنة بعينها بعد مدة في شهر تموز أراد الجنرال أن يتدارك هزيمة الدننما، وتقدم في رأس عرضي عديد من اينغرى إلى ثغور الروس، لكن لما هزمه ابركسين بذاته على سواحل ايزور نهر مزين بنصر اسكندر نيفسكي هرب نحو جبل دود رهوف، ومن هناك إلى نينسشانتز في ٢٢ أيلول من السنة بعينها تقدم الروس إلى حوائط نوتبورغ.

وفي ١٣ من الشهر التالي، دخلوها غالبين، وهجوم[/٤٥ظ] الشتاء عوق جري ظفرهم، والقيصر الذي كان بنفسه في العسكر بعدما سمى مانتيشيكوف المشهور حاكم القلعة المفتوحة أرسله في ذلك الخريف إلى سواحل لادوغة لادينوية پوله، وأمره أن يبني سفنًا في متجره المحل ومراكب للنقل تستعمل في الربيع الآتي لمحاصرة نينسشانتز، وأخذ نوتبورغ الذي قلب اسمها بطرس إلى شليسبل بورغ يعني البلد

المفتاح، فتح الطريق ليس فقط لفتح المواضع التي ترتفع عليها الآن بتر بورغ بل لفتح كل الأستوينا، والليتونيا، وجملة من الفينلاند.

ولما عزم بطرس على تملك سواحل بلطيق التي كانت منتسبة للروس أمر فيلد مارشال شيرميتوف، صاري العسكر، والذي كلها في موسقو بأن يبتدأ الحرب في سنة ١٧٠٣ بالمشي نحو شليسيل بورغ، ومنها يهجم على نينسشانتز، وهذه القلعة الأخيرة التي تظهر شكلاً مخمسًا مبنيًا في ركن ملتقى أوخته في النيڤا، كانت من قبل الحرب بين بطرس الأول، وشارل الثاني عشر محاطة من مسافة بعيدة بمتاريس وخنادق محفورة قرب ساحل النيفا، ومن جانب شليسبل بورغ وبين القلعة والأشياء المحيطة بها كانت عدة سفن منسوبة للمدينة، وباقي نين يعني الجزء الأكبر بقشلة كبيرة للعرضى، وكنيستين للوتريانيين واحدة للسويد، والثانية للنيمساويين على الشاطئ المقابل لأوخته، وكان هكذا شكل نين ونينسشانتر في خريف سنة ١٧٠٢، وحينئذ وصل خبر أخذ نوتبورغ، وهذا الخبر تقوى سريعًا بظهور تجريدة [٤٦/و] روسية أرسلها القيصر في طول النيڤا من البركة إلى أوختة، ولما نظر حكم القلعة قرب مجاورة الروس خاف على قلعته، وتحصن فيها بعدما أحرق مدينة نين التي دام اللهب يشتغل فيها مدة ثمانية وأربعين ساعة، وخوف الخفر كان له أساس، ولكن كان قبل الأوان؛ لأن الروس – كما قلنا– لا يهجمون قبل الربيع.

ومع ذلك في مدة الشتاء بعض تجريدات مرسلة من شليسيل بورغ من طرف الضابط مانتشيكوف، كدرت الخفر من وقت إلى آخر، وسنة ١٧٠٣ في وقت ما

سافر شيريميتوف من موسقو، وتقدم مع العسكر إلى نينسشانتز جاء عشرون ألـــف عسكري، ووصل القيصر إلى شليسيل بورغ، وانتظر وصول العسكر الذي كان في ٢٢ نيسان، ومشى تحت أوامر صاري العسكر مع عسكر القبطان بمصاحبة الطوبجية الذين هم جزء من عرض بري اوبرازانسكي.

وفي ٢٥ نيسان لما كان شيريميتوف على ١٥ فرست من نينسشانتز أرسل قدامه ألفين من المشاة تحت رئاسة بين باشا نيد هاردت والقبطان غليبوفسكي على ســـفن كبيرة كانت مستعملة على لادوغة، وهذه التجريدة التي لم تكن مأمورة إلا بكشف الموضع قربت من المتراس الخارجي من غير أن يشـــعر بهـــا في الليـــل ٢٤ أو ٢٥، وهجمت بغتة على خفر السويد وقلبتهم، وانتهزت فرصة تكدر الحراس، وتملكـــت من أحد أبراج القلعة، وبعد مثل هذه الضربة باليد لم يبق للروس كثير علاج علـــى الظاهر لتملك الحصون الأخرى التي يحرسها ٨٠٠ رجل فقط، لكن الشجعان الذين [٤٦/ظ] تملكوا من البرج لما لم يكن لهم معاضد وشكوا في الظفر وتفكروا أنهـــم لم يؤمروا إلا بمجرد الكشف تركوا غنيمتهم، وانصرفوا من السويد لما كان لهم وقـــت الإفاقة من هذا الإغماء، ونظروا إلى موضع الروس تشـــجعوا وأخـــذوا الحـــذر أن يهجموا مرة ثانية، وتحصنوا جدًّا، وضيعوا على أعدائهم جمعة زمان، ولمـــا أعلمـــوا شيريميتوف بهذا الخبر، تقدم بكل عسكره في الليل ٢٥ إلى ٢٦، وطلعت الشـــمس على عسكر الروس وهم تحت حوائط نينسشانتز، لكن محل العسكر كان عرضة لنار القلعة، لكن الغاب والأراضي السبخة وخشونة الأرض ما كان أنسب منها لمرامهم.

وفي ذلك اليوم بعينه الجنرال لامبرت رئيس الأشغال الهندسية الروسية فتح الخندق بثلاثين سجين من القلعة، وابتدأوا في تجهيز التحصينات بصف ١٢ هاونًا و٢٠ مدفعًا جلبت من شليسيل بورغ على السفن التي كانت مصنوعة في مدة الشتاء تحت نظارة مانتيشكوف.

وفي مدة تقدم أشغال الحصار أمر القيصر الذي هو قبطان الطبجية الغفر ـــ كما قلنا آنفًاـــ في ليلة ٢٨ يانزال ٤ أرط من عرض پري أو برژانسكي، و٣ من عرض سيمونوڤسكي في ٦٠ سفينة، واقتحم بهذه الدننما النيڤا الكبير غير مبال بنار القلعة المهولة، لأجل أن يسد فم النيڤا الذي ربما يصل منه سفن السويد لإعانة المحاصرين، والسواحل المغطاة بالغابات التي بينها تعوم الدننما أظهرت لعين القيصر أرضًا وحشية لا تنعش الناس ليس فقط هذه السواحل، لكن أيضًا كل امتداد البقعة التي فيها الآن بتر بورغ ونواحيها، كان مغطى بالغابات [/٤٧و] والمنتقعات غير المطروقة هنا، وهناك يلاحظ بعض دويرات منهدمة النصف يسكنها أهالي الناحية، والصيد كان واسطة تقويتهم العادي، وكان لهم غنيمة إن جاءت سفينة من البحر لأجل أن يكونوا فيها مستعملين لأجل مقاطعة طيار[١] النيڤا.

ثم إن القيصر لما أمّن سكان هذه الغابات في نفسهم وأموالهم، ولم يلاحظ من بعيد على البحر ولا مركبًا للعدو، رجع في اليوم الثاني إلى المعسكر مخليًا في جزيرة كوتويوف ثلاث سرايا من الخفر للذب عن ثغر النيڤا، وفي مدة غيبة القيصر القصيرة

(١) بالهامش الأيمن من المخطوط كتب المصنف: تيار.

أشغال المحاصرة تقدمت بالسرعة، وفي ٣ الظهر كل الطوبجية والمدافع المجلوبة من شليسيل بورغ كانت جاهزة[1] لهدم حيطان القلعة، ولما علم شيريميتوف ضعف الحراس، وأراد أن يجتنب سفك الدم، عرض على حاكم القلعة شروطًا شريفة، إن ردَّ القلعة، لكن بمقتضى جوابه أن يدافع إلى آخر نفس، أمر بالحملة الثقيلة بطلق كل المدافع عمومًا، وردّ السويد كذلك.

وبعد ذلك في الساعة السابعة من المساء إلى السَّاعة الخامسة من الصباح، لم يكن إلا الطلق المتوالي بلا أدنى انقطاع، فحينئذ فقط أحسّ الحراس بضعفهم عن المقاومة زمانًا طويلاً، وخافوا من الهجمة القاضية، فمالوا إلى الصلح وخلى لهم السبيل إلى فيبورغ، وكان في آيار سنة ١٧٠٣ في الساعة التاسعة من المساء أن عرض پري اوبرارنسكي الذي كان فيه شاهزادة الكسي تعلم ضرب السلاح أولاً، دخل غالبًا [٤٧/ظ] في قلعة نينسشانتز التي في ذلك الوقت لا أحد حتى بطرس كان يعتبرها محلاً لأول عمارات، قصبة مملكة الروسيا الواسعة، وعند فرح القيصر بدخول نينسشانتز في يده بلا سفك دم كثير غيَّر اسمها إلى شلوتبورغ، وفي ٢ آيار الصبح أشهر النصر بشكر الله وأطلق كل المدافع ثلاث مرات، وضرب الشنك بالبنادق، وخبر هذا الفتح وصل سريعًا على موسقو تخت الملوك القديم، وأشهرته بغاية التبجيل والتعظيم.

(١) بالهامش الأيسر من المخطوط كتب المصنف: حاضرة .

ثم إن القيصر بعدما حمد الله على هذا الفتح كما قلنا، اشتغل بالنظر في القلعة والمدافع وآلات الحرب المختلفة الموجودة فيها، وعند المساء في اليوم بعينه ٢ آيار الخفر الذي خلَّاه القيصر عند فم النيڤا أعلم بظهور دننما السويد، وسفن الأعداء تجهل أيضًا وصول الروس إلى نينسشانتز وما توهمت بأي نوع أخذ ذلك المكان فطلقت المدافع إعلامًا بقربها، ولما علم القيصر بواسطة الخفر المغلوبة أن هذه علامات الدننما استحسن أن يخليهم في طغيانهم يعمهون، وأجاب بمدفعين أُطلقا من أعلى أسوار القلعة، وهذا الكيد المتضاعف نجح.

ففي مساء خامس آيار أرسلت فلوكة من دننما السويد في النيڤا للتفتيش على مستعملين والعسكر والنواتية الذين كانوا في الفلوكة كانوا بعيدين بمراحل أن يظنوا أن الروس توجد في هذه النواحي، وأرسوا بغية التهامل وأخذ واحد منهم، وأخبر أن هذه الدننما تحت إدارة نائب القبطان نومر الذي غلبه إيراكسين السنة السابقة في لادوغة، وتبع الفلوكة بارجتان بعشرة مدافع فقربتا من فم النيڤا، ورمتا الهلب أمام مدخل النيڤا [٤٨/و] في انتظار المستعملين والغجر.

ولّما علم القيصر بهذه الأحوال عزم أن يغتنم الفائدة الممكنة من ذلك، فذهب في المساء بعينه وأخذ معه مينتيشيكوف بصفة رئيس الطبجية، وجملة من العساكر بعدما تكلم في ذلك مع فِلد مارشال على ثلاثين سفينة إلى فم النيڤا، بقصد أن يهجم بالشدة إذا جنَّ الليل على السفينتين المذكورتين، والهواء الذي كان أولاً ساكنًا،

والسماء المصحية أظهرا تسهيل قصد القيصر، لكن بالسرعة عصف الريح وهاج بقوة إلى نواحي مختلفة.

ثم بعد نصف الليل بدقائق غيمت السماء وأمطرت الخور والنيڤا بشدة، وكان عزم بطرس أن هذه السفن تسير بقرب سواحل جزيرة خيرفيسري المعروفة الآن بوسيلسكي أوستروف يعني جزيرة وسيلي في حماية الشجر الذي يسترها، وأن تنقسم إلى قسمين: قسم يهجم في طرف الدفة من جهة البحر، والثاني في الجوانب من جهة ساحل الجزيرة، والقيصر في انتظار الوقت المناسب رتب دننماه في مضيق جزيرة فيتساري بقرب المحل الذي بني فيه بعد كترينغوف.

وبعد انتظار بعض ساعات آن الوقت المناسب، وفي وسط الظلمة وزوبعة الليل المهولة بطرس الذي كان يشتغل للروس والعرق في جبينه هجم من الطرفين معًا على السويد، ومثّل القيصر هيج الرؤساء والعسكر تحت برد من الرصاص ورش وجلل مطلوقة ليس فقط من المراكب المهجوم عليها، لكن من باقي الدننما التي نشرت قلوعها لتلحق معركة القتال لكن عوقب بسبب قلة الماء والروس[/٤٨ظ] هجموا على سفينتي السويد، حيث تُكشر لهم المنايا عن أنيابها، وما خلص السويد المحمول عليهم لا نارهم المخربة ولا اجتهادهم الناشيء عن الأياس من البخت الذي ينتظرهم، والقيصر هجم على السفن أولاً، وفي مدة بعض دقائق تملك من السفينتين، ومن ٧٧ رجلاً الذين كانوا فيها ١٩ عوقبوا بالموت لعنادهم، وكل الباقين وقعوا في أسر الغالبين الذين أغضبوهم بطول المقاومة وقساوتها، وهذا النصر الذي هو أول

ظفر الروس في بلطيق، والذي كان مهمًا جدًّا حتى إن بطرس باشره بنفسه، أشهره ١٠ آيار في المعسكر المنظم تحت شلوتبورغ، وقرب السفينتين المجلوبتين بالظفر إلى أمام القلعة.

وبهذه الفرصة الجنرال غولوڤين قبطان باشا أول فارس نشان الحواري القديس أندري قلد بهذا النشان رؤساء الظفر والقيصر وإشرافه مينتيشيكوف، وأنعم على الضباط والعساكر الذين هجموا كل واحد بصفيحة عليها صورة القيصر، ومكتوب فيها الذي لم يكن حاصلاً تحقق.

ولما رأى بطرس نفسه مالكًا لمجرى النيڤا، عزم على الذب عن مكسبه الجديد بالسلاح، وتهيئة كل الوسائط الكافية لقمع السويد، فبعد إشغال فم النيڤا استشار هل يكون محل الذب قلعة شلوتبورغ؟ أو يختار لذلك محلاً آخر أقرب إلى البحر؟ وبعد الحل والعقد انحط الرأي على مد شلوتبورغ بسبب ضيق حدودها وقلة حصانتها، وبُعدها عن فم النيڤا بمسافة معتبرة بعد أن تبنى قلعة أخرى أقرب إلى البحر؟ وبطرس لأجل [٤٩/و] اختيار محل مناسب راح في عدة من أصحاب الاعتبار والملاحظة يمتحن الجزائر المتشعبة في النيفا، وهناك سنح لفكره الرأي الصائب أن يؤسس في هذا المحل المتوحد، لكن المظهر منافع عديدة، مدنية كبيرة محصنة، وأن ينعش قفر اينغري وكاريليا بمعيشة ناس يشتغلون بالمتجر والصنائع، ومع أن الغابات الكبيرة والأراضي السبخة الواسعة من كل طرف أدهشت القيصر، لكنها لم تثنه عن إخراج مراده العظيم من القوة إلى الفعل.

فاختار لبناء القلعة جزيرة واطية السطح تسمى اينيساري، يعني جزيرة المعز الموضوعة في النيڤا الكبيرة قبل الجزيرة المسماة اليوم بتر بورغسكي سترنا يعني ناحية بتر بورغ القديمة، وحكى أن سلِف شارل ١٢[1] كان أعطى لأمير من السويد الظاهر أنه الكونت ستينبوك أرضًا واسعة إلى فم النيڤا، وهذا الأمير المذكور لما سحره حسن هذا المكان ومنافع وضعه بنى فيه أبنية، ورتب ضيعة وأسكن فيها الهربانين، وسُمى هذا الملك لوست، هو لم يعني «جزيرة الحظ»، ثم بعد مضي سنتين أو ثلاثة مات جملة من سكان الضيعة من البرد في يوم من الخريف قبل ظهور الجليد، وبعد ذلك فاض الماء على السواحل وأغرق الضيعة.

ولما رأى الأمير ضياع أشغاله ومصاريفه، لم يستحسن تجديد العمارات المنهدمة وسمى الأرض التي أنعم بها عليه الملك توفليس هو لم يعني «جزيرة العفريت»، وسافر وترك القرية المنهدمة في زوايا النسيان، وهذه الحكاية من حيث إن أهل العصر لم يقووها، يمكن أنها مخترعة، ومع ذلك هي مطابقة لقساوة هواء بتر بورغ [/٤٩ظ] الذي تذلل الآن قليلاً بسبب زيادة السكان، وتنشيف المنتقعات، وقطع الأشجار

(١) هو ابن شارل الحادي عشر، وُلد سنة ١٦٨٢، تولى الملك سنة ١٦٩٧، ونظرًا لصغر سنه تألب ضده ملك الدنمارك وملك بولونيا وقيصر الروسيا، فحارب الدنمارك أولا وانتصر عليها، ثم حارب الروسيا فهزمها، ثم سار إلى بلاد بولونيا فانتصر عليها وعزل ملكها وعين مكانه أحد محالفيه، وفي سنة ١٧٠٩ قصد مدينة موسكو فانتصر عليه بطرس الأكبر في واقعة بولتاوا، فاحتمى شارل الثاني عشر بمدينة بندر ببلاد الترك عدة سنين، وأخيرًا خرج من بلاد الترك قهرًا وتمّ قتله سنة ١٧١٨ عند حصاره إحدى بلاد النرويج. انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ٢، ص ص ٣١٢-٣١٣.

الجالبة لذلك، وعزم بطرس الكبير على تحصين جزيرة اينيساري، ويعسر اختيار أحسن بسبب أن القلعة ليست فقط محدقة بحفر عادية بل بمياه النيفا الجارية العميقة، ومن طرف الأرض صارت منيعة بسبب أن بها أحدقت المنتقعات الخطرة المغطية للمواضع المسماة من ذلك الوقت بتربورغسكي سترنا، وتسميها السويد كويفيساري، يعني« جزيرة القان»، وكذلك الجزائر الأُخر القريبة.

وبطرس من غير تضييع الزمان من منذ ١٦ من الشهر المذكور يوم التثليث باشر بنفسه تأسيس قلعة في الأرض ووضع بيديه الحجر الأول من البرج الموضوع على شمال أبواب القديس بطرس الموجودة الآن، والمطل بوجهه الشمالي على بتروبورغسكي سترنا، ولأجل تقوية تحصين القلعة أمام الحائط الملفوتة ضد تيار النيڤا عزم على بناء سور بصورة نصف الدائرة، وعلى جزيرة لوسينوي المسماة الآن وسيلسكي أوستروف في الطرف الحاد المحصور بالنيڤا الصغيرة، والذي يسمى بسبب حصانته سترلكه يعني سهم، بنوا قلعة حصينة، وبعد التحصين عينت جزيرة كويفيساري قاعدة المدينة التي سماها الملك من أول وجودها سانكت بتر بورغ تفاؤلا باسم الحواري القديس بطرس.

وكان مينيتشيكوف معاون القيصر في هذا العمل مسمى حاكم المحل وررون بيك كان ناظرًا، وتريزيني الذي أصله إيطالياني، ناظر الطبجية، سُمي بالمعمار والعسكر الذين غلبوا نينسشانتز، [/٥٠و]والذين كانوا مخيمين على سواحل النيڤا القرابة على اليمين والخيالة على الشمال، قسموا قسمين: واحد تحت حكم الجنرال الأمير ريپنين

بقي في بتر بورغ، والثاني تحت حكم شيريميتوف مشى لحرب قلاع كوپوريا وآم الذي أخذهما بحيث بلا خسارة سبب انقياد كل اينغرى لطاعة بطرس الكبير.

والقيصر في صيف هذه السَّنة لتفكير رجوع هذه الناحية إلى ملك الروس، رتب ألف رجل عسكرًا مشاة أقوى وأحسن ما يكون، وسمى أولاً هذا النظام الأحسن عرضي مينتشيكوف باسم رئيسه، ثم بعد ذلك سماه عرضى اينغرى، ومع هذا العرضي ينتسب بالأصالة إلى العسكر ولا إلى الخفر، له مزايا خفر القيصر، ويسكن دائمًا في بتر بورغ من حيث إنه كان خفرًا مخصوصًا لمينتشيكوف، وإعلاء جزيرة اينيساري وردم المنتقعات وقطع الغابات وبناء القلعة والبيوت والأشغال الأخر، كل هذا يقتضي أيدي كثيرة، ولهذا السبب استعمل القيصر في ذلك العساكر التي تحت إدارة الأمير ريبنين، ثم أهل اينغرى وكاريلي وناس من أولونيتز ونوڤغورد، وأحضر من داخل المملكة ألوفًا من الصنَّاع والأسطاوات، وكذلك من القزاق والتاتار والكلموك، وأعطاهم للمساعدة أسراء السويد حتى اجتمع في ذلك الصيف ٤٠٠٠٠ ألف رجل مختلفة الصنف واللسان للشغل في أساس بتر بورغ، وليس للشغالين الميرية إلا القوت، ولكن لغيرهم زيادة على القوت كراء [/٥٠ظ] ثلاثة كوبيك في اليوم، والكوبيك عشر عشر ربل، والكوبيك في ذلك الوقت مثل ١٥ الآن، وأغلب هذه الشغالة ما كان لهم أولاً لحفر الخنادق وفتح الخلجان، ورفع الشطوط وغير ذلك لا فأس ولا مجرفة ولا معزقة ولا قفة ولا عربة، بل كانوا يحملون التراب الذي يحفرونه بعصي أو بأصابعهم العريانة في أخراج أو في أيديهم أو في

حجور قفاطينهم، وبعد الأشغال القاسية هكذا ينامون في الكشف في أرض رطبة تحت الضباب، والغيوم المطرة.

وكان يتفق لهم أيضا مقاساة الجوع؛ لأنه لا يسهل دائمًا تحصيل المؤنة اللازمة في وقتها لأجل ٤٠٠٠٠ رجل؛ لأن النواحي المحيطة بها كانت مصابة بالحروب، فلم يكن فيها كثير إعانة، والريح المخالف عوق سفن الزاد الآتية من داخل الروسيا على بركة لادوغة، والأقوات كانت نادرة وغالية خارجًا عن العادة، وبعد ذلك يمكن أن يتصور التعب والاجتهاد الخارق للعادة الذي يساوي تأسيس بتر بورغ، لكن كان ذلك مقتضى الحال إذ ذاك واعتبار راحة الروسيا بأجمعها لا يأذن بالتأخر أمام العوائق، ومع كل هذا التعب فالاجتهاد الناشئ عن حضور القيصر وعن حسن الترتيب الذي يفعله بلا انقطاع كان بحيث إن بعد بعض جمع جملة كثيرة من الغابات والمنتقعات عدمت، وأن في محل الدويرتين القديميتين اللتين كانتا فقط مسكن النوع الإنساني تصدى فوق الماء متاريس القلعة المهددة، ومن يوم تأسيس القلعة [/١٥و] أراد القيصر إسراع الأشغال، فقسم النظر بين ستة أشخاص، فأخذ لنفسه قسمًا، وفوض الأخر إلى الكبار الموجودين بقربه خصوصًا إلى ناريشكين وتروبتسكي وزوتوف وغولوفكين ومينتشيكوف، ولتذكار هذا الترتيب سميت الأبراج باسم النظار مبتدئة بالبرج الذي على يمين باب ماربطرس الذي سمي باسم «القيصر».

وفي مدة الأشغال أشهر بطرس عيد اسمه ٢٩ حزيران، وعمل مينيتشيكوف للقيصر وللكبار وليمة مفتخرة في المحل الذي بناه في البرج المسمى باسمه، وما كان

الباعث لبطرس على بناء هذه المدينة حسن وضعها فقط، بل صلاحية الموضع بالسهولة التامة لدننما تدخل وتخرج وترسي، وبطرس الذي علم بالتجربة بسبب خيبة محاصرة أزوف[1] سنة ١٦٩٥ كيف نفع دننما في حرب البحر عرف من أول وهلة أن فم النيڤا يلزم أن يكون للروسيا مفيدًا، وما زال مسدودًا، وما استراح حتى كمل قصده، وذلك أنه لما أحدر من النيڤا إلى البحر اشتاق أن يعرف عرفانا كاملاً جريان هذا النهر العظيم، وفي واحدة من سفراته رأى بغتة على فم النيڤا عدة جزائر تصلح بغاية اللياقة أن تكون ميناء للمراكب التجارية، وهذه الجزائر كانت مسكن فقراء صيادين، وكانت لطيفة المنظر، وتصور بنفسها مفتاح النهر، وفي الدخول في هذا الموضع يلزم الروس أن تتحصن بالضرورة، وبطرس فهم بالسرعة كل منافع وضع هذه الجزائر بغاية المناسبة بفكرة الحاد، ونظرة الثاقب.

فعزم أن يبني ذلك مدينة، وأخذ في الأشغال بعزمه الماضي غير المنتظر عقد الصلح وغير مبال [١/٥١ظ] بصعوبة فيضان المياه، وبينما خبط الفوس وصياح الشغالة يرن في هذه المواضع الساكتة، ما سكت السويد على نظر هذا، بل جردوا عساكر ١٢٠٠ من ڤيبورغ أوائل تموز تحت نظارة الجنرال كزونيورت الذي كان بعينه في سنة ١٧٠٢ في حرب مع أبركسين لهدم الأبنية المبتدأة، لكن القيصر لما علم الخطر في الوقت خرج من بتر بورغ مع أورطتين من الخفر، وأربعة أرط من العسكر، وهذه العساكر لما لاحظت في ٩ تموز العدو من الساحل الآخر من نهر سيسترا،

(١) لمزيد من التفاصيل عن حملتا آزوف انظر: بوغانوف، حياة بطرس الأكبر، ترجمة : خيري الضامن، دار التقدم، موسكو، ١٩٩٠، ص ص ٣٨-٧٣.

عبرت عبورًا صعبًا بمرأى منه، وهجمت عليه بشدة، والسويد مع متانة ملجئهم في أشجار غُلب غُلبوا واضطروا إلى الرجوع إلى ڤيبورغ بعدما عدموا كثيرًا من أمتعتهم ومدافعهم.

وبواسطة زيادة الشغالة المتكاثرة كل يوم في بتر بورغ، فرغ بناء القلعة في آخر الشهر الرابع، وفي الداخل في طول الجزيرة فحر خندق ليلاً يتعرض لفقد الماء خصوصًا في حالة الحصار لو فرض، وعلى ساحلي هذا الخندق بنيت أربعة صفوف من البيوت مسقفة على عادة الفينوانيين بالعشب أو بقشر شجر القان، وعلى الشط الجنوبي رفعت كنيسة من الخشب نقشها يحكي الرخام الأصفر باسم الحواري ماربطرس، والحواري ماربولص، وهذه الكنسية كان لها ثلاثة أهلة في أعلاها، وأيام الأحد وأيام الأعياد يرفعون لهب المراكب.

وفي أحد هذه الأهلة معلق ناقوس يضربون به في ساعات الليل والنهار، وفي السَّاحل الآخر من النهر أمام باب الكنيسة الشمالي بيت صغير لحاكم القلعة من [/٥٢و] دور واحد وبقربه بيوت ضباط الخفر، وفي قبلي الكنيسة في محل بيت حاكم القلعة كان بيت كبير لعسكر الخفر مع فسحة أمامه، وهذه الفسحة كانت تسمى «محل الرقص» بسبب حصان خشب بظهر حاد، وصاري محفوف بأوتاد مذبذبة، وعلى الحصان يوضع العسكري المذنب ذنبًا عظيمًا مفرشحًا وعلى الصاري واقفًا، وهذه الجرسة كانت موافقة لعادة ذلك الوقت، وبقرب بيت العسكر بيت خشب منقوش بكيفية نقش الكنيسة عين أن يكون الترسخانة، وفي البيوت الأخر

كان مسكن قسس كنيسة ماربطرس وبولص وكنيسة اللوتيريانيين ونوابهم وكونسلارية «الخفر ومخازن الأقوات»، وفي برج منيتشيكوف بيت لطيف صغير كان معدًا للعقاقير والأدوية الميرية، وبابه الموضوع في الجدار بين برج القيصر وبرج منتيشيكوف يوصل إلى قنطرة خشب يمكن رفعها وإلى فرجة بين القلعة وجزيرة كويفي التي صارت جزيرة بتربورغ، وكل يوم من وقت أن تدق الطرنبيطة لإيقاظ العسكر حتى تدق لانصرافهم بنديرة القيصر تتهادى على برجه، وأيام الأعياد والمواسم العظيمة ينشر العلم الذي بصورة نسر برأسين ماسكًا بمخلبه، وبمنقاره على أربعة بحور، البحر الأبيض، والبحر الأسود، وبحر كيلان، وبحر بلطيق، ونشر البنديرة أو طيها علامة على ابتداء أشغال المدينة أو تمامها وطلق مدفع يدل على هاتين الحالتين.

وفي الساعة الحادية عشر يطلق مدفع للغداء، وحيث كانت جزيرة اينيساري محفوفة بحيطان قوية، أراد القيصر أن يكون قريبا من القلعة بقدر الإمكان ليمتحن الأشغال غالبًا، فبنى [/٥٢ظ] في جزيرة بتر بورغ بقرب ساحل النيفا الكبير بنحو مئتي باع، ممن برجه في محل كان في حكم السويد دويرة صياد بيتًا من خشب عرضه ثمانية أبواع وسمكه ثلاثة، ومجدد الروسيا لما كان عدوا للترفه والتزايد أعطى لنفسه مثل القناعة، وسكن في أوضتين بينهما مدخل ومطبخ، والكل مدهون بلون أحمر مخطط بالأبيض على ذوق الهولاندايين، لأجل أن يظهر حيطانًا من الآجر المكشوف، وفي الداخل مزين بقماش غليظ ملون بالبياض، وأثاث البيت موافق لبساطته، وفي

وسط السقف يرى هاون، وفي كل ركن بنبة جاهزة للطلق، وهذه الأشياء الثلاثة كانت مصنوعة من الخشب المصور.

وهذا كان أول قصر لبطرس الكبير في بتر بورغ، وما كان في ذلك المسكن الوضيع إلا جليلاً ورفيعًا، وبنى مينيتشيكوف محب الترفه والفخر أمام دويرة القصر بيتًا من الخشب أيضًا، لكنه واسع، وفيه تُشهر الأعياد ويلاقي القيصر بسبب صغر بيته، وهذان البيتان مع الخيام والأخصاص المبنية هنا وهناك بلا نظام لأجل كن الشغالين في جزيرة بتر بورغ مدة الشتاء، نصبت كل المدينة المولودة في سنة ١٧٠٣ وبطرس لما رمى أساس مدينته، ورأى إمكان تحصيل دننما، سافر أول تشرين أول إلى «لادينوي پوله » الذي سماها منجرة أولونيتز، وابتدأ فيها ببناء ٦ فرقيطات و٩ قبقات[1]، ثم رجع إلى بتر بورغ في الفرقيطة المسماة «ايتاندار» التي أنزلها من المنجرة نفسها والمصحوبة بست قنج جديدة أيضًا، وفي مسافة الطريق [/٥٣و] بسبب الريح العاصف الشديد بتخت الفرقيطة في الرمل، وحصل فيها عوار أصلح عند وصولها، وهذه أول مرة أن مركب حرب من هذا الجنس تقوم على ماء النيڤا وتعمر على سواحله، والقلق الذي كان يجده القيصر لتكميل دننما في بحر بلطيق بعثه في تلك السنة بعينها سنة ١٧٠٣ أن ينشئ في خط نوڤغورد، وفي ملتقى نهر كياس منجرة جديدة خرج فيها من الخريف ٣ قبقات، وإلى مبلغ ٣٠٠ مركب مختلفة وغراب للنقل، وأكثرها بناها الأوسطا جبريل مينتشيكوف، الذي تعلم السفانة مع القيصر في

---

(١) ضرب عليها المصنف.

هولاند، وقلة الملاحين عطل بطرس، لكنه اجتث هذا العائق بأن دعى إلى خدمته ضباطًا من هولاند ومن البندقية، ومن بلاد مسكونة بأمم أصلهم من الصقلب خصوصًا من سواحل البندقية.

ثم أخذ لتكميل ذلك عدة من النواتية الغرباء الموجودين في السفن الواردة إلى أرخانكيل، ولما علم القيصر بعد رجوعه إلى بتر بورغ بسفر دننما القبطان «نومير» كالتي كانت مدة الصيف في القرصنة أمام فم النيڤا إلى ڤيبورغ لتقضي فيها الشتاء، سافر مع أن خور الفينلاد ابتدأ في التجلد في قنجة واحدة إلى جزيرة ريتساري الضيقة الطويلة المعروفة بين الروس من زمان طويل باسم كوتلين، والموضوعة على ٣٠ ڤرست من بتر بورغ وسبر الجزيرة وقاس مشعبها.

وبعدما امتحنها بإمعان النظر عزم على تحصينها، وذلك أنه لما رمى أساس مدينة يلزم أن يجعلها في ملجأ من فتكات الأعداء الذين هم [٥٣/ظ] أيضًا ملاك البحر، ورجع القيصر إلى بتر بورغ وقلبه مشغول بهذا الفكر، وكان خلى في الجزيرة منيشكوف مع أربع أورط، وقسم على الأُخر مساكن الشتاء في الأخطاط المجاورة، وسافر إلى موسكو بعدما حصن أسوار القلعة بعدة ٣٠٠ مدفع من النَّحاس، والسبع معادن كلها تقريبًا مغتنمة من السويد، وقبل سفر القيصر إلى موسكو أبطل عادة مستعملة في الروسيا منذ عدة قرون، وذلك السجود للقيصر كلما يلاقي، وهذه العادة التي يمكن أن أصلها من وقت حكم التاتار كانت مكروهة جدًّا لبطرس خصوصًا في وسط الوحل، والمنتقعات، فلذلك حرَّج على فعلها، والعامة المتعودون

كل الأزمان على هذه التحية لشخص الملك شق عليهم الترك، وكثير من الناس إذا رأوا القيصر يخرون سجدًا بلا إرادة، وتأبى الطباع على الناقل، وهذا ألجأ القيصر إلى التهديد والعقاب الأليم لكل من يتجاسر من الآن وما بعد أن يفتأت عليه، ويخالف ما تقدم إليه، وبعد سفر القيصر ببعض أيام، وصلت بتر بورغ أول مرة بعد تأسيسها سفينة من هولاند، رئيس هذه السفينة كان يجئ كل سنة إلى خور فينلاد، حيث كان السويد حكام البلاد يقطع أخشاب العمارة على سواحل نهر سيستره حيث يوجد الآن «سيسترورسك» أو«سيستربيك»، ووصل لهذا الغرض بعد وضع أساس قلعة بتر بورغ بأسبوعين أو ثلاثة، ويتبعه اثنى عشر مركبًا تجارية، لكن لما علم الأخبار المعروفة من خصوص «دننما» القبطان نوميرس التي عاقت هذه المراكب عزم أن يروح لمقابلة القيصر لالتماس إذنه في الاستمرار على قطع الخشب، لكن لمّا وصل كان القيصر وحاكم البلد غائبين [/٥٤و] منذ أيام، وراح يام وكوريا اللتين فتحها شيريميتوف ولم يقدر أن يرى القيصر، لكن لما سمع برجوع الحاكم جوزي ليس فقط بالإذن له في قطع الشجر من المحل المذكور، بل بحثه على أن يجلب إلى بتر بورغ السفن الموسوقة بالبضائع، والرئيس لما انسحر بهذا القبول لحق سفنه، وأراد أن يدخل النيڤا، لكن لما لم يقدر أن ينال إذن نوميرس الذي يخاف أن الروس تتنبه لتسليح سفن هولاند وتتقوى بها عليه، قال له إن يقضي الليل مع ستة من سفنه في خلال دننما السويد، ويصل إلى نهر سيستره على السواحل التي فيها بعض عراضى روس، من وقت هزيمة الجنرال كروينورت.

ووصلت واحدة من هذه السفن إلى بتر بورغ في تشرين الثاني لما وجدت بغتة بعيدة من دننما نوميرس، وكان النيڤا والخور عاريين إذ ذاك من الجليد، والسفينة موسوقة ملحًا وخمرًا، فقابل منيشيكوف الذي يفهم مقاصد سيده السديدة ويحصلها بالهمة العتيدة، الرئيس بغاية البشر والبشاشة، ونهاية الطلاقة والهشاشة، ودعاه إلى طعامه المفتخر وأهدى له خمسمائة مجر، وأعطى لكل نوتي ثلثمائة قطعة، واشترى كل وسق السفينة ثم وعد أن يهدي لرئيس المركب الثانية التي تجيء بتر بورغ ثلاث مئة مجر، ولرئيس الثالثة مئة وخمسين، ومع توارد الأشغال والدواعي المقتضية ليس فقط لالتفات القيصر، بل لحضوره أيضًا كان محط نظره تحصين بتر بورغ بحيث يظهر أنه صرف فيه كل اعتنائه واجتهاده أمرًا مشافهة إن كان حاضرًا، وبالكتابة إن كان غائبًا:

اعلموا أني لكم حافظ شاهدًا ما كنت أو غائبا

وبينما كان يخترع الأشياء النّافعة لإصلاح داخل المملكة كان [٥٤/ظ] يربط التعلقات الخارجية، ويستعد لحرب تكون قبل الربيع وينزل سفنًا وغلايين من كل نوع إلى نهر دون، وبمجرد ما وصل من موسكو إلى فورنيج أرسل إلى مينشيكوف، أن يحصن جزيرة كوتلين، وهذا القصد إذا فعل قبلي الجزيرة، خصوصًا من جهة المشعب لا يخاف من تقدم سفن الأعداء إلى بتر بورغ ومنيشيكوف، لما وصله الأمر سارع إلى الجزيرة وبنى فيها لتصحينها قلعة خارجة عن العادة، قليلة النظير، وكل المواد اللازمة للعمارة وصلت من بتر بورغ على الجليد بحسب أوامر الحاكم،

والأشغال في وقت واحد تقدمت وحصلت بالاجتهاد بعينه والسرعة بعينها في الصيف بحيث أنه عن قريب ارتفع فوق قفر جليد خور فينلاند على لسان الأرض الذي وصفناه دائرة من الخشب أو حصن من ثلاثة أدوار كديدبان مهول مهدد حارس على مدخل مشعب النيڤا، وأساس هذا الحصن صناديق من الخشب مملوءة بحجارة وملقاة في قعر الماء، ومع صعوبة البرد المتتابع كان في هذا الشغل عدة آلاف من الشغالة، بعضهم في البناء، وبعضهم في نقل المواد، وهلك ثمانية آلاف فرس بعدم الزاد وبالعنت، وهلك أيضًا كثير من الناس، وهذا كان قربانًا لازمًا لحفظ بتر بورغ التي حققت فتوحات بطرس المستقبلة في الدننما وسواحل بلطيق، وقبل تحلل جليد النيڤا كملت الأجزاء الأصلية من الحصن والقصبة المولودة كانت في حصن من جهة البحر، وصارت السكان كل يوم تزيد زيادة على الروس، كالتجار الآتين من نوڤغورد بالغرباء من الاستونيا والليڤونيا، وحتى من السويد المساكين الذين [٥٥/و] حرموا بواسطة الحرب من المسكن ومن الصناع والأسطاوات والنواتية الذين جاؤوا أفواجًا بعيالهم، وتركوا أوطانهم، والتاتار والكلموك المدعوون من بعيد لأشغال القلعة بقوا بكثرة في المدينة واكتسبوا زيادة على القوت ما قدروا به على بناء البيوت، وبهذه المثابة عمرت المدينة وصارت منيعة حصينة، وفرغت المنجرة في أقل من سنة، وهذه المنجرة ما كانت مشتملة في ذلك الوقت إلا على عشرة خطوط، والخط المحل الذي فيه تبنى السفينة، وعند رجوع القيصر من موسكوا شاهد عدم انتظام وضع البيوت، فأمر أن تجعل الحارات معتدلة، وفي هذا الوقت ما أوسع حارات المدينة

وأعدلها وألطفها وأجملها، لم تزل ساحرة لعيون النظار، خصوصًا سياح الأقطار، وأصحاب الأسفار الذين تروق أعينهم هذه الآثار.

وفي سنة ١٧٠٦ فاض النيڤا، ومع أن الفيضان ما مكث إلا ثلاث ساعات سَّبب الخراب بسبب أن البيوت كانت حينئذ واطية، فطغى عليها الماء، فصارت جارية لا تحمل السكان، ولم يجد الأهالي عاصمًا من الماء إلا الركوب في السفن، كما يتداوى شارب الخمر بالخمر، ومع وقوع الحريقة التي اجتثت عدة بيوت عظيمة من الأساس سنة ١٧٠٧، كان وجود القيصر كالجود، فأطفأ النار حتى صارت بردًا وسلامًا، وتلافى التلف الذي تسامى، وفي سنة ١٧٠٨، يعني بعد خمس سنين من تأسيس المدينة استحقت بتر بورغ أن تسمى مدينة أوربية، واشتغل السكان الذين أغلبهم غرباء بأجور المعاش وغيره مثل غيرهم:

واتخذ النَّاس كلهم سكنا ومثل الأرض كلها دارا

ولما رأى القيصر نتيجة غراسة، وقوة بأسه، اشتهى أن يرى ذلك لأناسه، [/٥٥ظ] فعزم أقاربه من موسقوا لرؤية مدينته الجديدة، عروس المدن التي ما رأوها بعد، وإنما سمعوا عنها، وليس الخبر كالعيان:

ولكن للعيان لطيف معنى به سأل المعاينة الكليم

وقد حصل في موسقوا إذ ذاك بعض تنقلات أوربية وتغيرات تمدنية، ولكن العوائد القديمة باقية إلى الآن عمومًا، وذهب القيصر للقاء عائلته الملكية من مسافة ٨ ڤرست، ودخل معهم بموكب عظيم في شليسيلبورغ، ومن هناك بعد خمسة أيام نزل

القيصر معهم في السُّفن التي جاؤوا فيها والمزينة بالبنديرات، وتوجهوا إلى بتربورغ ولاقاهم قبطان باشا ابركسين من مسافة ٤ ڤرست في زورق، وسلم عليهم بطلق المدافع، وعند وصول هؤلاء الفخام والكبرا العظام إلى بتربورغ، سلمت عليهم القلعة بالمدافع، ونزلوا بيت مينيشيكوف، وفرجهم القيصر على المدينة، وما فيها من الأبنية المتينة، وقادهم إلى كرونسلوت ثلاثة أيام، ومع فرح القيصر بحضورهم أشد الفرح، واعتنائه بحظهم وسرورهم ما عاقت الأشغال ولا فترت الأعمال، بل زادت الفتكات في نواحي البلاد، وحامت العقبان الكواسر على بلاد الفينلاد، فأرسل القيصر من كرونسلوت إلى بورغو على ساحل خورفينلاد القونت بوتزيس فدمَّروها، ورجع بالظفر مع وجود دنما السويد في فيبورغ، ثم رجع ذلك القونت المذكور لتخريب قرى السويد التي على جزائر بيريسوفيا وعلى نواحي فيبورغ ، فجعجع بها، لكن السويد مع هذا كانوا دائمًا عازمين على التألب والتجيش لأخذ بتر بورغ والانتقام من أعدائهم القاهرين، فأرسل شارل ١٢ سنة ١٧٠٧ الجنرال لوبيكر بعسكر جرار ١٤٠٠٠، [٥٦/و] ولما علم بطرس ترك مدينته الجديدة وذهبت عائلته إلى موسقو، وصار الناس بين الرجاء والخوف، وكثير من شون الغلال نقل إلى القلعة، وتقدم لوبيكر بوطأة عظيمة وحملة جسيمة وقطع العقبات واقتحم الصعوبات حتى تملك من ساحل النيڤا الشمالي، لكن بسعد المدينة غلط لوبيكر غلطًا عظيمًا أدى إلى هلاك جيشه حيث دخل في بلاد اينغرى المقفرة المغطاة بالغابات والمنتقعات ظانًا أن يجد القوت الكافي لعسكره، فخاب ظنه وعاد وبال غلطه عليه «خطأ الطبيب إصابة الأقدار»، ومع أنه غلب أولاً عدوه فقد وجد عدوًا قاهرًا لا يقاتل:

وأنفس خطيك الذي لا تناله وأنكى عدويك الذي لا تقاتله

وهو البرد والجوع الخارج عن العادة، المتعدي حتى إلى الضباط الذين ذبحوا الخيول وأكلوها، وهذا الجنرال لم يتقدم إلى بتر بورغ، بل توغل في بلاد اينغري المسكونة ليجد فيها قوت العسكر، لكن ما كان العود أحمد، لأن القوزاق بأمر ابركسين حرقوا هذه القرى ليسدوا على العدو طريق الخلاص، ففرّ ولات حين مناص، وأخذ الروس يقتلون السويد ويقولون لنار غضبهم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فكانت هذه المصيبة لهم فائدة قشيبة، بذا قضت الأيام ما بين أهلها، مصائب قوم عند قومٍ فوائد، ولم يكن ملجأ السويد إلا البحر الغضبان المتماوج، كثير الصواعق، ففرّ من فرّ، واختار صاعقة البحار ولا صاعقة العدو الأمرّ، لكن اختلاف الرياح أذن للروس بالإرباح، وعاق السويد عن ركوب البحر، وأرسل ابركسين خلفهم، ولحقت عساكره أورطتين من السويد لما نزلوا السفن فاستأصلوها[1]:

[٥٦/ظ]رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فكنت إذا أصابتني سهامٌ تكسَّرتِ النِّصال على النِّصالِ

وهكذا فرغت غزوة لوبيكر المهولة على بتر بورغ أولاً ثم آخرًا على السويد، فعاد كيدهم في نحرهم، وباؤوا بمكرهم، ومع أنهم أرهبوا المدينة وأضروا بها على الحقيقة، فقد جعلوها في حماية منهم حيث أيسوا من التطلع لها، ولما أحدثت هذه الحرب خراب نواحي المدينة وإحراقها، أراد القيصر أن يتلافى التلف، ويعمر هذه

(١) الأبيات منسوبة لأبي الطيب المتنبي، انظر الديوان، ص٢٥٣.

النواحي بالروس الأصلية، فاستحسن أن يقسم الأراضي، فأقطع لزوجته خمس ضياع، ولشاهزاده ولده الكسي بعض ضياع، وكذلك لشاهزاده أخته نتاليا، وأيضًا أقطع بعض الناس، وكان أكثر الناس إقطاعًا مينيشيكوف، فإنه أخذ جزءًا من أحد عشر جزءًا من بلاد اينغرى، وقسمت الروسيا أول مرة إلى ولايات ١٨ كانون الأول سنة ١٧٠٨، وجعلت بتر بورغ رأس ولاية اينغرى المشتملة على ٣٢ مدينة.

وفي سنة ١٧٠٩، لما تمكن بطرس من بلاد اينغرى أمر أن تسكن الوزراء والكبراء في بتربورغ، ومن ذلك الوقت صارت تخت المملكة، وسفراؤه أخبروا أنه بنى مدينة على البحر كل يوم تزيد، ورغبوا بكل وجه السياحين والتجار، وعقدوا التجارة مع فرانسا، وأعلموا إيطاليا أنها إذا توالت سفنها التجارية إلى بتر بورغ لا تدفع إلا نصف المكس، وأراد أن يسلك سبيلاً للتجارة داخل المملكة، وأرسل لكشف الطرق البحرية لكن ما حصل مانع فترك، وفي سنة ١٧٠٩، ٣٠ تشرين الثاني أشهر عيد نشان مارانذريا، وعملت ضيافة كبيرة عند مينيشيكوف، حضرها الوزراء والكبراء والضباط البحرية وغيرهم، وفي الليل عملت حريقة عجيبة الشكل، صُورت فيها صورة مناسبة لوقائع السنة، وفي الآخر حمالة كبيرة معلق فيها [/٥٧و] هذا النشان، وهذا اللعب سَرّ الناظرين وأعجبهم حيث إن أغلبهم ما رأى هذا النوع البديع، إذ من المعلوم أن الحريقة من الأشياء التي ما رؤيت قبل بطرس في الروسيا.

وفي ٦ كانون الأول في الترسانة بمرأى محفل عظيم من المتفرجين ابتدأ بيده بناء بارجة وسماها «پولتاڤا» بأربعة وعشرين مدفعًا.

وفي سنة ١٧١٠ أرسل هذا العنقاء ابركسين لحصار ڤيبورغ مرة ثانية؛ لأن المرة الأولى الواقعة في سنة ١٧٠٦ ما أنتجت، وذلك أن الجنرال لوبيكر لما لم يتفكر أن الروس يتعدون الحدود إلى محاصرة محله، توغل بعساكره في الفينلاد في المساكن الأحاسن، فاغتنم الروسيا هذه الفرصة وحاصروا المدينة، وكان مع ابركسين ٥٠٠٠ رجل، و١٠ مدافع بثقل ١٢ و١٣ هوان، وذهب على الجليد ١٥ آذار، ووصل إلى القلعة وتمكن من برج بواسطته قطع على المحاصرين كل وسائط الذهاب والتردد إلى داخل الفينلاد، وأطلقوا عليهم النيران، وعكسوا عليهم الأفكار حتى رأوا الأياس، لكن المحاصرين كانوا مضطرين إلى المدد من بتر بورغ، وما كان معهم بعد ذلك إلا زاد ثلاثة أيام، والجليد لا يمكن العبور عليه في ذلك الوقت الذي هو وقت التحلل، فما أشدّ فرح أبركسين حين رأى ٩ أيار المدد الذي حمل له الزاد والمدافع والجيوش، وهذا المدد من أعجب ما يحفظ في التاريخ، ويدل على التمدن النير الذي لمع في الروسيا بواسطة ركن كوكبها الثاقب، وجعلها بين أخواها في أعلى المراتب، وذلك أن القيصر لما علم احتياج التجريدة التي أرسلها للحصار أرسل في وقت تحلل النيفا ٢٥ نيسان الدننما التي قضت الشتاء في بتربورغ، وأرسل مراكب قلعية تحت إدارة كرويس، ومراكب طويلة تحت إدارة بوتزي، وفي هذه السفن ١٠٠٠٠، فتقدم في رأس الدننما ٧ فارقيطات كل واحدة فيها ٢٤ مدفعًا، وفي وسطها بنديرة [/٥٧ظ] كرويس، لكن الجليد عاق عبور الدننما وظهر استحالة الوصول إلى فيبورغ، وبطرس طلاع الثنايا، ومقتحم المنايا دائمًا يستسهل الصعب ويستهون الخطب، تفكر في استنباط طريق لإزالة وعر هذه الطريق بعد طول المعافرة وشدة المعاقرة، وانحط الأمر

على رأي القيصر أن يتقدم السفن صادمة للجليد، وكان في الرأس فارقيطة بأربعة وعشرين مدفعًا ومنجة بالبومب، ونشرت هاتان السفينتان الشِّراع وعامتا في جبال من جليد بالاصطدام، وفتحتا فيه طريق للباقي، فانظر لحرب هذا الجليد مع الجليد، ووصول هذا المدد غير الأمر وقوى الحصار، لكن القيصر أخذه القلق وذهب بنفسه في ١١ حزيران، ووصل في وقت ما عرف حاكم القلعة أنه لا يقدر على المقاومة، ووصول القيصر أعجل الأمر، وفصل النزاع، ودخلت عساكر بريا وبراژانسكي القلعة ظافرين، وأعطى لاپركسين جزاءً على ذلك نشان ماراندريا.

قلت: وقد مررت عند رجوعي من هلزن فورس على بورغو، وهي مدينة حسنة، يلوح فيها آثار العمارة، وبها سوق وتجار ومخازن ومضايف، وعلى فيبورغ وهي مدينة حصينة وقلعتها منيعة وابنيتها بديعة تشابه مباني بتربورغ، وبنحو ميل منها حديقة كبيرة تسمى «مون ربوس» للأمير نقولة، وقد قضيت في هذه الحديقة بعض ساعات أنيسة، ونظرت ما فيها من المصانع النفيسة، فمن ذلك البرج الظريف على خندق لطيف، ومن ذلك الصخور العظيمة التي فيها المغارات، وهناك حنفية ماء باردة ومنارة عالية تنظر منها المدينة وعمود منصوب على أعلى نصبه الأمير نقولة أثرًا لبعض بلدياته [٥٨/و] الفرنساوية الذين جاؤوا الروسيا، وحماهم القيصر اسكندر، وأكرم مثواهم، وفي المدنية تل من الصخر عالٍ صعدته، ورأيت فيه حجرًا كبيرًا منقوش على سطحه (....)[١]، يعني بطرس الأول؛ لأن بطرس لما وصل صعد على

(١) حرف لاتيني.

هذا الحجر ونصب خيمته، وعندما أخذ القلعة نقش اسمه، وكــلا المــدينتين الآن في حكم الروس، لأنهم دائمًا في التقدم.

وفي ڤيبورغ كحك مشهور باسمها يجلبه المسافرون إلى بتربورغ، لذيذ الطعــم، وبعض الخبَّازين في بتربورغ يقلده، ولكن شتان، فحق أن يقال له: «لقــد حكيــت ولكن فاتك الشَّنب».

وبنواحي ڤيبورغ فوّارة ايمترا، وهي فوَّارة عظيمة يتصاعد فيها الماء بقوة عظيمة، وينحدر الماء من أعلى الصخور من محل متسع كالبركة إلى مضيق بين الصــخور، لم تزل أعجوبة للمسافرين ونزهة للناظرين، وقد رأيتها فكانت صيقلاً لبصري وقــرة لنظري، وبالجملة ففي الفينلاد ينابيع وفوارات رأيت بعضها، ولكن هذه الأحســن والأعظم، و«كل الصيد في جوف الفرا»، ومن قوة الماء تتصور أحجار بصورٍ مختلفة، أحجار تبيعها الصغار مع جدها كانتيكة المصريين فيشتريها السياحون، وربما هــادوا بها، والتهادي قد يكون بالأشياء التافهة لغرابتها وندرتها، ونزلت هناك مــن ســلالم خشب عدها خمسون درجة، ومشيت بقرب الصخر حول درابــزي، ووصــلت في الآخر إلى كشك لطيف، وهناك مضيفة جديدة، ذكر لي صاحبها أنها أنشئت من مدة شهر ونصف، وهناك في الأعلى قصر صغير ومجلس، وكثير مــن النــاس الزائــرين يكتبون أسماءهم في الكشكات وتاريخ زيارتهم، وقد فعلت مثلهم.

وعلى ذكر الفوارات، فنذكر الفوارات الموجودة في بترغوف بقرب بتربــورغ، يسكن فيه القيصر وعائلته في الصيف قبل الذهاب إلى «تسارسكي ســلو»، وهــو

مشتمل على عيون كثيرة وينابيع جميلة، بعضها يخرج من أفواه الأسود المصورة وبعضها من غير ذلك، وهناك في جميع النواحي من بستانه الكبير فساقي كبيرة تجري فيها العيون، وأعلى الفوارات فوارة سمسمون أم القصر القيصري، يرتفع فيها الماء جدًّا، ويقال إنه كان يرتفع في أيام القيصرة كترين الثانية إلى حذا سقف القصر.

وفي أول تموز ذهبت هناك، وتفرجت على الوقدة التي عملت لإشهار فرح ولادة القيصرة، فما أحسنها من وقدة بين سطور الأشجار وبعضها في خلال العيون، بحيث أن الماء يجري فوق القناديل الموقودة.

وفي ٢٧ حزيران، اليوم الذي فيه أخذت پولتاڤا[1]، أديت مراسم العبادة والشكر لله، وبعد ذلك نشرت في الميدان البيارق المأخوذة من فيبورغ، وبعد ذلك أطلقت المدافع [/٥٨ظ] من القلعة والسفن، وفي المساء عُملت على النيڤا حريقة، وامتد العيد لما بعد نصف الليل، وأمر أن يُشهر هذا العيد كل عام.

وفي ٣٠ حزيران زحف الرئيس بروس على كيكسهولم، وأخذها ٨ أيلول، وبفتحها أطاعت كل مملكة كاريلي، فإقامة القيصر في بتر بورغ في سنة ١٧١٠ ما كانت إلا أعيادًا:

(١) Poltava تقع في الجنوب الغربي من مدينة خركوف Kharkov من إقليم أوكرانيا، أو إلى الجنوب الشرقي من كييف Kiev. انظر : محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ١، ص ٣١٣.

أولاً: بسبب تضاعف الفتوحات هذه السنة، فمن أول كانون الثاني قبل أخذ فيبورغ أخذ الروس البنيك، وفي ١٠ حزيران فتح شريميتيف ريڤا، وفي ٨ آب خضعت قلعة دوناموند، وكذلك پيرنو في ١٥، وفي ١٣ أيلول كان حصار ارينسبورغ، وفي ٢٩ تملك الجنرال باور من ريڤال، وعلى هذا المنوال أطاعت كل بلاد استونيا وليفونيا.

قلت: وعند ذهابي إلى بلاد الفينلاد في سفينة البخار، أرسيت على ريڤال ومكثت فيها نحو أسبوع، وهي بلد قديمة وبيوتها كالحصون بناها الشجعان في قديم الزمان، وبها كنيسة لوتيريانية قديمة جدًّا، حتى إنها أشرفت على الخراب، لكن العمارة فيها ومنارتها عالية جدًّا، صعدتها ونظرت فيها المدينة والمنظر لطيف.

وفي هذه المدينة حديقة كبيرة للتفسح تسمى «كاترين دال»، وفي هذه الحديقة بيت بناه بطرس الكبير، ورأيت فيه بعض آثاره من سفر وفرش إلى غير ذلك، وهناك قصر كبير بنته كاترين الثانية، وفي وقت عبوري كان مُعدًّا لسكنى شاه زادة قسطنطين وأخيه نقولة، ولدي القيصر الحالي.

ومن عجائب هذه المدينة التي ترغب السياحون في رؤيتها جسد الأمير دكروا، كان في زمن بطرس الكبير وخان، فغضب عليه بطرس وأمر بعدم دفنه فوضع في سرداب في الكنيسة لا في القبر، ثم وجد من نحو ثلاثين سنة [/٥٩و] متحجرًا كالمومياء، فأُبقي عبرة للناظرين، وفُرجة للمسافرين، ووُضع في دهليز الكنيسة، وقد رأيته وجسده ناشف كالجلد ولونه باهت أصفر.

وثانيًا: بسبب تزوج أمير كورلاند بنت أخت القيصر شاهزاده حنا، وذلك أن ١٤ حزيران جاءت سفراء لخطبتها، والقيصر الذي يحب التعلق بباقي الدول، كان رتب ذلك مع ملك البروسيا عمَّ الأمير، وذلك أن بطرس لما أخذ پولتاڤا وهزم عساكر شرل ١٢، ما قنع بغلبة العدو خارج بلاده، بل أراد أن يهجم عليه في نفس بلاده ليتم له ما يريد من إراحة البلاد وصلح العباد، فذهب بهذا الصدد إلى البروسيا مارًا على بلاد الليه، وطلب من الملك فريدريك المعاونة على السويد، لكن الملك لما لم ير في تلك المعاونة نفعًا لبلاده، حاول ومع ذلك ما منع مرور عسكر الروس على بلاده للهجوم على السويد، وعقد المحبة مع بطرس، وأكدها بعده أن يزوج ابن أخيه لبنت أخت القيصر، ولهذا السبب أعطى بطرس ولاية كورلاند للأمير متوارثة، ولما رجع إلى الروسيا مرَّ على مدينة كورلاند، ولما وصل الأمير بنفسه إلى ريفا أهدى له منيشيكوف حجرًا أزرقًا شفافًا عجيبًا ثمنه ٥٠٠٠٠ مجر وحصانًا تركيا، وفراء ثمينة وتحفًا أخرى، وألفي برميل دقيق، واضطر الأمير بسبب الوباء الذي خرَّب بلاد ليفونيا واستونيا أن يعمل كرنتينة قبل نارڤا.

وأمر القيصر بإعداد اللوازم لإقامته، وأرسل له خيمتين مزينتين، و ٤٠٠ فارس لحفظه و ٥٠ لحراسة الموضع الذي هو فيه، ووصله هناك أول مكتوب من خطيبته، وفي ١٥ آب دخل بتر بورغ في موكب عظيم، وقدمه بطرس إلى خطيبته وأمها وصار يراهم كل يوم، وبهذه الفرصة زادت [/٥٩ظ] الأفراح، ففي ٢٦ آب ذهب أهل القصر إلى شليسبورغ لإشهار يوم القلعة.

وفي ٩ تشرين الأول عمل منيشيكوف ليلة رقص، وفي ١٠ عمل مثله الجنرال ابركسين، وفي ١١ عمل مثله الأمير تشاركاسكي، ثم عمل قوم آخر في الأيام التابعة، وفي الآخر عمل منيشكوف ليلة رقص ثانية، ودام الرقص إلى الصبح، ومن ١٧ إلى ٢٣ صمَّم القيصر على رؤية كيكسهولهم، ولم تلهه هذه الحظوظ عن أفكاره، ولم تغتره الأفراح عن السعي إلى بلوغ أوطاره، وبعد أسبوع من رجوعه في ٣١ تشرين الأول أشهر عقد الزواج بغاية الفخر والطنطنة، وتفصيل ذلك طويل الشرح، وأمر بإعداد اللوازم المعتبرة، هذا مع أنه كان يميل للتقشف والبساطة، وبنى بطرس في هذه السنة ١٧١٠، في محل يسمى فيكتوري ـ يعني النصر ـ دير اسكندر نيفسكي، وهذا الدير كبير جدًّا، وهو في آخر الشارع المسمى نيفسكي بروسبكت.

وفي عيد اسم إسكندر كل الناس تذهب لزيارة ذلك الدير أفواجًا أفواجًا، وزيادة على القصور والأبنية في المدينة، أحدث القيصر قصورًا خارجها، فأول ذلك قصر كاتيرينغوف باسم القيصرة وأهداه لها، وهناك آثار لبطرس وكتب وساعة، وغير ذلك، كل ذلك محفوظ إبقاء لأثر هذا الرجل الفريد، وكاتيرينغوف الآن من أحسن المنتزهات فيه قصور عديدة، وفيه جنينة كبيرة، تذهب الناس إليها للتفسح خصوصًا يوم الأحد، وفي أول آيار وخامس عشرة تذهب العائلة القيصرية كل سنة، ويعد يوم مشهود، كثير الزحام والفرح؛ لأن ذلك أول إخضرار الأرض وإشراق النبات، ثم يقل الزحام بعد ذلك:

كالبدر لا يُرتاد وهو منور وتروده الأبصار وهو هلال

ثم بنى في هذه السنة أيضًا في المدينة بيت للبوصطة لتقدر الواصلون أن تنزل فيــه ولا يضيعون الزمن في [٦٠/و] تفتيش منزل، وكذلك رتب معاملاً للآجر قريبة من المدينة بحسب الإمكان لغلو الآجر بسبب بعد المسافة، ولافتراس الحريقــة المتتابعــة بيوت الخشب. وفي سنة ١٧١٢، أنزل من المنجرة بموكب عظيم، الغليون الكــبير المسمى پولتاڤا الذي ابتدئ فيه الشغل سنة ١٧٠٧، ولا زال في كل ســنة ينشــيء وينزل سفنًا عظيمة بمدافع جسيمة، خصوصًا في أيام أعياده وأعياد أهل بيته.

وقد رأيت إنزال سفينتين من المنجرة بتربورغ أحدهما باسم إسكندر ولي العهد، والثاني باسم زوجته مارية، واجتمع الجم الغفير، ولكن ما أنزلوهما إلا عند حضــور القيصر والعائلة الإمبراطورية، وذلك سنة تزوج ولي العهد، ولا تعب ولا عــلاج في إنزالهما، بل أزلقوهما مع القطع الخشب التي تسندهما تحت، فلما عامتا ذهبت هــذه القطع وعامت، وعند النزول ضربوا الموسيقى، ثم أطلقوا المدافع، وهاتان السفينتان كبيرتان، ومن مدة سنتين الشغل فيهما.

وفي سنة ١٧١٣ حاصر القيصر هلزينفورس، ثم رجــع إلى بتربــورغ، قلــت: هلزينفورس دخلت في حكم الروس في أيام القيصر إسكندر، والآن تــذهب إليهــا السياحون في الصيف لطيب هوائها وللاستحمام فيها، وقد ذهبــت إليهــا صــيفًا، ورأيت في ميناها قلعة عظيمة في الصخر مشحونة بالمدافع، وأمامها صخور، وبينهما البحر، فمدخل الميناء مشابه لبغاز الآستانة المحروسة، وأي مركب تقدر على العبــور إذا لم يكن لها إذن.

وهناك بارجة كبيرة مشحونة بالمدافع، وحين تمر السفن عليها تقف لإعطاء أوراقها، فما أحصن هذه الميناء، ومرأى البلد لطيف، وهي جديدة العمارة على كيفية بتربورغ في البناء وتوسيع الطرق، إلا أن الممشى بها قليل، ولعله يصنع بعد مدة، وفيها رصد على الصخر، وفيها مدرسة كبيرة عمومية تسمى الأونيفرسيتيت، وفيها مقعد كبير فيه طاولات التلامذة موضوعة بالتدريج أعلى فأعلى، وفي صدره صورة إسكندر الأول قيصر الروسيا وعمود مكتوب فيه اسمه، وتاريخ تأسيس هذه المدرسة سنة ١٨١٥، وجميع ما في هذه المدرسة كان في مدرسة أبو، فلما حُرقت سنة ١٨١٨، نُقل كل ذلك إليها، وذهبت في البحر لرؤية قلعتها العظيمة المسماة، سيوى بورغ، ورأيت المدافع المرصوصة من كل جهة ثلاثة أدوار، وهي من أحصن القلاع، يقال إنها تشبه قلعة جبل طارق، وبهذه القلعة صهريج كبير لحفظ الماء العذب المتجمع من الأمطار، وحوله غدران من الأمطار، وهناك منجرة ومحل للأسلحة [/٦٠ظ] كالسيوف والبنادق، وفي ميدان هلزن فورس عامود رفع تذكارًا لزيارة القيصرة اسكندرة هذه المدينة، وعليه مكتوب اسمها، وكذلك تاريخ زيارتها ٢٩ تموز سنة ١٨٣٣، فانظر لحفظهم آثار ملوكهم وتنويعهم بشأنهم.

وفي هذه السنة أمر بطرس أن كل البضائع البحرية لا ترسل إلى أرخانكيل كالسابق بل إلى بتربورغ، وفيها زين كنيسة التثليث بناقوس كبير أخذته الدننما من مدينة أبو، وكذلك عدة كتب أُخذت منها، وجُعلت أساس خزانة كتب أكديميا العلوم، وفيها ظهر أول كتاب طُبع في بتربورغ، وهو كتاب إغارة العسكر الروس على السويد، وأخذهم منهم عدة حصون وقلاع وبلاد.

وفي هذه السنة في اليوم الذي يشهر لفتح پولتاڤا وصل الجي الفرس، وجلب معه هدايا للقيصر، من جملتها سباع وأنمار وفيل عظيم وهولندرته عجب الناس، ولما مـــرَّ على استراخان تبعه الناس بعض أميال من فرط التعجب، وكان للفيل كل يوم مـــن الرز والزبيب والخمر، ونحو ذلك ١٥ رُبلا، لكن برودة الهواء ورطوبته في بتربورغ خصوصًا في ذلك الوقت قتلت هذا الحيوان العجيب، ولكن حشي بالصناعة وعُمل بعرًا وحفظ إلى الآن.

وكان قائد الفيل في العادة يقوده في الأعياد محلى ومغطى بالنفاسة عند الأعيـــان، ويصل له من ذلك مدخول عظيم، قلت: والآن في تسارسكي سلوفيل مـــن مـــدة تذهب الناس للتفرج عليه، وسفير بُخار الذي وصل هذا العام ١٨٤٩، حمل معـــه أيضا فيله، لكن ما وصل إلا في الصيف بعد موته هو في بتربورغ، لكن ما دفن فيها بل حمله أصحابه والأمراء والأعيان سلكوا مسلك القيصر، والنـــاس علـــى ديـــن ملوكهم، فبنى الأمير غغارين حاكم سيبيري بيتًا عظيمًا وبقربه بنى الأمير شـــافيروف وسترويف وزوتوف وغيرهم.

وأمر القيصر بعمل طريق مستقيم في خلال الغاب من الترسانة إلى ديـــر مـــار اسكندر نيفسكي، وهذه الطريقة الطويلة العريضة سميت نيڤسكي پروسپكت، قلت: هذا لنيفسكي أحسن شارع في بتربورغ، ولو كنت سحت الدنيا لأمكن أن أقول في الدنيا أولاً الطريق واسعة طولاً وعرضًا ووسطها [٦١/و] مـــبلط بالحجـــارة، وفي وسطها بلاليع لشرب ماء المطر، وما حول الحجارة من الطرفين مبلط بقطع الخشب

المرصوصة بحسن الترصيف، وعليها تمر العربات مسرعة كالطير لسهولتها. وحول الخشب المماشي العريضة المبلطة بالحجر الصوان لمشي الناس، وفي هذا الشارع المخازن اللطيفة والتحفجية والكتبية والحلوجية والقهوجية والخياطون، لكن لا تظن أن ذلك كما في بلادنا، بل كل ذلك في غاية الإتقان والإحكام والفخر.

وعادة الكبار التفسح في نيفسكي قبل الغداء خريفًا وشتاءً، فهو ملتقى الأحباب ومجمع الأصحاب، ومأوى الحسان ومرتع الغزلان، وفي وسطه خزانة الكتب القيصرية المحتوية على الكتب من كل جنس حتى من كتبنا، وفيها جملة من كتب موقوفة أخذت في حرب أردبيل[1]، وقد نظرت هذه البنية العظيمة، وحسن وضعها وترتيب محال الكتب، ويجوز لكل من يريد المطالعة فيها، أو الكتابة منها الذهاب إلى هذه الخزانة، إلا أنه لا يباح نقل الكتب إلى محل آخر إلا بإذن خاص، وكم رأيت هناك زيادة على الأوربيين فرس وقرم وترك يجيئون لنقل بعض الكتب أو قراءتها.

وفيه أيضا التياتر الإسكندري وأمامه فسحة ظريفة وحدقة لطيفة، وفيه أيضًا السوق الكبير غوستولي دڤور، وهو بنية عظيمة، مربعة الشكل، يباع فيه كل شيء، وفيه أيضًا بنية عظيمة أُحدثت منذ سنتين وسقفها منير، وفي وسطها معبر لجميع الناس محتوية على فخّارة غالية، فلذلك تسمى الباج يعني المعبر، وبالجملة ففيه ما فيه مما لا أقدر أن أفيه.

(١) من أشهر مدن أذربيجان. ياقوت الحموي، ج١، ص ١٤٥.

ثم عمل القيصر فبريق شمع في ناحية فيبورغ، وسوقًا في جزيرة بتر بـــورغ، وأراد أن السفن المتجرية ترسي عند السوق، ووصلت مركب تجارة من هولاند في الصيف، وهي ثاني مركب وصلت بعد تأسيس المدينة وسيّرها القيصر بنفسه مثل المـــلاح إلى الجزيرة، وضرب صفيحة عليها نقش صورة القيصر لتذكار فاتحة التجارة الخارجية.

وفي سنة ١٧١٤ ذهب القيصر إلى ريڤال لتأسيس الميناء، وأخذت بيارق ومدافع من قلاع السويد، وجلبت إلى بتربورغ، ونقلت المحاكم من موسقو إليهـــا، وأمـــر القيصر بإحصاء بيوت بتربورغ، فوجدت ٣٤٥٥، ووفد [/٦١ظ] عليـــه ســـفير حاجي محمد بهادر خان أزبك، ثم سافر القيصر إلى كرونشتاد، وأطلقت المدافع مـــن القلعة، وتبعه ٣٠٠ سفينة، وكرونشتاد مرسى السفن الكبيرة ومقام الدننما الروسية وميناها حصينة جدًّا، بحيث لا يمكن لسفينة العبور إلا بالإذن، وكم فيها من ســـفن وبوارج بعضها من أربعة أدوار كبار راسية كالجبال الراسية بمائة وعشـــرين مـــدفعًا وأكثر، وهناك مدافع مرصوصة.

وقد دخلت المدينة من البغاز بعد أن أجازوا الجواز، فوجدت أبنيتـــها كأبنيـــة ضواحي بتربورغ، وبها كثير من بيوت النظام والبحرية، وبها ترسخانة أمامها فسحة كبيرة في وسطها صورة بطرس الكبير فاتح البلد واقفًا على عمود وبيـــده ســـيف، وهذه الصورة مصنوعة في سنة ١٨٤١، وهي محتشمة جدًّا وبها جنينة كبيرة تســـمى «جنينة الصيف» لطيفة المنظر، فيها كشكات لطيفة، وفيها منظر عال، أمامه عمـــود

أخضر عليه صورة رأس بطرس الكبير بتاريخ ١٧٠٣، وصعدت هذا المنظر، فرأيت منه البحر والسفن، وكان بطرس ينظر من هذا المنظر السفن الواردة.

وفي الجنينة فسقيتان كبيرتان مربعتان، في وسط كل زورق صغير جدًّا في غاية الظرافة بصاري لطيف، وهناك خليج مرصف لتعمير السفن تنزل فيه السفن المراد تعميرها، ثم يوضع حاجزان من الطرفين، ثم يخرج الماء بالتو تعمر المركب، وحين تتم العمارة يرسل الماء وتطلق السفينة تجري إلى البحر، وفي اليوم التالي سافرت السفراء، ومن جملتهم سفير الخان وأعضاء المحكمة في سفينة، فأما القيصر فوصل بلا عائق، وكذلك السفن التي تبعته، وأما سفينة السُّفراء وأعضاء المحكمة فمكثت ثلاثة أيام بلياليها، بسبب شدة الريح الشرقي وغشومية الريس والمستعمل، ولبّخت في الخوض وتعورت.

وفي اليوم الثالث تضاعفت الصاعقة وأنذرت بالهلاك، وفي اليوم الرابع خلصت من الخوض بواسطة سفينة أخرى أرسلها القيصر لإعانتها، ووصلت إلى كرونشتاد، ومن العجائب أنها ما غرقت بالكلية، وبهذا الغرق مات بعض الناس، ومنهم الجي الخان الذي وجد نفسه أول مرة في البحر، فبعد الجزع والفزع والهلع، قَنِط وتغطى ورَقَد على المطوبة، أي سطح المركب ينتظر الموت، وأمر الملأ الذي معه أن يدعو الله، وأن يقرأ عليه آيات من القرآن.

وفيها أمَرَ القيصر الحريص على زيادة عدد أهالي مدينته وتحسينها بأن يأتي إليها من موسقو وغيرها ٣٥٠ عائلة من الأعيان، كل يملك أقلاً مئة نفس، ليبنوا لهم بيوتًا

في الحال التي تعطيها لهم المملكة، وأمر الأغنياء والملتزمين والتجار ونحوهم ببناء ٣٠٠ أخرى، وهذا الأمر ما أعجب كثيرًا من المأمورين، خصوصًا البيار يعني الملتزمين الذي اضطروا إلى ترك موسقو وطنهم العزيز، وسكنى بلد جديدة بالكلية ليست مخصبة، كما قالوا إلا بالدموع والمنتقعات، وقولهم هذا أذكرني قولي سابقا:

أمـرّ علـى ربعهـم مـا حـلا فأرجع من دمع عـيني خصـيبا

[٦٢/و]فوا عجبًا لبحـار الـدموع وما اطفأت من فـؤادي لهيبـا

لكن بطرس لم يتفكر إلا في عاقبة وطنه السعيدة، واستبدل الراحة الجزئية براحة العموم، وما فكر في راحة نفسه، بل خاطر بها دائمًا في المعارك، فذهب وحارب وأسر قبطان السويد إيرننشليد مجروحًا بعد ساعتين من حرب خطرة سفاكة ، وسطوات فتاكة، وقتل من ٩٤٠ من السويد ٣٥٢، وأسر الباقون، وقتل من الروس ١٢٤ وجُرح ٣٤٢، وأخذ هانكوت وجزائر الأند، ودخلت الروس آبو بلا عائق.

وحينئذ كتب القيصر إلى مينشيكوف يخبره بذلك الفتح، ويقول حقيقة إن في هذه الحرب كما في حرب المعاقدين ضد فرانسا حبس جم غفير من جنرالات وفيلد ماريشالات، لكن ما أصيب بهذه القارعة ولا رئيس دننما، فنخبرك حينئذ بنصر مبين ما كان له نظير إلى هذا الوقت، وأخذ عدة أماكن في هذه السِّنة من الفينلاند، منها مدينة فازا وقلعة نيسلوت، وبتملكها تمت إطاعة الفينلاند، ثم رجع إلى مدينته ظافرًا، ودخل بموكب عظيم بعدما عاقه الريح ثلاثة أيام عند كترينغوف، فلو كانت سفن البخار في زمنه ما كان انتظر ساعة، وكانت دبَّرت عليه الأوقاف، فما كان يفعل إذ

ذاك، وبسبب هذا الظفر انتقل القيصر من رتبة الرئيس إلى رتبة نائب قبطان، وهُنِئ بذلك، وحصل له السُّرور بالظفر والاستحقاق الذاتي، فذهب إلى وسيلي استروف في قصر إشراقة منيشكوف للضيافة العظيمة التي عملها، وكان من جملة الحاضرين قبطان السويد إيرنسشليد، فقال القيصر للحاضرين مشيرًا إلى القبطان، أنتم تنظرون بين أيديكم شجاعًا خادمًا أمينًا لملكه مستحقًا ليس فقط لإكرام شارل، لكن أيضًا لإكرامي، ومع أنه [/٦٢ظ] قتل من رعيتي كثيرًا من الشجعان، لكن ما فعل في ذلك إلا الواجب عليه، ويقدر أن يتحقق أن رعايتي له لا تنقص أبدًا، فعند ذلك قام القبطان ورقَّ قلبه، وبعدما شكر القيصر وعمل له التمني أجاب، وقال: أنا ما فعلت إلا ما اقتضاه الواجب، وإن لم أُلاقِ الموت الذي طلبته في معارك الحروب، فمما يسلبني الفكر بأن غالبي ضابط بحري متميز هكذا مثل أبهة القيصر، وإنني سعدت بالتماس أمانة وعفوه وإقرار بطرس الصادق للخصم، ضاعف مقامه في اعتبار الناس:

وما عبَّر الإنسان عن فضل نفسه ... بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

ويناسب أن تذكر هنا خطبة بطرس التي قالها بعد ذلك الظفر بمدة قليلة لما أنها تجلب العناية، وذلك يوم إنزال الغليون المسمى شليسلبورغ في الترسانة **٢٨** تشرين أول، وهذا الغليون ابتدأته اليد التي تعرف القيادة بغاية الإصابة العقلية العليا، وقادوم الباني تاج ملوك الدنيا، قال للسامعين: «يا إخوتي، من كان يقدر منكم من مدة عشرين سنة أن يتصور أن هنا على ساحل بحر بلطيق أن نغلب أعداءنا في دننما بنيناها بأيدينا، وأن نسكن في هذه الأمكنة التي كسبناها باجتهادنا وشجاعتنا، هل

كنتم تظنون أن في قليل من الزمن تشاهدون جمًّا غفيرًا من العسكر والنواتية شجعانًا مجربين من طينة الروس، ومدينة مسكونة ليست فقط بالأهالي المولودة في الروسيا، بل بالمحترفين والأسطاوات والتجار والعلماء والغرباء الذين جاؤوا توطنوا بيننا، هل كنتم تظنون أن نعلم إلى هذا الحد أن نكسب تعظيم الأمم المنورة، المؤرخون نسبوا إلى الروم الشرف [/٦٣و] بأنهم كانوا مهد العلوم، لكن لما أجلاهم القضاء من بلادهم التجأوا إلى إيطاليا، ومنها انتشروا في كل الأوروبا، ودخلوا الليه وما وصلوا إلينا قط، بسبب جهل آبائنا، فبالنتيجة بقينا غارقين في ظلمة الجهل الذي كان غرق فيه الجرمانيا والليه قبل ظهور العلوم فيهم، وبواسطة اعتناءات الملوك العقلاء لهذين القطرين ما عوقوا في التمدن، وتصدوا بنفسهم إلى نشر هذه العلوم التي الفضل فيها للروم بسبب القدم، وفي الآخر جاءت نوبتنا، والتمدن في هذا الوقت، وما بعد لا يجد عائقًا في وطننا بشرط أن تعاونوا مقاصدي بالخلوص والقبول وأن تقرنوا الاجتهاد والصبر بالطاعة والإذعان، وأنا أشبه تزايد العلوم بسريان الدم في جسم الإنسان، وأرجوا أنها تمكث عندنا، وأنها تتقوى لتعود في الآخر إلى بلاد الروم وطنها القديم، وآكاشف أن الروس يخجلون الأمم المتمدنة يوما، ويمكن في أيام حياتنا بتقدمهم في العلوم وحميتهم التي لا تنطفئ التي بواسطتها يستمرون على أشغالهم الشريفة ويرسمون أسمهم على قمة المجد المنيفة».

وهذه الخطبة التي أوحتها نفسه الكريمة الكبيرة سُمعت بغاية الإنصات الديني، وسببت حمية عمومية بين الحاضرين، ومن كان منهم يعترض على الملك لم يقدر أن ينكر حقية كلامه وعظم مقاصده ونفعها.

وفي ٢٤ تشرين الثاني من هذه السنة يوم عيد القيصرة، أحدث القيصر تشريفًا للقيصرة نشان كترين شكرًا لها على أفعالها الجميلة للقيصر وللمملكة، وذلك أنها أنفقت لسلامة القيصر والعسكر الروس كلما كانت تملك من الجواهر، وأنها استمالت الصدر الأعظم حتى أذن للروس بمجاوزة حدودهم، ولهذا سمي ذلك النشان «نشان التخليص»، ومن حيث إن هذا النشان على اسمها، كانت أول من تقلد بحمالته، [٦٣/ظ] ثم بعدها شاهزاده حنة بتروڤنا بنت القيصر لإشهار تزوجها، ثم تنقل القيصر إلى رتبة ساري عسكر، ثم قرت عينه برؤية رهائن الروس من إسلامبول.

وفي هذه السَّنة كتب فرمانًا ٦ تشرين أول بعقاب النفي، وأخذ الأموال للخزنة لكل شخص بنى في غير بتربورغ إلى وقت معين بيوت حجر، وهذا الفرمان ألجأ إليه حب القيصر لزيادة بلده المنشأة، وفي ٢٤ تشرين أول، فرمانًا آخر أمر فيه أن كل سفينة تأتي إلى بتربورغ لابد أن تحمل معها عددًا من الحجارة، بعضها ثلاثين وبعضها عشرين، وبعضها عشرة بحسب كبرها وصغرها، وكل عربة بضاعة أو أمتعة تحمل ثلاثة أحجار، والحجارة الآتية في المراكب لا بد أن تزن أقلاً عشرة أرطال، والآتية في العربات لابد أن تزن خمسة، ومن خالف الفرمان فعليه الغرامة عشرة كبيكات لكل حجر.

وفي ٦ تشرين الثاني فرمانًا، آخر أمر فيه أنه لا أحد يسكن عنده شخصًا إلا بضمان أو أوراق الشهادة، وهذا بسبب كثرة اللصوص والمعاكيس الذين عاثوا في المدينة.

وفي ٩ تشرين الثاني، فرمانًا آخر أمر فيه أن يرسل من الأخطاط سبعة وثلاثين رجلاً من أهل الخبرة المجربين لأجل الجمرك وتفتيش المراكب، وبنى زيادة على الكنائس والبيوت التي أحدثت هذه السنة بيت لكونسلارية المملكة في غاية الترتيب، وحسب من جملة المستخدمين فيها تراجمة لستة عشر لسانًا وهي الروسي والليهي واللاطيني والنيمساوي والفرنساوي والإنكليزي والهولاندي والدانيمارقي والإيطالياني والإسبانيولي والرمي والتركي والتاتاري والصيني والمنغولي والكلموكي.

وفي سنة ١٧١٥ اعتنى القيصر بتحسين المدينة، واستعجال الأشغال الدائرة في عشرين موضعًا، وكان يلاحظها كلها بنفسه، فكان يروح من كرونسلوت [/٦٤و] إلى بترغوف، ومن هناك إلى كراسني سلو. . إلخ.

وفي أول هذه السَّنة أشهر عرس الأمير زوتوف، وكان عمره ٨٤ سنة، وتزوج بعازبة عمرها ٣٤ سنة، وعمل مسخرات[١]، وأمور مضحكة مناسبة لذلك الوقت، وحضرت القيصرة وأتباعها والعائلة الملكية ونساء القصر في كسم[٢] غريب، وعقد

(١) كتب فوقها المصنف: رقص.

(٢) أي: ظهر بمظهر لائق. راجع: رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ط١، ج٩، (ترجمة: جمال الخياط)، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٩، ص ٨٨.

العقد قسيس عمره ٩٠ سنة، وقدم الخمر اختيارية لا يمشون إلا بغاية العسر، وقصد القيصر من ذلك فكة سكان مدينته بمناظر عجيبة بين الأشغال الشاقة.

وفيها أرسل القيصر سفيرا إلى بلاد الفرس لعقد التجارة، وفيها طلب قيصر الصين من الأمير غاغارين حاكم سيبري حكيمًا، ومعه كل العقاقير والأشياء اللازمة لصناعته، وغاغارين لما استعجل بإخبار القيصر، اغتنم القيصر هذه الفرصة لعقد المحبة، وأرسل له طبيبًا إنكليزيًا كان في عسكره وأصحبه بمهندس.

وفيها ١٢ آب، وُلد للقيصر حفيد، وسمي على اسمه بطرسًا، وأشهر فرح الولادة أسبوعًا، وأرسل القيصر إعلامات بذلك للغائبين عن المدينة، فكتب إلى شيريميتوف ما نصّه: «أخبرك أن الله أعطاني هذه الليلة عسكريًا شابًا اسمه كأسمي، وأترجاك أن تخبر بهذا الخبر الجنرالات والضباط، ومن طرفي إلى كبار الناس وصغارهم».

وكتب مثل هذا إلى ڤون هوفت، غير أنه قال: نواتيًا شابًا وزاد، ولما كتب إلى صولتيكوف: « أرجو الله أن أراه يومًا تحت البندقية».

وفيها أسست أكديميا الملاحة وتلامذتها ٣٠٠ من الأعيان، ومع أن القيصر سافر سنتين لرؤية البلاد الغريبة فنفسه حاضر، فلم تنقص الأشغال، وسفره ما كان إلا لنفع وطنه، فإنه لما رأى نظام البلاد وبدائعها وحسن التمدن فيها، وتقدم العلوم ومنافعها [٦٤/ظ] أحَبَ أن يقلد ذلك في وطنه ورعيته كما تراه في أخباره.

ومن جملة ما أسس من جديد قاعة التاريخ الطبيعي المزينة بجملة عظيمة من الحيوانات والطيور والأسماك، والحيوانات التي تعيش في البر والبحر والحشرات، وغير

ذلك من أشياء الصناعة، اشترى القيصر البعض من الأجزاء؛ شيئا بقيمة ١٥٠٠٠ مجر، والبعض اكتسب من هولاند في سنة ١٦٩٧، وبقي في موسقو، وفي هذه السنة ١٧١٦، كل هذه الأشياء جمعت في بيت كيكين، وضم إليها جملة من الأحجار المعدنية، ومن الودع اشتريت من العالم غوتفالد، وكتب عظيمة جلبها مينيشيكوف من كورلاند سنة ١٧١٤.

وبعد سنة ضم أيضًا جملة كثيرة من هذا النوع كانت عند روش معلم القيصر التشريح، وبعد موته اشتراها القيصر من ورثته، ثم نقل ذلك إلى وسيلي اوستروف في المحل المسمى «كونست كامير» الموجودة فيه إلى الآن والمزدادة كل أوان، وهذا المحل قصر كبير محتو على عدة أوضات واسعة توجد فيها كل أصناف الحيوانات والطيور والعصافير والحشرات والأسماك والمعادن والودع والملابس وغير ذلك، وفي كل سنة في الربيع تفتح لتفرُّج العامة فتذهب الناس أفواجًا لرؤية هذه العجائب ومشاهدة هذه الغرائب.

وفي سنة ١٧١٧، حفر أربعة خلجان، ورجع فيها القيصر من فرانسا، وعرض عليه السويد إرسال وزراء مختارة من الروس والسويد في جزيرة الأند، لعقد الصلح الدائم بين الدولتين، فأرسل القيصر بالسرعة القونت بروس.

وفيها بنيت بالحجر كنيسة إسحاق التي كانت من خشب، وعمل لها قبة طولها اثنى عشر باعًا، وناقوس أحضر لأجله القيصر من أمستردام ساعة كبيرة دقاقة بقيمة ٣٥٠٠٠ رُبل، لكن خربتها الصاعقة سنة ١٧٣٥.

وفيها أهديت للقيصر كرة سماوية كبيرة جدًّا بحيث تكلفت مبلغًا جسيمًا في نقلها برًا من كيل إلى بتربورغ أهداها له دوقة شليسفيل هولستين [/٦٥و] لما عرف بشغفه بالعلوم، وفيها ابتدئ في بيت لعب التياتر بمعونة شاهزاده نتاليا الكسييفنا.

وفي سنة ١٧١٨ قضية ابن القيصر شاهزاده اليكسي القاضية، وذلك أن سلوكه المنحل ومعاندته لأبيه وعدم استحسانه لأفعاله، وهربه خارج الروسيا، كل ذلك أغضب القيصر حتى هدده بحرمانه من إرث التخت، لكن لم يفصل ذلك الأمر بسبب أنه كان ابنه المتوحد، لكن لما ولد بطرس الثاني وَلَد الكسي أراد القيصر أن يفرغ وسعه في تذليل الجموح، وكان كل ذلك بلا طائل:

إذا أظهر الدهر شخصًا لبيبًا   فكن في ابنه سيَّءَ الاعتقاد

فلست ترى من نجيب نجيبًا   وهل تلد النار غير الرماد

ثم لما لم تنجح الوسائط اضطر إلى تهديده بالموت كالباغي، لكنه لما سمع ذلك أخذه الفزغ، وملك قلبه الهلع، ووقع في حالة الغرغرة، وبلغت الروح الحنجرة، ولم تنفع اجتهادات الأطباء، ولا تسلية الأحباء المحققين له عفو والده، بل ولا رقة بطرس عليه في هذه الحالة، حتى كأنه نسي عيوبه وأفعاله[1]: [الكامل]

وإذا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أظفارها   ألفَيْتَ كُلَّ تميمة لا تنفعُ

(١)البيت للشاعر خويلد بن خالد بن محرز بن زبيد بن أسد، المعروف بأبي ذؤيب الهذلي، توفي في خلافة عثمان بن عفان ﷺ، وانظر البيت في الديوان، تحقيق: أحمد الشال، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، بورسعيد، ط١، ٢٠١٤، ص٤٩.

وفيها أمر بإحداث ضابط سياسي للمدينة، وترتيب كونسلارية السياسة، قواعدها منحصرة في ١٣ نوعًا:

١- الأبنية بحسب الأصول المقررة قبل.

٢- إحكام شواطئ الأنهار والخلجان وحفظها.

٣- السرقة.

٤- النظافة وتعيين الأماكن لبناء القوارب المعينة لتجار الوقود.

٥- النظر في صفة البضائع المعروضة للبيع وثمنها وذرعها ووزنها.

٦- رعاية النظافة أمام البيوت المسكونة وسوق السمك وحفظ القناطر.

[٦٥/ظ] ٧- فصل الخصومات والمنازعات بالسرعة.

٨- النظر في مداخن البيوت والأقمنة والمستوقدات.

٩- النظر في البيوت المتهمة والألعاب المحرمة.

١٠- إمساك المتسحبين والهربانين والبطالين.

١١- إلزام كل السكان أن ينهوا إلى السياسة كل الأشخاص التي تصل أو تسكن عندهم.

١٢- الاعتناء بإمساك المؤذين وإطفاء الحريقة، ووضع حاجز في طرف كل حارة، وإبقائه طول الليل.

١٣- الاعتناء بنصب مشدّات في المدينة وأون باشوات لحفظ السكون والترتيب العام.

وزاد القيصر بخط يده على هذه الأنواع.

١٤- إسكان النظام في بيوت الناس أيًّا كانوا كبارًا أو صغارًا.

قلت: هذه الأمور كلها مراعاة الآن بغاية الإحكام وألف شيء آخر، فالأبنية في غاية الإتقان، يبني البيت الكبير بأربع أدوار أو خمسة في أقل زمن، وشواطئ الأنهار والخلجان مرصفة أحسن الترصيف، ولهم في كشف السرقة تفتيش حصيف، ولا تنفع عندهم حيلة السارق الظريف، والنظافة مراعاة، ففي الخريف والصيف، يكنس الطرق وتوصيل ماء المطر إلى البالوعات وإزالة الوحل والقاذورات، وتجديد قطع الخشب أو الأحجار التي خلخلها العربات، وتثبيتها الخشب بالزفت والأحجار بالرمل، وفي الشتاء والربيع بكنس الثلج، وتنظيف المماشي (....)[١]، وربما توالى الثلج، فكلما سكن نظفوا، وإذا جمد حكّوه بالحديد، ثم رشوا عليه الرمل وكنسوه.

فدائمًا يمكن التفسح بسهولة، وأمّا طرق العربات التي في الوسط فلا تنظف إلاّ في آخر الشتاء، وكذلك الأسطحة قبل أن تحلل شمس الربيع ذلك، فيكون البلل والوحل، وأما شمس الشتاء فلا تحلل الثلج بل الصحو والنشف غالبًا عند شدة البرد، فكأنها تبرد كما قيل[٢]: [السريع]

يـومٌ تَـوَدُّ الشـمسُ في بردِهـا ... أن أتـت النـار إلى قُرْصِـها

---

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) منسوب للشاعر علي بن يوسف بن شيبان، جلال الدين النُّميري المعروف بابن الصفار توفي سنة ٦٥٨هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج١٤، ص٨٨٦. والصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٢٢، ص ٢١٦؛ والبيت في المصدر السابق، ج٢٢، ص ٣٤٨.

وكذلك القناطر في غاية المتانة والظرافة، وإذا حصل أدنى خلل أصلح في الحال، وأمَّا المداخن، ففي كل أسبوع يأتي الهبابون لتنظيفها لما أنها مظن الحريقة، وهناك محال يرصد منها الحريقة، فحينئذ يولع فانوس لإعلام الناس، وتأتي المطفئون بالطرنبات وغيرها من آلات الإطفاء وأمرهم في ذلك عجيب، والقلقات والخفراء في كل حارة، ومن سكن في محل فلابد من التعليم على تذكرة مروره، ولكل أحد تذكرة يغيرها في الغالب كل سنة، ويدفع شيئًا مخصوصًا، ولكل بيت بواب أو أكثر بحسب صغر البيوت وكبرها، ويمشون أمام البيوت في الليل بعصى يخبطونها على الأرض، وفي البيوت الميرية حراس وديدبانات، وللأقوات سعر مخصوص من طرف الضابط يكتب في الجرنالات لتعرفه العامة، ومن طفف في الكيل أو الوزن فعليه الغرامة، والمجرمون يقادون في السلاسل، ويعاقبون على حسب جريمتهم، إلى غير ذلك من أنواع السياسة الدقيقة الباعثة على الراحة العامة، والسادَّة على المؤذين كل طريقة.

وبعد ما رتب القيصر السياسة، شرع في الأمور المسلية للعامة والخاصة الذين يرتاحون إليها بعد التعب، وينسابون إليها من كل حدب، كي تنشطهم وتلين طبائعهم وتفتق أذهانهم للحكمة، ثم بعد هذه الملهيات تفكر أنه بقي عليه أيضًا تقريب الأعيان المفترقين بسبب الأوهام الموجودة، وذلك بأن يستميلهم للذات اللطيفة التي ما عرفتها الروس، بل ولا تصورتها قبله، وبأن يسهل التعلقات بين النوعين الذكور والإناث، وليس إلا في أيام القيصر الكسي ميخايلوفيج أن النساء ابتدأت في تحلية الجمعيات، وأطلق لهن العنان قليلاً في الروسيا، لكن كان ذلك معارضًا بحجر الآباء

والأزواج، فكنَّ يعشن في الحَزْن بلا رجاء ولا حظ ولا مَيل بسبب حجرهن في البيوت.

فلم يبوح[/٦٦و] لهن إلا التأوه والملل والإطاعة الكاملة لأوامر الظالم البيتي التي هي في الغالب هوائية، والإرادات التي هي تارة عنادية، لم تغير شيئًا من معيشتهن بالسكون والهدوء والصلاح، حتى لو صدرت من الطاعن في السن الذي شابت ناصيته، فكان يكفي في ضياع صيت امرأة شابة من الأكابر أن تخاطب رجلاً ولو بكلمة، وإن صدر هذا الذنب المدَّعى من امرأة متزوجة حرمت في الحال من رضى زوجها، فعلى هذا يمكن أن تقيس ما يقال، وما يظن فيمن تعطي يدها لأول واصل وتتحدث معه، وتمشي معه متفسحة في حضرة جمعية عظيمة، وهذه الحالة المهابة بين الجنسين التي لا تتحد مع أنوار العلوم والتمدن المبتدأ بين أكابر الجمعية بُسقت، وانكشفت بالتدريج رغمًا عن اجتهادات القيصر، وعاقت أيضًا تحصيل مقاصده، لكنه عزم على اجتثاث هذا الوهم، ولأجل ذلك كتب ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧١٨، فرمانًا لترتيب الجمعيات المجهولة إلى ذلك الوقت التي فيها يحضر الرجال والنساء سواء، وبيان ذلك كما كتب في الإعلام أن الجمعية تكون في بيت أيا كان بلا تضييق، فتأتي الناس ليس فقط من شان الحظ، بل من شان أشغالهم أيضًا؛ لأن كل واحد يجيء هناك يرى الأشخاص الذين يحتاج أن يكلمهم في الأشغال، ويتعلم منهم الأخبار الواقعة، فقصارى الأمر أن الناس تذهب هناك للتسلي، وقبل استعمال هذه الجمعيات عمل القيصر قوانين لترتيبها وها هي:

* إذا أراد شخص أن يعمل جمعية، لا بد أن يعرف الأشخاص الذين يجيئون رجالاً أو نساءً بواسطة الكتابة أو غيرها محل الجمعية وأن يجيئوا إن يريدوا.

* [٦٦/ظ] الجمعية لا تبتدىء قبل أربع ساعات أو خمسة بعد الظهر، ولا تمتد بعد الساعة عشرة.

* صاحب البيت ليس مضطرًا إلى ملاقاة المعزومين ولا توصيلهم ولا تحيتهم ومؤانستهم، بل يقدر أن يغيب بلا لوم في وقت الجمعية بشرط أن يهيئ ذلك الأوض بالسُّفَر والنور اللازمين والمشروبات لمن يطلبها، وأن يضع على سفر مخصوصة ما يلعب به كالورق.

* لا تُعين السَّاعات بل الضيوف يقدرون أن يجيئوا في أي ساعة شاءُوا بشرط أن لا يكون قبل ٤ ساعات ولا بعد ١٠.

* يمكن التفسح واللعب في الجمعية بلا مضايقة ولا إضرار لآخر، ويمنع من القيام عند ذهاب بعض أي كان، ومن توصيله إلى الباب، أو فعل التكلف والرسم، وفاعل ذلك يعاقب بالنسر الكبير، وذلك أنه يلزم أن يشرب كأسًا كبيرًا عليه نسر، ولا يقبل الاعتذار، فبمجرد الإثم يصب الآثم ويحتسي فقط، يلزم الاقتصار عند الدخول على توطئة الرأس قليلاً للسلام على الجماعة.

* يعين كل أنواع الناس الذين يترددون في الجمعيات وهم كبراء العساكر والأعيان وأصحاب الخدم الشريفة كلهم مع زوجاتهم.

* الخَدَمة والقوّاسة لا يدخلون داخل الأوض، لكن يمكثون في المدخل أو في محل آخر يعينه لهم صاحب البيت، وهذه الشروط ملاحظة في المضايف ونحوها إن أعطي فيها رقص أو ضيافة.

* الرقص في أوضة، وفي أخرى يُلعب الورق أو الضامة أو الشطرنج، وفي ثالثة يشرب الدخان والسجار، وفيها سفرات عليها الخمر [٦٧/و] والدخان والكبريت...إلخ، والقيصر كان يحب لعب الضامة، وكان ماهرًا فيها بحيث يندر من يغلبه.

وأول الجمعيات كان عند ابركسين، ثم عند الأمراء، ثم عند أهل الاعتبار، وفي يوم الجمعية يحضر رئيس السياسة ويكتب أسامي الواصلين، ويجيء القيصر في الساعة ٦ مع القيصرة، وباقي العائلة الملكية، ويفتتح الرقص بالرقص الليهي ثم الإنكليزي، وضباط السويد كانوا متميزين في الرقص حتى أنهم زمانًا طويلاً أعطوا دروس رقص لنساء الروس ورجالهم، وفي وسط أدوار الرقص يحضر للستات الشاي والقهوة وشراب العسل وغير ذلك، وبعد ذلك كانت العادة بإحضار الشوكولات وشراب الليمون، وذلك أن دوقة هولستين فعل ذلك أولاً فأتبعه الناس، وهذا الدوقة أول من أظهر لكبراء بتربورغ حسن الموسيقى، وعنده نوبة أحضرها من بيچ، وما كان سمع إلى ذلك الوقت في الرقص إلا أصوات الطرنبيطة المصمتة والبوق ونحو ذلك، وكان ذلك حسنًا لفقد الأحسن.

وفي الصيف كان القيصر يعطي الجمعيات في جنينة الصيف التي أنشأها على الذوق الهولاندي من عدة خطوط مستقيمة، وفيها حفر القيصر خليجًا بين النيڤا وڤولكوف دفعًا لخطر الغلال ونحوها إذا أُحضرت من طريق آخر.

وفيها أنشأ عدة مدارس منها مدرسة الأشغال المتعلقة بالبلاد الغريبة، ومنها مدرسة الحرب، وأحدث البوسطة على الخيل، وكرخانة الورق في دويدوف، وفبريقة بُسط وأقمشة من الحرير والصوف والمقصب، ومعملاً للغزل فيه يشتغل ٨٠ امرأة فقراء وعجائز تحت نظارة امرأة من هولاند.

وهذا الغزل قوي ورفيع لا ينقص عن غزل هولاند، فأنت ترى كيف حوت المدينة في هذه السنة زيادة على الأمور اللازمة النافعة أصناف الفنون والحكم وأنواع الترفه والنعم.

سنة ١٧١٩ [/٦٧ظ] فيها أرسل القيصر رجلين عارفين، لكشف شبه الجزيرة «كامشاتا» التي تدفع الخراج للروسيا من سنة ١٧٠١، ونعتها بالتفصيل، ولمعرفة هل آسيا ملتصقة بالأمريقا بلسان الأرض. وأرحَلَ آخر لمعرفة سواحل بحر كيلان بين استراخان واستراباد.

وفيها أمر في شهر آذار أن يكون أوَّل نيسان كوميديا عجيبة، فأهطع النَّاس زرافات[1] ووحدانا لرؤية اللعب، لكن بدل الكومديا رأوا لوح خشب مكتوب عليه بحروف كبيرة «هذا اليوم أول نيسان»، ففهموا وسروا بمباسطة القيصر معهم، كما

(١) أي: الجماعة من الناس: انظر: المعجم الوسيط، مصدر سابق، ص ٣٩٢.

ياسط الأب أولاده، وذلك أن العادة في هذه البلاد أن يلعبوا لعبًا في شهر نيسان يسمى «سمك نيسان»، وذلك أن يخدع شخص آخر مثل يَدَسْ عندنا، وفي السنة السابقة فعل القيصر هذا اللعب بنوعٍ آخر، وذلك أنه ذهب أول نيسان إلى بيت خشب قديم منفرد، وأمر بإحراقه فسارع الناس والعساكر بآلات الإطفاء، فسُرَّ باجتهادهم وغيرهم، وقال للجماعة مبتسمًا منبسطًا: هذا أول نيسان، ثم وضع لهم براميل خمر وبوزة لإزالة فزعهم، واجتثاث هلعهم، وفيها غنموا من السويد ٣ سفن حربية، فشكر القيصر الله وصلى في كنيسة القلعة، وضُربت صفيحة لتذكار هذا الفتح.

وفيها كمّل بناء تساركي سلو وابتداؤها في سنة ١٧١٠، ولم تزل تزداد بالسكان الآتية من النواحي ومن موسقو، ومن حيث إنها إقطاع القيصرة كترين عملت لها طريقًا عريضة، وبنت فيها قصرًا بغير علم القيصرة، وعندما تمّ عرضت عليه أن يذهب معها للتفسح، فلمَّا رأى ذلك سُرَّ وانبسط، ومن ذلك الوقت صارت منتزهًا لسكان المدينة يذهبون [٦٨/و] إليها كل يوم، والآن زادت حسنًا وجمالاً وبهجة ودلالاً.

سنة ١٧٢٠ فيها غنم الروس من السويد ٤ فريقاطة، وأنعم القيصر أولاً على البشير بهذا الخبر برتبة قولونيل، وعلى الأمير كاليتسين الغالب بسيف وعصى مرصعة بالجواهر، وكتب له رسالة يشكره فيها، ورقى رتبة معاونيه، وأعطى للضباط صفائح ذهب مضروبة لشرف هذه الواقعة، ولمن تحتهم صفائح فضة، وأشهر النصر بإطلاق

المدافع، وبالصَّلاة في الكنائس شُكرًا لله، وأمَرَ أن تدخل السفن المكسوية بموكب عظيم على بتربورغ، فدخلت وأطلقت المدافع لدخولها، وقيدت قرب كنيسة التثليث، ونُصب هناك هرم من الخشب مزين وصور مختلفة لإشهار ذلك الفرح، وعملت في الليل حريقة أمام الكنيسة ووقدة في المدينة، وبقي الهرم مدة مملكة بطرس، وكان يسمى هرم الأربع فريقاطات.

ومع كبر المدينة يومًا فيومًا، وازدياد السكان وقتًا فوقتًا، وتكاثر الفتوح حينًا فحينًا، وتظافر العلوم والفنون آنا فآنا فالمخالفة التي كانوا يحدثونها في كل وقت كانت عائقًا صعبًا يتعب القيصر في قطعه، وثعبانًا لساعًا لا بد من ضربه قبل لسعه، فمن ذلك الأوهام وأراجيف العوام، كما وقع في هذه السنة ١٧٢٠ أن فلاحًا كان يدعي الكهانة، قال: إن في شهر تشرين يكون طوفان يغرق المدينة والسُّكان، ويرتفع على الشجر [/٦٨ظ] الموجود في القلعة، فصدَّقه كثير من العوام، وجم غفير من الطغام والتُّجار إلى أعالي بتربورغ، لكن القيصر قمع الفتنة، ولما عرف المذنب حبسه في القلعة، وفي اليوم الذي ادعى أن يكون فيه الطوفان عوقب بالشدة، وأوصى الناس أن لا يصدقوا مثل هذه الخرافات والأوهام.

قلت: في سنة ١٨٤٠، قال بعض القسس مثل هذه المقالة، وكذَّب الله أقوالهم، ولله در أبي تمام حيث حضَّ على عدم سماع هذه الدجالين فقال[1]: [البسيط]

---

(١) في ديوان أبي تمّام الطائي(ت ٢٣١ هـ)، مصدر سابق، ص ٧.

السَّيف أصدق أنباء من الكُتُبِ ... في حده الفصل[1] بين الجَدِّ واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشكِّ والرِّيَبِ

وقال آخر[2] : [البسيط]

دَع النجومَ لطُرقيٍّ يعيشُ بها ... وقم لوقتك وانهض أيها الملك

إن النبيِّ وأصحاب النبيِّ نهوْا ... عن النجومِ وقد أبصرت ما مَلَكوا

وكما وقع أيضًا في سنة ١٧٣٠، أن قومًا أهل سوء خدعوا النَّاس، فلما دخلوا كنيسة التثليث، وجدوا الدمُوع تجري في صورة العذراء، فقالوا: هذا دليل غضب العذراء على المدينة، وهمُّوا بالخروج، وكان القيصر غائبًا ذلك اليوم، وما قدر القونت كالوفكين أن يُسَكن الناس، وخاف وخامة عاقبة هذه الحادثة، فكتب للقيصر، فجاء في اليوم الثاني، فامتحن صورة العذراء وكشف الحيلة، وانكشف المذنب وعوقب، وأظهرت صورة العذراء فسكن الناس، وهذا كما وقع للمرحوم السلطان محمود خان ممدّن الترك في هذا الأوان، فإنه تعب كثيرًا في قمع الأوهام حتى وضع قوانينه على طرف التمام، وبقيت بقايا نرجوا أن تندفع بهمة ولده مولانا السُّلطان خليفة الوقت والزمان.

(١) في الديوان: الحدّ.

(٢) هو:طه بن إبراهيم بن أبي بكر بن أحمد بن بختيار جمال الدين الهذباني الإربلي. توفي سنة ٦٧٧هـ.ابن الشعار الموصليّ: قلائد الجمان، مصدر سابق، ج٢، ص ص ١٦٢-١٦٧؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ١٥، ص ص ٣٣٨- ٣٣٩؛ والصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج١٦، ص ص ٤١٣- ٤١٤، وانظر الأبيات في الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ٤١٤.

سنة ١٧٣١، فيها وصل خبر الصلح، ولذلك أرسل القيصر للأمير كاليتسين رئيس الدننما [٦٩/و] التي في فينلاند بترك الحرب في الوقت، وقطع العداوة والرجوع، وذلك الخبر جاء به أوبريسكوف، وذلك الصلح على أن ايستونيا وليفونيا واينكرى وجزءاً من فينلاند مع مدينة بتربورغ للروسيا، ولما رجع إلى المدينة أُطلقت المدافع، ودُقت الطرنبيطات، فظن الناس حصول واقعة غريبة، وسارع الكبار إلى فسحة كنيسة التثليث لرؤية القيصر، فأخبرهم بانقضاء الحرب وعقد الصلح، وبعد الصلاة صعد القيصر على منبر، وهو في لباس العرضي متقلدًا بحمالة ماراندريا، وسلَّم على النَّاس بالحشمة، وقال:

«أسلم عليكم أيها النصارى الحقية أشكروا الله القادر الذي أعطانا وأعطى السويد صلحًا خالدًا بعد حروب دامت إحدى وعشرين سنة».

ثم اغترف من برميل خمر وشرب على صحة الرعية، قائلاً: «أسلم عليكم يا أحبابي الطيبين، أعاننا الله على تنفيذ مقاصدنا في الصلح لأجل نمو سعادة هذه المملكة، وتخفيف الأثقال التي حملناها مدة الحرب والسلام عليكم».

ثم عرض أهل الحل والعقد على القيصر أن يقبل رتبة باش قبطان، فقبل ورقي أوبريسكوف سفير الصلح إلى رتبة الضابط، ونشر خبر الصلح في المدينة، ودارت العساكر في الحارات متلفعين بشملات بيض، وفي أيديهم بيارق بيض مزينة بتيجان الغار الأخضر، وتتبعهم الطرنبيطات.

وفي المدينة عدة أفراح وألعاب عامية، ثم في ٢٠ تشرين أول حكم أهل سينات أن يترجى القيصر باسم كل الرعية، شكرًا على سعيه الجميل أن يتلقب أب الوطن وإمبراطور كل الروسيا وبطرس الكبير، بسبب القوة والغنى وأنوار العلوم وتوسيع الرقعة، التي كانت الروسيا بسببها ممنونة لاجتهاداته، وبسبب رحمته وشفقته واعتناءاته الأبوية وصلت رعيته باتباع أثره العظيم [/٦٩ظ] فقط إلى أعلى درجة من المجد بين العالم، فامتنع أولاً تواضعًا لكن الإلحاح القائم والالتماس الدائم ألجأه إلى القبول، وذلك أن الأسقف خطب في كنيسة التثليث خطبة في ذلك الغرض، أولاً مدح فيها بطرس وأفعاله، ثم دعا النَّاس إلى شكره والاعتراف له بما يليق بواجب حقه وحرمته، فقربت كبار القسس من القيصر وشكر القيصر القونت كالوفكين من طرف الرعية على إخراجه الناس من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمجد العام، وعلى إخراجها من العدم، ونظمها في سلك الأمم المتمدنة، ثم ترجى الكونت بعد ذلك القيصر أن يقبل الألقاب المذكورة آنفًا.

ثم قال: «نحن لا نقدم لك باسم رعيتك إلا ما تستحق الحياة، الحياة الحياة لبطرس الكبير، أب الوطن، إمبراطور كل الروسيا»، وبمجرد ما قال ذلك انطلقت أفواه الناس بذلك داخل الكنيسة وخارجها، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس، وأطلقت المدافع من القلعة والترسانة، فلمَّا سكن الصدا رق القيصر، وقال بأعلى صوته:

«اتمنى أن كل رعيتي تعلم بالحقيقة ما فعل الله لنا مدة الحرب التي انقضت الآن، وتبدلت بالصلح، نحن نلزم أن نوجه إلى الله شكرًا صادرًا من القلب، لكن مع اعتمادنا على الصلح لا يلزم أن نفضل صنعة الحرب، وألا تقاسي الروسيا ما قاست الروم، فالمناسب لنا أن نشتغل في النفع العمومي، ونحقق المنافع التي منّ الله بها علينا داخلاً وخارجًا؛ لنخفف بها أثقال العامة».

ثم صلُّوا وقرأوا الإنجيل، ثم أُطلقت المدافع أيضًا، ثم جثى كل النَّاس [٧٠/و] وقرأ المطران الدعاء، ولما خرج القيصر من الكنيسة سلمت عليه كل الناس بأصوات متفقة «الحياة للإمبراطور، الحياة لأبينا»، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس والمدافع، وهو في قلب رعيته، يزدحمون حوله لتقبيل يده (...)[1] بغاية المحبة وانفتاح القلب، إلى أن وصل سينات، وهناك نصبت سفرة لألف شخص.

وبعد الوليمة المفتخرة كان التياتر، ثم الرقص في القصر، وعمل إنعام عام للعامة بإطلاق أهل اللومان والمحبوسين لغير قتل أو كفر، أو قطع طريق، ورفعت البواقي من سنة ١٧٠٠ إلى سنة ١٧١٨ التي كانت ملايين، وكذلك غرامات في كل مملكة الروسيا، وعُملت للعامة وليمة مخصوصة، مركبة من ثور (...)[2] ومزين، ومغروز فيه كثير من الطيور، وفي كل جنب عين واحدة ينبع الخمر الأبيض منها، ومن الأخرى الخمر الأحمر.

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) كلمة غير واضحة.

ثم بعد الرقص عملت الحريقة ورتبها القيصر بنفسه، فأظهر أشياء عجيبة منها معبد يانوس، وأبوابه مفتوحة ومنورة بعدة ٢٠٠٠٠ أنوار مختلفة[١] الألوان، وفارسان أحدهما يحمل على مجنة سلاح الروس، والآخر سلاح السِّويد تقاربا قليلاً قليلاً من أبواب المعبد وتصافحا علامة الصلح.

وفي ذلك الوقت دقت الطرنبيطات، وأطلق ألف مدفع، وزادت الحريقة جدًّا، حتى كانت أسوار بتربورغ والنيفا من اللهب، وعلى يمين المعبد ترس عليه تمثال الحق يفعص برجله جنية، وعليه مكتوب هو «يعني الحق دائمًا يغلب»، وعلى الشَّمال سفينة تاركة بحرًا عجاجًا لأجل أن تدخل في الميناء، وفوقها مكتوب إنما الأعمال بخواتيمها، ودامت الحريقة إلى ما بعد نصف الليل، [/٧٠ظ] ورجع القيصر إلى سينات، وهنأه الجماعة شاربين الخمر، وامتد الرقص إلى السَّاعة الثالثة، ودقت صفائح من الذهب والفضة، وجوزي كل من حارب السِّويد من الضباط والعسكر كلٌّ على حسب حاله، وأنعم القيصر على قبطان السويد ايرينشليد المذكور سابقًا بإعطائه صورته المرصعة بالألماس، وأكرمه بتلقيه للوداع، وكتب معه كتاب وصية لملك السويد على هذا النمط الواجب علينا أن نشهد له شهادة عادلة مخلصة أنه في الأشغال التي كان فيها أسيرًا أبلى بلاءً حسنًا، وأظهر الشجاعة التي لا تُنتظر من أحد، وبالحقيقة استحق تعظيمنا، ومثل هذا المدح لا يكون بلا نتيجة.

(١) ضرب عليها المصنف.

فلمَّا وصل القبطان إلى وطنه بالكتاب رقَّاه الملك إلى رتبة قبطان باشا، ثم لما أراد القيصر أن يشركه في الحظ والفرح أهل موسقو سافر في الجرار ـ يعني عربة الزحليقة ـ مع عياله، ومع عرضيين من الخفر؛ لإشهار ذلك الفرح فيها أيضًا، ولا تظن أن كل ذلك يعوق عن زيادة الأبنية والعمارات في هذه السنة التي من جملتها معمل لتكرير السكر، واصطبل كبير من الحجر للخيول القيصرية، ومحال للعربات الإمبراطورية، وتكبير قصر الشتاء، وتأسيس أول مدرسة القسس إلى غير ذلك، وقد فاض النيڤا في هذه السنة، ٥ و١٠ كانون الأول، وبلغ ٧ أقدام، و٤ أصابع، وفاضى الماء في الحارات، وقطع العبور، ومات بعض الناس، لكن ما هذا بأدهى وأمر من فيضان سنة ١٨٢٤، فلنكتف عن تفصيل هذا بتفصيل ذاك، والحدث الأصغر يندرج في الحدث الأكبر.

سنة ١٧٢٢ فيها قضى القيصر جزءًا من السَّنة في أشغال حرب الفرس، وبنى أماكن خارج المدينة عند أوخته وحارة بكنيسة للنجارين الذين يبنون المراكب.

سنة ١٧٢٣ فيها، وصل أميران [/٧١و] هيس هومبورغ إخوان، البكري عمره ١٧ سنة، والثاني عمره ١٦، وسألا الدخول في خدمة الروسيا، وقُبلا، وأعطي لكل رتبة قبطان وستة آلاف رُبل في السنة جامكية[1].

---

(١) جمع جامكية، وهو: لفظ فارسي معناه مرتب الجندي أو الخادم، وأُطلق في العصر العثماني على الأعطيات والمرتبات الشهرية والسنوية التي يتقاضاها الجند، والجمع جوامك. مصطفى عبدالكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦، ص١١٩.

وفيها ٢٦ آذار انسَرَّ أهل المدينة بفرح أعلن أكثر من سائر الأفـــراح، وزاد بـــه للسكان البسط والانشراح، وذلك أنه كان للقيصر الكسي ميخا يليـــوڤيج زورق، وفي سنة ١٦٩١ رآه بطرس، وهو شاب في قرية ازمايلوف قرب موسقو، فولد ذلك في فكره عمل دننما في الروسيا، وبناء هذا القارب المخالف لبناء القوارب المستعملة إذ ذاك في الأنهار جذب ملاحظة بطرس، وسأل عن أصل الزورق.

ولما علم أنه يمكن أن يعوم ليس فقط بواسطة المجاديف، لكن أيضًا بواسطة القلع ضد التيار، وحتى في الريح المخالف، اشتاق إلى وجود من يعرف أن يُسيره، فكشف في موسقو رجل هولاندي اسمه برانت كان مستعملاً في أيـــام القيصـــر الكســـي في الفاريقاطة المسماة «أرُول» يعني النسر، المصنوعة لجماعة التَّجارة الروسية على بحـــر كيلان، والمحترقة في سنة ١٦٧٠، تحت أسوار استراخان، حرقها قاطع الطريق رازين، لكن برانت تخلص من الحريق، وذهب إلى موسقو، وآل حاله في مدة عشرين سنة إلى الفقر المدقع، والضنك الموجع، لا يعيش إلا من صنعة النجارة، فأخـــذ إلى بطـــرس، وعمَّر الزورق، ونصب فيه صاريًا وقلوعًا كافية، وصار مقاطعًا لتيـــار لاوزا بمـــرأى القيصر المتعجب من هذا المنظر الجديد من شأنه.

ومن ذلك الوقت صار برانت معلم بطرس الذي بالسرعة تعلم مسك الـــدفتر بالشطارة، وصرف أوقات البطالة في التفسح على أمواه [/٧١ظ] لاوزا والبرك التي قرب موسقو. فانظر إلى هذه الحالة التي هي غير مهمة في ذاتها، لكن تولد عنها الفكر في عمل دننما صارت في حياة مؤسسها سببًا لمجد الروسيا الأثيل، وتمـــدنها الجزيـــل،

وعزها الجليل، وجولانها في البحار إلى البر الأصيل «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

فلمَّا تم الصلح المسبب لكل المنافع، والذي هو نتيجة هذه الدننما الظافرة في سافكات الوقائع التي هي ساعد المملكة، كما قال مؤسسها بحسن الملكة، وبسببها قُلِّد بطرس بنشانات النصر الموفور، ولُقب بالإمبراطور، وسُلِّمَ عليه باسم الكبير، والأب الخطير، لم يكتف القيصر بعد إعلان أيام الفتوحات الناشئة عن اجتهاداته المهمات بمجازاة مشاركيه، ومكافأة معاونيه، بل أراد أن تتذكر الذرية جالب هذه السَّعادة السرمدية في زمان قليل بالنسبة لهذا الفتح الجليل، فأمر بإحضار الزورق من موسقو إلى شليسلبورغ في ربيع سنة ١٧٢٣، بعدما استراح ٣٠ سنة.

وفي ٢٨ آذار مخرت الدننما المزينة بأحسن زينة في النيڤا، وأطلقت مدافع القلعة، وأرسلت الدننما عند ديرنيفسكي، ومكثت طول النهار، وفي اليوم الثاني، وصل القيصر في الزورق يسيره بنفسه هو وكالوفكين والرئيس سيناوين، ويتبعه ٩ سفن، فلمَّا وصل الزورق أدنت السفن بنديراتها للسلام عليه، وضربت الطرنبيطات، وأطلقت المدافع، ودقت الموسيقى العسكرية.

وفي اليوم الثالث ذهب القيصر في الزورق إلى المدينة، ولما وصل إلى المحل الذي فيه الآن دير سمولني، رحبت القيصرة بهذا الزورق، الذي هو أصل هذه العمارة الكبيرة، ثم لما وصل الموكب إلى مرسى كنيسة [/٧٢و] التثليث، أطلقت المدافع من كل طرف، وسلَّمت العساكر على الزورق بعمل شنك، ودخل القيصر والعائلة

الملكية، وأعيان الدولة في الكنيسة للدعاء والصلاة، ثم خرجوا، وأُطلقت لخروجهم المدافع، وعمل الشنك، ثم عملت وليمة في قصر سينات في غاية النفاسة، ودام في كل هذه المدة الانشراح وشرب الراح، أولاً على صحة القيصر، ثم على شرف الزورق، ثم على شرف ذريته، يعني الدننما، ثم عملت الحريقة في الليل.

ثم بعد هذا الموسم بأيام وضع الزورق في النشف وما جرى «إن السفينة لا تجري على اليابس»، وحفظ قرب مرسى الكنيسة، ولمّا علم القيصر تخلف بعض الملاَّحين عن حضور هذا الفرح المتين غرمهم ١٥ رُبلاً لكل سفينة.

وفيها طاب الهواء في نيسان وآيار وحزيران، فكانت الدننما كل أسبوع تجول في النيفا وتتردد، وكان التفسح إذ ذاك في الزوارق من الحظ المؤكد، إذ لا سرور في هذه المدينة أعظم من طيب الهواء وانقشاع الغيوم وابتسام السماء، وهذا الزورق مكث مدة عيد فيها، فلو كان له نفس ناطقة لكان مسرور البال، أو لسان منطلقة لأنشد بلسان الحال[1]: [الوافر]

أنا والله أصْلُحُ للمعالي وأمشي مشيتي وأتيهُ تِيها

(١) هي: ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن النَّاصر. توفت في حدود سنة ٤٨٤هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٢٧، ص ٤٥٠؛ وابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، مصدر سابق، ج ٤، ص ص ٢٥١- ٢٥٣. والبيت في الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٢٧، ص٤٥٠؛ وفوات الوفيات، مصدر سابق، ج٤، ص ٢٥١.

وبالجملة فقد صدق من قال[1] :

إني اطَّلعت على الدِّيار[2] وجدها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فتارة يحمل في قنجة وتدور حوله الدننما، وتارة ينزل فيه القيصر ويجدِّف بنفسه، وفي آخر الأمر عملت مسخرات أسبوعًا لإشهار النصر أيضًا، فانظر كيف اعتبر القيصر هذا الصلح الكثير [/٧٢ظ] المنفعة للروسيا، وأنزل الزورق في القنجة وعام، والدننما تشيّعه حتى وصل إلى باب القلعة، وأخرج إلى السَّاحل، وسلّم لحاكم القلعة ليحفظ فيها تذكرة للدننما، وهذا الفرح المصنوع لهذا الزورق كان كثير المصرف جدًّا، فالبارود المحترق وحده كان ثمنه ١٢٠٠٠ رُبل، والقارئ يفهم عظم هذا المبلغ في ذلك الوقت، ومع أن بطرس كان يحب التدبير في المصرف، لكن هذا عيد أساس العمارة التي بها شرفه، ولذلك سمي هذا الزورق جد الدننما، وفيها وصل سفير الفرس، ومعه تبع ثلاثون نفرًا، وأُطلق لقدومه المدافع، وشيّعه العسكر إلى البيت المُعَدَّ له وقبله القيصر.

وكانت نتيجة هذه السفارة اعتراف الفرس بترك خمسة من أخطاطها للروسيا، وهي ضاغستان وشيروان وكيلان ومازندران واستراباد، ومن الأبنية في هذه السَّنة

(١) هو:محمد بن محمد بن حسن، أبو بكر، جمال الدين، ابن نباته المصري. توفي سنة ٧٦٨هـ. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، مصدر سابق، ج ٤، ص ص ٢١٦- ٢٢٣.

(٢) في ديوان ابن نباتة المصري: وإذا نظرت إلى البقاع. انظر: ديوان ابن نباتة المصري الفاروقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص١٦١.

بيت كبير من الحجر في وسيلي اوستروف لأجل المدارس، وهذه البنية أكبر ما بني في هذه الخمسة والعشرين سنة، وهي موجودة إلى يومنا هذا دليلاً شاهدًا على سرعة زيادة المدينة، وكذلك موجود الآن بيت بطرس الكبير، وقصر في جنينة الصيف، وكنيسة التثليث، وجزء من أكديميا العلوم التي كانت قصر الملكة براسكوفيا فيدروفنا وپترباولوفسكي، وفيها كان مدخول المدينة ٥٨٠٠٠٠ رُبل، مدخول خمسة بيوت الآن، وفيها مات الأمير بوتورلين، وحضر مشهده أهل القصر، وقبل إخراج جسده من البيت شرب الحاضرون على روحه كؤوس الخمر، وبعد الرجوع تغدوا في بيته وشربوا كذلك الخمر على روحه [/٧٣و] سنة ١٧٢٤.

من أعظم الأبنية فيها أكديميا العلوم لتعليم أشخاص يكونون علماء في المملكة، ولتصنيف الكتب النافعة، وحل المشكلات، وكتابة الوقائع والتاريخ، والملاحظات المتعلقة بالروسيا، وهذه الأكديميا تتركب من رئيس واثنى عشر عضوا ماهرين في أنواع العلوم، وكاتب وناظر كتب، وأربع مترجمين، واثني عشر تلميذًا، وعين للأكديميا ٢٤٩١٢ رُبل، ودعي كثير من العلماء المشهورين الغرباء للدخول فيها ليكون من أعضائها، وكان بعضهم على جناح السفر إلى بتربورغ، لكن الله ما أذِنَ لمؤسس الأكديميا أن يعيش زمانًا طويلاً حتى يرى مجلس فتحها الذي ما كان إلا بعد وفاته ٢٥ كانون الأول سنة ١٧٢٥.

وذلك أن الأشغال الناصبة والحركات اللازبة أضعفت القيصر وأوهن جسمه، وألجأته إلى أن يسافر أوائل نيسان سنة ١٧٢٤ إلى الماء المعدني في أولونيتز، كما هي

العادة في مداواة المرضى بالذهاب وشرب الماء المعدني مدة من السَّنة، خصوصًا في الربيع، ونفسه المتعودة على الأشغال ما رضيت براحة البال، بل اشتغل في مدة هذا العلاج بخفة من العاج، وأرسلها إلى بتربورغ في كنيسة القلعة، ثم نقلت بعد ذلك إلى قاعة العجائب، ومنها إلى كونست كامير في الأكديميا، وحفظت إلى هذا الوقت، هي وعدة أشياء منسوبة جميعها إلى بطرس الكبير.

ثم رجع القيصر من أولينتز إلى موسقو، وأشهر تتويج القيصرة بعده؛ لأن الموت لم يُبق له ذكرًا وارثًا للتخت، ثم رجع إلى بتر بورغ، وزار قصوره الحظية في بترغوف وغيرها، ثم لما أتم لقومه [/٧٣ظ] الصلح على أحسن الأنواع بعد الحرب الغول ذات الأوجاع، وأراد أن يقدس في وجه عالمه الأرض التي اشتراها بلحمه ودمه التي كانت عرصة الخطوب، ومعترك الحروب، عزم على نقل عظام الأمير الكبير إسكندر النيفسكي من فلاديمير إلى بتربورغ، ودفنها في الدِّير المبني بهذا الاسم؛ لأن هذ الأمير قبل ٤٨٠ سنة كان غلب السويد وتوج بالنَّصر، وعمل موكب عظيم لهذه الواقعة، وذهب العظام للقاء العظام من سبعة فرست من الدِّير، ووضعته في السَّفينة التي مسك القيصر دفتها، وشجعان دولته جدفوا إلى الدير، وأطلقت المدافع، ودقت النواقيس عند إخراج النعش الذي رفعه القيصر وأعيان الدولة، ووضعوه تحت قبة من القطيفة التي تعلقت بأهدابها الأمراء، والقسس شيعوا المشهد في لباس فاخر على القنطرة الجديدة المبنية بالخصوص على تسورن ريتسكه، يعني النهر الأسود، ودفن بمرأى الخاصة والعامة في ٣٠ آب، وأمر أن يشهر كل سنة هذا اليوم السِّعيد على الروسيا، وأن يعوم فيه الزورق الذي قدمنا ذكره آنفًا.

ومرض القيصر الذي ظهر عند رجوعه لم يزل في ازدياد طول هذه السنة، ولهذا ما فارقته الأطباء، ولما وجد بعض خفة في شهر أيلول عزم في أوائل شهر تشرين الأول على الذهاب في سفينة لمباشرة أشغال خليج لادوغة مع منع الحكيم له لكن لازمه، ومن هناك ذهب إلى معمل الحديد في أولونيتز، وطرق بيده صفحة حديد وزنها ٣ پود، وهي محفوظة في كونست كامير مع مخلفاته.

ثم رجع [٧٤/و] إلى لاختا في عشية مطِرة كثيرة الرياح، فرأى في البحر زورقا آتيًا من كرونشتاد يلعب به الأمواج، وقف في الرمل، فأرسل لإعانته زورقًا، ولا زال مُتّبعه نظره فلاحظ غلبة الموج للجميع، وأخذته الرقة، فلم يقدر أن يبقى ناظرًا بلا فائدة، ونسي مرضه وألمه، واندفع في زورق، لكن الرمل منعه من القرب من الزورق الراسخ؛ فنزل في الماء إلى الحزام بلا حزم لفرط الرأفة وعوم الزورق وأذهب الرجفة، وهذه الرقة الأبوية والشفقة الرحمانية حركت ساكن المرض، وضاعفت الضعف والمرض، وألجأته إلى لزوم الفراش، وكانت سببًا لاخترام المنية وفراق المعاش، فلما ازدادت علته في ١٦ كانون الثاني سنة ١٧٢٥، روجعت كل الحكماء الموجودة في بتربورغ، ولكن إذا جاء الأجل بطلت الحِيَل: [مجزوء المديد]

كلُّ شيءٍ قاتلٍ حين تلقى أجلَك[1]

(١) يُنسب البيت إلى السلكة أم السليك من شاعرات العرب في الجاهلية، في: ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرة عبدالرحمن، ج١، مكتبة الأقصى، الأردن، ص ص ٤٣٧-٤٣٨.

ثم في ٢٦ وجد خفة لإملاء بعض فرمانات، لكن في ٢٧ ثقل عليه العياء، وأراد أن يكتب، لكن وقعت من يده الريشة، وآذنت بدنو فراق المعيشة.

وفي ٢٨ انطفأ بموته شهاب الروسيا الثاقب، راجم شياطين الأوهام الكــواذب، وخسف بدرها المنير بعد أن تكامل وتناقص حتى حاوله المحاق وزاول:

توقَّى البُدُور الـنَقْصَ وهـي أهِلَّـةٌ ويبدو عليها النقصُ وهـي كوامِـلُ[(١)]

وكسفت شمسها المنيرة في الآفاق، ففاضت عليها بسـحاب الـدموع الآمـاق، فسبحان من لا ينفد مُلكه، ولا يبقى إلا ملكهُ، له الحكم وإليه ترجعون.

(١) نُسب البيت لأبي العلاء المعري عند ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق،، ج١، ص ٤٥٠.

[٧٤/ظ] الفصل الثالث

لما انتقل القيصر بطرس الكبير إلى الدَّار الآخرة، وأبقى اسمه مخلدًا ومفاخرة، خلفته في الجلوس على تخت المملكة المتينة زوجته يكترينه، وقد سلكت نهج زوجها، فوضعت المملكة في أعلى أوجها، وبنت قريبا من مائتي مدينة، وملكت قريبًا من ثلثي بلاد الليه الحصينة، وبهذا السبب ما زادت في بتربورغ من الأبنية ما يستحق التسمية، ثم جلس بعدها على التخت بطرس الثاني حفيد بطرس الكبير الأول، وكان عاش طول عمره تقريبًا في موسقو، وقد أمر بعمارة بعض جزائر، وبنى في شارع نيفسكي كنيسة اللوتيريانين، واتخذ قصر منيشيكوف في وسيلي أستروف مسكنًا له، وسماه بتسمية نوفوپري أوبراژانسكي، والقيصرة حنا يوحا توفنه[1] أظهرت رجحان بتربورغ، وأبدت ذلك بأفعالها، واختارت لسكانها قصر قبطان باشا القونت ايراكسين على النيڤا قرب الترسانة الذي أعطاه له القيصر بطرس، وبأوامرها أحيط بجدران من الحجر، لكن غير لطيفة، وبخندق عميق، ثم هدم بعدها، وبنى محله قصر الشتاء، وهي التي أمرت بصنع الهلال الكبير المذهب اللامع على برج الترسانة، وهذا الهلال يهتدي به من لا يعرف حارات بتربورغ.

(١) إمبراطورة الروسيا هي بنت (إيوان) أخي بطرس الأكبر، ولدت سنة ١٦٩٢ وتوفيت سنة ١٧٤٠، تولت ملك روسيا خلال الفترة (١٧٣٠- ١٧٤٠)، عقب وفاة بطرس الثاني، واتحدت مع النمسا في مسألة وراثة بولونيا، ونجحت في انتخاب أوغست الثالث ملكا لها، وحاربت الترك من سنة ١٧٣٥-١٧٣٩. للمزيد انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ١، ص٣٢٣، -Moss, Walter G., A History of Russia, Second Edition, Vol.1: to 1917, Anthem Press, 2005 ,p. 257-258.

وفي زمانها أيضًا عمقت مويكه، وبنى محل كبير للعسكر عند قنطـــرة إسماعيـــل، وبدل بيوت الخشب القديمة كانت بيوت الحجر، وفي ذلك الوقت صدر الأمر العالي بأن في حارة مليون، وعلى الساحل [٧٥/و] القصري لا يبنى غير بيـــوت الحجـــر، ونقل بيت الأجزاء من القلعة إلى حارة مليون، وزيدت عدة الكنائس ببناء كنيســـة «الصعود» التي سميت باسمها، حارتها فوزينسيكي أوليسّا، يعني «حـــارة الصـــعود»، وصورت القيصرة بنفسها الحارات.

وفي سنة ١٧٣٧، ما كانت تجاوزت بتربورغ من ناحية الجنوب حدود فونتانكه التي لا تتميز بحسن الأبنية، وفي الجهة المسماة فيبورغسكي سترنا ما كان زيادة على معمل البوزة الهولاندي المنقلب إلى أكديميا الحكمة والجراحة إلا حـــارتين أو ثلاثـــة، وكنيسة سامسون.

وفي ذلك الوقت كان الشغل دائرًا في حارات وسيلي اوستروف المسماة الخطوط، وما كان جاهزًا حقيقة إلا الأول وبتربورغ القديمة، كانت كثيرة الســـكان، لكـــن جزيرة الأجزاء التي يغرقها من بتربورغسكي سترنا خليج كاربوف لم تكن إلا خميلـــة عريضة غلباء منظفة مملوءة ليس فقط بالنباتات الغريبة والأوربية، لكن أيضًا بالنباتات الآسية والأفريقية المحفوظة بغاية الاعتناء.

ولم تزل القياصرة تعتني ببتربورغ التي صارت تخت المملكة الجديد، لكن بلوغها إلى هذه الدرجة التي نراها الآن من الفخر والنظافة والحسن، اقتضى زمانًـــا طـــويلاً ومالاً جزيلاً، وتعبًا جليلاً، وذوقًا جميلاً، واليزبيت على الخصوص اعتنت بها، ففـــي أيام ملكها شادت كنيسة نقولة البحري المفتخرة بقباب مذهبـــة، ومنـــارة كـــبيرة للناقوس، وكنيسة الخلاص في سينوي، وعلى ساحل النيڤا أمام أوختا عنـــد حـــوش

سمولني دير التثليث للنساء، وكنيسة [٧٥/ظ] التثليث المشهورة التي بناها المهندس المشهور القونت رستريلي، وهذا المعبد الكبير بقي ثلاثين سنة بلا أبواب ولا شبابيك، وكمل بهمة أبهة القيصر الحالي نقولة الأول[1].

وهذا القونت قد زين المدينة في أيام القيصرة إيليزبيت بقصر انيتشكوف في سنة ١٧٤٨، وابتدأ قصر الشتاء في سنة ١٧٥٤، وكمل في سنة ١٧٦٢، بعد موت القيصرة، وفي سنة ١٧٥٥، وُضع أساس غوستيني دفور يعني قيسارية التجار، ولكن أكلته الحريقة، وما كمل ووصل إلى هذا المنظر الجميل الذي هو فيه الآن إلا في مملكة كترين الثانية سنة ١٧٨٥، وكترين الثانية اعتنت جدًّا ببتر بورغ وكبّرتها وحسَّنتها، واجتهدت في فعل كل الوسائط التي صيرتها أول مدينة في الدُّنيا.

ففي أيامها، بلط ساحل النيفا بالحجر الصوان بغاية الإحكام والإتقان، وكذلك سواحل الخلجان، وعملت بالوعات في الحارات، ومهدتها بالتبليط اللطيف، وعملت لها مماش موصلة إلى القصور الخارجة عن المدينة، ولأجل إحياء هذه الطرق التي في وسط الغابات وتسهيلها، وزعت هذا الفضاء إلى الأبنية القريبة منه في كلا الطرفين إلى اتساركي سلو وستريلنا وبترغوف، وأبيات الصيف اللطيفة بحدائقها الظريفة

(١) وُلد نقولا الأول عام ١٧٩٦، وكان قيصرًا لروسيا خلال الفترة (١٧٩٦-١٨٥٥)، عُرف عنه الحكم القاسي، وله العديد من الإصلاحات حيث صدرت أول مجموعة قانونية روسية حديثة بموافقته عام ١٨٣٥، ووافق على تحسين أوضاع الفلاحين، وساند بناء سكة حديدية في روسيا، تُوفي عام ١٨٥٥. لمزيد من التفاصيل راجع: فراس البيطار، الموسوعة السياسية والعسكرية، ج ٣، دار أسامة للنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠٣، ص ١٠٢٧.

وغدرانها الصافية، وعيونها الجارية، وزينت بتر بورغ من ناحية ريغه بباب النصر العظيم، وزاد عدد قصور الخط باڤلوڤسكي وغاتشين، وبُنيت ثلاث قرى نيمساوية حول المدينة، ووُضعت أثر البطرس الكبير ممدن الروسيا، وكتب عليه لبطرس الأول من كترين [٧٦/و] الثانية.

وفي مملكتها ازداد قصر الشتاء عظمًا وحسنًا ومعنى، وزُين زينة خضعت لها الثريا، وهذا القصر العظيم، مربع الشكل قليلاً، وطوله ٦٥ سجين وعرضه ٥٠، وسمكه نحو ١٢، وفي وجهه الأصلي فرجة كبيرة جدًّا في الوسط مكشوفة، والدور الأول يسكنه الخدمة والمقدمون ونحوهم، وفي الدور الأخير يسكن الأعيان من الرجال والنساء الذين يسكنون دائمًا في القصر، وفي الدور الوسطاني مقعد كبير فيه مجلس القيصر للسفراء، وعمل الخدم والعبادات القيصرية.

وهناك مقعد الرقص ومقعد المرمر ومقعد جرجيس المزين برايات كل العساكر وبيارقهم، ومقعد التخت؛ لأن فيه تختًا عظيمًا على الذوق القديم بأربع درجات مغطى بالقطيفة الحمراء، وهذا التخت يتركب من كرسي عظيم مغطى أيضًا بالقطيفة الحمراء وقبة مزينة بالتاج القيصري، وكل التاج القيصري الكبير مسبوك من العسجد، وفي خلاله القطيفة الحمراء، ومرصَّع بالجواهر، وأعلاه مرصَّع بالياقوت الكبير كبرًا خارجًا عن العادة، والتاج الصغير مرصَّع بالألماس ورأس قضيب المملكة مرصع بقطعة ألماس كبيرة اشترتها القيصرة كترين الثانية من الرومي سافراتسيا بثمن قدره نصف مليون رُبل فضة، يعني بمليون وثمان مئة ألف رُبل ورق؛ لأن الرُبل الفضة

في زمان كترين كان يساوي ٣ رُبل، و٦٠ كبيك، والآن يساوي ٣ ربل و٥٠ كبيك، وعبرة ذلك بالقروش الرومية ٩ ملايين قرش؛ لأن الرُبل يساوي ٥ قروش.

والعسكرة القيصرية مرصَّعة إلى أكثر من النصف بجواهر ثمينة مختلفة النوع [٧٦/ظ] والمقعد الفيلد مارشالي مزين بصور الفيلد مارشالات الروسية الملقبين بهذه الألقاب، زادونايسكي وزيمنيكسكي وإيريڤانسكي بسبب نصرهم.

والمقعد الحربي، يعني مقعد سنة ١٨١٢، وجدرانه مرصعة بصور الشجعان الذين حاربوا لأجل الوطن، وهو بين المقعد الأبيض، ومقعد جرجيس متسع جدًّا، طوله ٧٧ ذراعًا روسيًا، مقبب بغاية الصناعة، وفيه صورة القيصر اسكندر على الحصان الأبيض الذي ركبه لما راح باريز، وفي زمان كترين كانت التحف والجواهر القيصرية، وخواتم الألماس والمنشقات الذهب المرصعة بالألماس والنشانات والرايات والشيش بقبضة ذهب، وغير ذلك في دواليب أبوابها من الزجاج موضوعة في قصر الشتاء، لكن الآن هذه الأشياء محفوظة في الأوضة القيصرية في قصر اينشكي.

قلت: قصر الشتاء هو محل إقامة القيصر وحاشيته في الشتاء، وهو من عجائب الأبنية، وظاهره ليس محلى بالألوان كغيره من العمارات اكتفاءً بحسن شكله ولطف هندسته[1]: [الطويل]

وما الحلُى إلا زينةٌ لنقيصةٍ يتمّمُ من حُسْنٍ إذا الحُسْن قصَّرا

(١) البيتان للسان الدين ابن الخطيب، ت ٧٧٦ هـ . المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج٥، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٦٥.

فأمَّـا إذا كـان الجمـالُ مـوفَّرًا كحُسـنك لم يحـتَجْ إلى أن يُـزوَّرا

وقد دخلته مرات، وفي أول كل سنة في المساء يفتح ويؤذن لعامة الناس ذكـورًا وإناثًا بالدخول بأوراق أكثر من ثلاثين ألفًا، ويسمى ذلك رقص المسخرة، وليس في الحقيقة رقصًا، إنما هو تفسح، فتدخل الناس في المقعد الأبيض ومقعد المرمر، وبعـض مقاعد أخر كبيرة للغاية، فما ألطف هذه [٧٧/و] المقاعد وأبهجها! وفي أركان بعض المقاعد أواني من الذهب وأشياء عجيبة وصور غريبة، وفي هذه الليلة يدور القيصـر يتفسح مع عائلته، ويرى قومه كالأب الشفوق مع أولاده، ويكثر الزحام جدًّا حيث القيصر وعائلته، بسبب أن كل شخص يتمنى رؤيتهم، فهو حقيقة محبب في قومـه لا يشبع من رؤيته، سواء كان في القصر أو في غيره.

ومن جملة من يرى من الناس، الكرج[1] والشراكسة والتاتار في لباسهم الأصلي، وهناك بعض سودان من خدمة القصر، وكل من أراد الشاي، أو شراب العسل، أو بعض مآكل، ذهَبَ إلى المحل المعد لذلك، وأكل ولا يدفع شيئًا، وقد أصـابت هـذا القصر عين الكمال فاحترق، وما قدروا على إطفاء النار منذ عشر سنين، لكن همـة ساكنه القيصر الحالي أعادته إلى رونقه الأولى الحالي، بل أحسن في أسرع زمن، ومن مدة سنوات سقط سقف مقعد جرجيس، لكن عمّر بالسرعة.

وهذا القصر كالمدينة في الكبر والاتساع، وقد ذهبت عنـد بعـض المعـارف الساكنين فيه، فعددت مئة سلم، مع أن هذا المعرفة ليس ساكنًا في الـدور الأخـير،

(١) هي مدينة تقع ما بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب. ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٤، ص ٤٤٦.

والمحل المحرم دخوله مطلقًا، إنما هو حيث يسكن القيصر والعائلة الإمبراطورية، أما المجال الآخر فكغيرها يجوز لمعارف سكانها أن تزرها.

وفي شهر آيار حين يذهب القيصر وعائلته إلى اتساركي سلو وبترغوف لتقضية الصيف، هناك يجوز الدخول بأوراق في مسكن القيصر والعائلة الإمبراطورية؛ للتفرج على هذه البنية العجيبة، وما فيها من البدائع الغريبة والذخائر اللطيفة.

[/٧٧ظ] وفي سنة ١٧٦٨، وضع أساس كنيسة إسحاق، لكن غيّر هندستها القيصر إسكندر الأول إلى أحسن، ثم تلاه أخوه القيصر الحالي، وفي طول مدة أيامه، والشغل فيها دائر، وهي الآن على طرف التمام بقبابها المذهبة العظام، شاهقة العلو والارتفاع، محكمة الأبنية والأوضاع، خصوصًا القبة الوسطى الكبرى، فإنها تكاد أن تنال الشعرى، ولا يمكن الوصف أن يحدها لا نثرًا ولا شعرًا، بل العين وحدها بصحائف هذه المحاسن تقر حين تقرأ.

وفي سنة ١٧٦٨ وضع درابزي كبير عجيب الوضع حسن الصُنع حول جنينة الصيف، وهو يسحر عقول الوافدين بحسن سبكه، وفي سنة ١٧٧٠ ابتدى قصر المرمر على النيڤا، وكمل في سنة ١٧٨٣، وهو يتميز على الخصوص بأنه لا يوجد فيه أصلاً خشب، بل بمثابته دائمًا المرمر والصوان والمعادن، وتبدل بهذه القصور والأبنية الحسان الصحارى التي أحاطت بالنيڤا، وكذلك بني قصر الأمير توريپسكي الذي أسس دننما البحر الأسود، وفتح بندروا وچاكوف، وضم القرم إلى الروسيا، وفي شأنه قالت كترين الثانية: «هو وحده يفهم مقاصدي».

وغرس في هذا القصر جنينة الشتاء المعروفة الآن «بجنينة توريد»، حسنة للغاية حتى أنه لا يباح لكل الناس دخولها إلا بورقة إجازة لئلا تفسدها العامة، وفي هذا القصر سكن عباس مرزا حين أرسل سفيرًا إلى بتر بورغ من طرف شاه الفرس، وعمل الأمير پوتومكين وليمة عظيمة لكترين، ولما مات پوتومكين أوصى بهذا القصر إلى كترين، وهي تشريفًا له سمّت القصر «قصر توريد».

وكترين الثانية اعتنت أيضًا [/٧٨و] بإحياء العلوم والصنائع، فشادت أكديميا التصوير على ساحل النيڤا الشمالي، وأحسنت وضعها الذي بقيت عليه إلى الآن، وهي كبيرة شاهقة في العلو، فيها كثير من الصور البديعة، وفي كل سنة تزداد لاعتناء هذه البلاد بهذا العلم حتى يسمونه الصنعة النفيسة، وأمامها على ساحل النيڤا صنمان كبيران من الحجر يسميان أبوي الهول، جُلبا من مصر سنة ١٨٣٢، وتحتهما سبعان من الحجر، فهما على الحقيقة مسلياني في هذه المدينة، إذ ليس من بلدياتي أحد غيرهما فيها.

وقد سُئلت مرة: هل لي بلديات في هذه المدنية؟ فقلت: نعم لي، فقيل: من؟ فقلت أبو الهول، فضحك السائل.

وفي سنة ١٧٨٤ إلى سنة ١٧٩٠، بني على هذا السَّاحل أكديميا العلوم، لكن أقل علوًا، وفي هذه الأكديميا العلماء الروسيون والغرباء، وينتسبون إلى الأكديميا فيسمون الأكديميين، وكل منهم مشتغل بصنف من العلوم، بعضهم بالرياضيات مثل مسيو بنياكوفسكي، وبعضهم بعلم المعادن مثل مسيو كفّر، وبعضهم بالعلوم بالشرقية

مثل مسيو فرين، فإنه مشتغل بالعلوم المتعلقة بالشرق من معاملات، وتـــاريخ ونحـــو ذلك.

ودائمًا تسافر الأكديميون على مصروف الميري لكشف بعض الأشياء، كما يسافر مسيو كفّر إلى سيبير محل المعادن، ومسيو بروسي إلى تفليس[1] لتحقيـــق «تـــاريخ الكرج وآثارهم»، وفي آخر سنى مملكة كترين، وضع أساس بيت مكتبخانة العمومية الحجري في شارع نيفسكي، وبنى التياتر الكبير الذي كان أولاً في ســـوق ســـنوي [٧٨/ظ] مزينًا لحارة الجنينة، مثل اللِّعبة، ومحله صار القومبانية: يعني مستودع المال، والسَّلف بالمكسب وبالجملة، فكترين الثانية أكملت زينة هذه المدينـــة السَّـــامية، ورقت المملكة إلى أعلى درجة، وهمتها كانت بهمة الرجال مزدوجة، بل أعلى من همة الرجال، وحق فيها قول من قال[2]:

ولو كان النِّساء كمـــن رأينـــا[3] لفُضِّلت النِّساء علـــى الرّجـــال

ومع أن تملك القيصر بولص كان قصير المدة، لكن كان نافعًا لبتربورغ؛ لأن هذا القيصر بنى عدة مساكن لطيفة للعسكر ولتعليمهم، وبـــنى في وســـيلي أوســـتروف مدرسة البحارة، وكمل بيت تعليم الأطفال اللقطاء، وبنى بيتًا لســـقط العســـكر في جزيرة الحجر، وبعض قشلات وبيوت لإيواء الفقراء الطاعنين في السن، وبنى قصرًا

(١) تفليس : هي أكبر مدن الكرج.

(٢) البيت منسوب للمتنبي: الديوان، ص٢٥٧.

(٣) في الديوان: فقدنا.

عند جنينة الصيف صار بعده مدرسة المهندسين، وبنى في شارع نيڤسكي محلاً للتجار يسمى «دومه»، وزينه ببرج مربع، وبلط ساحل مويكه في طول ١٥٠٠ سجين، وزين كثيرًا شارع نيڤسكي الذي كان إذ ذاك في وسطه بولڤار، يعني سطور من الشجر لإظلال المارين، ووضع لجده الكبير بطرس الأول أثرًا أمام قصره، وأثر رومانتسوف في المرج القيصري، لكن نقل بعد ذلك أمام أكديميا التصوير، ومكتب كديت، وأسس أيضًا أكديميا الطب والجراحة، ووضع لكنيسة كزان الأساس، وكملها بعده وارث تخته، وولي عهده القيصر اسكندر الأول[1] الذي بنى الممشى على النيڤا أمام جنينة الصيف، ونصب [/٧٩و] قنطرة ترويسكي قرب جنينة الصيف، ونصب في المرج القيصري أثر سوڤاروف في سنة ١٨٠١، ليس بعيدا من قصر المهندسين وقشلة للبحرية، واينيستيتوت كترين لتعليم البنات الأكابر، وعند شارع فوسكريسنكي بنى كنيسة المصابين، ومن أعظم مبانيه قصر الوزارة، ودواين الأشغال بقبوته العظيم التي فوقها صور خيول، وهو عظيم جسيم يشتمل على أقسام منها: الديوان الأسي، وهذه البنية العجيبة أمام قصر الشتاء وبينهما ميدان.

وأما القيصر الحالي نقوله الأول، فإنه ما قصر عن سلفه ولا أبقى تعبًا لخلفه، إذ قد صرف اجتهاده إلى ما يكمل المدينة والمملكة، فبنى تياتر ميخائيل والتياتر الإسكندري الذي بناه باسم زوجته القيصرة إسكندرة، ومجمع الأعيان، وقد عبث به بنان الحريقة منذ سنين، لكن تدورك الخطر وتلوفي الضرر، وبنى عدة حارات منها حارة

(١) للمزيد عن فترة حكمه انظر: Moss, Walter G., Op. Cit., p. 334.

مورسكوي وكاراڤاني، وأحدث بلڤارا جديدًا في طرف حارة غالدني، ومن أفعاله الجميلة تبليط شارع نيفسكي بقطع الخشب المسهلة لجري العربات، وأمره بقلع الأشجار التي كانت في ذلك الشارع، وتبليط محلها ليتسع الممشى، وهذا عين الصواب؛ لأن هذه الأشجار كانت في الشتاء ثقيلة المنظر، مضيقة المعبر، وفي الصيف لا حاجة لها في ذلك المحل، للاستغناء بالخبائن عنها [/٧٩ظ] ، ونصب في الميدان أمام قصر الشتاء عمودًا شاهقًا في العلو كله من الصوان المائل للدهمة أثرًا لأخيه إسكندر الأول، ليس له في الدينا نظير، وهو أطول من ٣٣ سجين، فهو أطول من جميع الآثار الموجودة في الدنيا حتى من عمود الصواري بإسكندرية، والحجر الكبير جلب إلى بتربورغ في سفينة مبنية له بالخصوص ١ تموز سنة ١٨٣٢، وأخرج إلى الساحل ١٢ تموز، ورفع بإعانة عسكري الخفر الذي له صفيحة الفخر سنة ١٨١٢.

وفي ١٣ آب، وإلى نصف سنة ١٨٣٤، حصل فيه الشغل، والعمود كان أولاً مغطى بالأشجار، وبعد ذلك هذا الأثر الباقي ظهر لكل عين في يوم عيد اسم اسكندر ٣٠ آب سنة ١٨٣٤، تحفة سنية لهذا العيد الكبير، وسحرًا يخطف أبصار الجم الغفير، وقاعدته أيضا من الصوان، وعمل موكب عظيم حفل، وعملت وقدة في المساء في الميدان، والحارات، ومن جهة قصر الشتاء مكتوب عليه الروسيا تشكر إسكندر الأول، وعلى أعلاه معلق صليب كبير، وصورة ملك ماسك الصليب بيده اليسرى واليمنى مشيرة إلى السماء، ويفعص برجله ثعبانًا، وحوله الآن فينارات تولع بالجاز كل ليلة، ويحسن هنا إيراد القصيدة الفارسية التي قالها في هذا الأثر صديقنا

وعزيزنا الجنرال مرزا جعفر طوبجي باشا معلم اللسان الفارسي في المدارس القيصرية بيتربورغ، وها هي مثنوي:

أزيـــن درســـكنتم كهـــي درســـتوه ... كه يك قطعه سنكست ايــن يــاره كــوه

بكـــاخ ســـيهرش ســـتون ســـاختند ... خـــردخيره كردوكـــه جـــون ســـاختند

جه كفتم بكـــردون ســـتون كرواســـت ... مكـــر ســـوى افـــلاك راه دعـــا اســـت

[/٨٠و] ازين به بمطلـــب نبـــا شـــدكواه ... كه باشـــد ملـــك رابـــوش جلـــوه كـــان

بلـــى دربـــر هيكـــل ايـــن ســـتون ... ســـتون بيستونســـت وانـــن بســـتو

نـــه وهـــم شـــتابان وفكـــر بلنـــد ... بـــرار دور اســـرابز كمنـــد

نظـــر رابســـرعت بـــه بحشـــنى شـــود ... بـــه ســـت يلـــي ايـــن نشـــان

شـــند جنـــد جاتـــا بـــاوجش رســـد ... بنـــام يكـــي ينونوشـــين روان

بمهـــر بـــرادر بـــرادرز مهـــر ... جـــومهر فـــروزات بطـــاق ســـيبهر

برافراخـــت ايـــن ناموريـــا دكـــار ... برافروخـــت ايـــن مشـــعل روزكـــار

بســـي بكرزدكـــز نشـــان جـــنين ... بنـــازد بكـــيتي بســـاط زمـــين(١)

(١) تم ترجمتها من كتاب محمد عيّاد الطنطاوي، تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، قدّم لها وحرّرها د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٨٣.
تسيطر عليَّ الدهشة أحيانا... ويمتلكني العجب.
مما يجعلني أتساءل أهو حجر واحد أم جزء من جبل.
ذاك الذي صنعوا فيه عامودا لقصر الملك،
عامودًا يحار العقل في كيفية صنعه.
ترى ماذا أقول لو أدرت الحديث عن هذا العمود؟
يجدر بي أن أقول إنه طريق توصيل الدعاء إلى السماء.
ولا أول على هذا من صورة الملك المنقوشة عليه والمتوجه لأعلاه=

وكذلك قصيدته التركية وهى مثنوى:

بونه شوكتلومها بتلو بنادر كورنن ياكم افلاكدره شكر وثنادركورنن
يابوكيم طاق فلكدن آصلوب قنديل وار ملك قرق شكوه آنده اولوب مجمره دار
ياكه مشعل قونولوب محفل اهل زمنه برتوشوكت وابهت صالوب هرانجمنه
حرت هفت عجائب جهان او لدى بوكون غيرت جملة غرائب زمان او لدى بوكون
اى شاهنشاه قدر قدرت وفرخنده نشان بازوى سلطنته قوت وهم جسمنه جان
حقدن امنداد ككه البتة كه شاهد بويتر كه او لوبدر سكا منقاد دخى بحريله بر
كوه فنلا دبلوب عزمكى يردن قوبدى بحر بلطق ايشدوب امر كلا يجون يراوپدى
[٨٠/ظ]آلوب آغوشنه اولداغى نوايه يتوروب يعني كيم ساحل درياى نيوايه كوتوروب
دروب او زرنده ملك اشته اشارت ايل قالدروب ال كوكه بونكتني كويا سويل
كه كيمك عد ليله عالمده ايشى اوله بنام ملكوت فلك البته اولا ا كامقام
بويله برخسرو باحشمت ويرهمت ومهر ساحه دولته سايه ينجه كيم مهر سبهر
ابله برباد شر نامورك ياديجوت ذكر خيري بلد اول دادكرك آديجون
بيش افرواج بلا سد سكندرد يكدى مظهر حسرت هل ملت وكشور ديكدى

=أجل، إن هيكل هذا العمود يذكرنا بنفس بيستون
فعن طريقه يدرك ذوو الحجي – دون وهم – كيف تلحق الذلة بالأسرى.
وترى العين على الفور دليل ذلك.
حين تشهد الصليب وقد رفعته يد الملك
لأكثر من سبب تم الاحتفال.. وقد جاء تخليدا لذكرى راحل عظيم
بالحب أحيانا هذا ذكرى أحد العظماء
وأثارت هذه مشعل الزمان
وبفضله وبركته نرى ما نراه... فما تتبه أرضًا دلالاً على الدنيا

ومن مآثر هذا القيصر طريق الحديد التي حدث فيها الشغل من مدة سنين بين بتربورغ وموسقو، وإلى الآن ما تمت، وكذلك القنطرة المثبتة، وكان فيها الأشغال في مدة الجليد بدق الأخشاب في الجليد، والأعمال الشاقة، وقد تمت الآن.

[٨١/و] وفي أيام بطرس الكبير ما كانت على النيڤا قناطر بالكلية، وكانت الناس تعدي على القوارب، كل شخص يدفع كبيك، لنفع الخزنة أو أحسن لنفع المدينة، وعلى مويكه وفنتانكة كانت قناطر نقالة يمكن رفعها، لكن لا يمكن أن يمر عليها أكثر من عربة بفرسين، وأما الأن فعلى فونتانكة ومويكة من كل جهة قناطر في أعلى ما يكون من الحسن والإحكام من الحجر الصوان والدرابزي الحديد الذي في غاية الذوق، وكذلك على جميع الخلجان، والكل كالنيڤا مرصَّع الحوافي بالحجر الصوان العريض، مرصف تمر على هذه القناطر العربات الكثيرة، وهناك قناطر صغيرة للمشاة.

وقد أمر القيصر سنة ١٨٤٠، بتعريض قنطرة انيشيكوف مع أنها محكمة إلا أنه لاعتنائه بتحسين مدينته أراد تعريضها بعرض الشارع؛ ليكون المنظر أجمل، ففعل ذلك ودام فيها الشغل نحو ٨ شهور، ولما فرغت أغلقت أبوابها ، واجتمع محفل عظيم من الناس، ولما وصل القيصر راكبًا في كاروصته قيل له هيت لك، وفتحت له أول مرة، واستمرت مفتوحة إلى الآن، ووضع على أطرافها الأربعة أربعة خيول كل بقائده العريان، وقلت في ذلك:

وضعوا بأطراف القناطر إذ بدت   خيلاً مصورة بأحسن منظر

كــلٌ يُقــاد بســائس مــا غُطيــت بالـــدرع قامتـــة ولا بمغـــافر
هذا دليـــل الخيـــل والرجـــل الـــتي قويت بلا خوف جميـــع الأعصـــر
من يقوَ إن لم يـــرضَ مالـــك أمـــرهم أن يدخل الساحات أو من يجســـر

وفي سنة ١٨٤٢ شرعوا في توسيع القنطرة الزرقاء، وفي ذلك الوقت كنت ساكنًا في بيت أمام هذه القنطرة، فكنت أشاهد الأشغال [/٨١ظ] الشاقة المتوالية من دق أعمدة الخشب في الماء، ثم تنشيفه، وقد تمت هذه القنطرة، وسبب هذا التحسين أن هذه القنطرة أمام القصر المبني لشاهزاده الأميرة الكبيرة ماريه نيقولاونه، الذي هـــو أيضًا من مآثر هذا القيصر، فأراد القيصر توسيع القنطرة؛ لتتسع ســاحة القصـــر، ولذلك هدموا بعض بيوت حائله بين القصر وبين كنيسة إسحاق، وبالجملة فمـــآثر هذا القيصر لا تحصى، ومحاسن تدبيره لا تستقصى.

الباب الثالث

في عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وحظوظهم وتقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول: عادات الروس.

الفصل الثاني: في ملابس الروس

الفصل الثالث: في دين الروس.

الفصل الرابع: في الزواج.

الفصل الخامس: في التعميد ويوم الولادة والاسم والدفن.

الفصل السادس: في أعياد الروس.

الفصل السابع: في الحظ العمومي.

الفصل الثامن: في تقدمهم في العلوم والفنون.

الفصل التاسع: في سكنى الروُس ومعيشتهم ومركوبهم.

الفصل العاشر: في لسان الروُس.



الفصل الأول

اعلم أن عادة الروس وأخلاقهم الكرم والإنفاق وحب معاشرة الناس، خصوصًا من مدة ما تقدموا في التمدن والعلوم، وصدقت فيهم فراسة بطرس الكبير، ويميلون إلى الفخر والكبر، قال العلائي في أخلاق طائفة الروس: موصوفة بحسن الشكل، وبياض اللون، وقابلية الصنائع، ولطافة الخدمة، وإطاعة السيد، وقلة العبادة، وقلة الصلاح، وكثرة الآباق، وفي القديم كانوا مشهورين بالجبن حتى استعبدهم التاتار حينًا، لكن الآن انعكست القضية، وصار التاتار مذعنين لهم ومن رعاياهم.

وليس الناس عندهم رتبة واحدة، بل مراتب:

الأولى: الأعيان، وهذه الرتبة متوارثة، فابن أحد الأعيان يعد منهم، وأصحاب هذه الرتبة يتميزون جدًّا، بحيث يجوز لهم شراء الأراضي والعبيد، ولا يحرمون من مجالس الشرف، وإذا تزوج أحدهم بامرأة دون مقامه رفع رتبتها وتسمت باسمه، ثم إن هذه الرتبة تنقسم إلى قسمين:

أعيان أعيان: وهم من كانوا أعيانًا قبل زمان بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب الثَّالث.

وأعيان: وهم من بعد بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب [/٨٢و] السَّادس؛ مثلاً في تربية بنات الأعيان في دير اسمولني، يشترط إن لم يكن إذن مخصوص من

القيصر، أن تكون من أعيان الأعيان، وإذا دخل أحد الأعيان طوعًا في النِّظام دخل مثل تحت ضابط، وبعد سنتين يصير ضابطًا.

الثَّانية: الأعيان الذين لا يتوارث رتبتهم، وهم الغرباء والمستخدمون ونحوهم، الذين أنعم عليهم القيصر بالنشانات، فإذا نالوا رتبة من القيصر عدُّوا من الأعيان المتوارثة رتبهم، ولهم اشتراء الأرض والعبيد الروسية إلا في اختلاف الدين، فيمنع دخول الروسي في فلك المسلم، كما أن العبد المسلم يمنع شرعًا دخوله في ملك النصراني ومخالف الدين.

الثَّالثة: التُّجار، لا يُعدُّون في الروسيا من الأعيان، فالتاجر، ولو ملك ملايين لا يُعدَّ +من أهل هذه الرتبة، وإذا تزوج واحدة من الأعيان حطَّ رتبتها، وصارت تُعدَّ من التُّجار؛ لأن الزوجة تابعة لزوجها في الشرف والخسة، وبنت الأعيان لا تتزوج التاجر إلا بسبب غناه، كما أن أحد الأعيان لا يتزوج التاجرة إلا لغناها، فيختارون التمتع بلذة العيش، ولا يبالون بفقد الكفاءة، ولله القائل[1]:

قالوا الكفاءة ستة فأجبتهم إن الكفاءة في يسار الدرهم

(١) هو: مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف الكرمي المقدسي الأزهري، زين الدين، نسبة لطور كرم، قرية بقرب نابلس، توفي سنة ١٠٣٣هـ.محمد بن أمين المحبي: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق: عبد الفتاح الحلو،ج٢، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧، ص ص ٢٤٤- ٢٥٠؛ ومحمد ابن حميد النجدي: السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، تحقيق: بكر بن عبدالله أبو زيد، د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، ج٣، مؤسسة الرسالة، ط١ ١٩٩٦، ص ص ١١١٨- ١١٢٥.

وربما ترقى التَّاجر إلى رتبة الأعيان، لكن إذا ظهر استحقاقه بأن فعل أمورًا مهمة للمملكة، لكن هذا نادر، ولا يؤخذ من التجار، ولا من أولادهم نظام؛ بل يدفعون الفردة فقط إلَّا إذا فلس التَّاجر، وعجز عن الدفع، فيصير من أولاد البلد، وهذه المزية ليست متوارثة، فإذا مات التاجر قام مقامه ابنه في الدفع، فإن كان عاجزًا حرم [/٨٢ظ] من هذه المزية، والتاجر إذا دخل طوعًا في النظام دخل تحت ضابط، وبعد ثلاث سنين من الخدمة يصير ضابطًا، وللتجار والأعيان الخروج من النظام متى أرادوا، وللتجار إبقاء ذقوهم.

الرابعة: أولاد البلد، وإذا ترقوا إلى التجار، أو نزلوا إلى النَّظام فلهم حكمهم.

الخامسة: الفلاَّحون إذا أخذوا في النظام، فلهم حكمهم، وإلا فلا يترقون إلى الرتبة الأولى.

السَّادسة: العسكر، لكن إذا ترقى العسكري إلى مرتبة يستحق فيها كسوة الأكتاف بالقصب صار من الأعيان، وذلك أنه لا بد أن يخدم ١٥ سنة، فإذا كان حسن السلوك ربما ترقَّى إلى مرتبة تحت الضابط، ثم إلى مرتبة الضابط، ومن خدم ١٥ سنة له الخروج من النظام إن أراد.

السَّابعة: الأرقاء، ولا يجوز لكل أحد شراء الأرقاء كما عندنا، بل بشروط:

أن يكون المشتري من أعيان الروس، وأن يكونوا تبعًا للأرض، فليس للأرقاء سوق يباعون فيه، إنما بيعهم تبعًا للأرض، وتارة يباعون بالاستغلال، ويجوز إعتاقهم، ومنهم من يشتري نفسه كالمكاتب.

ولا يصير الرقيق بعد العتق من الأعيان إلا إذا صار عسكريًا وترقى، ثم إن الأعيان لابد لهم من التربية والتعليم الذي يكتسبون به الرتب، فإذا تعلموا في المدرسة الكبرى ونحوها حتى وصلوا إلى درجة «كانديتات» يعني النجيب، فحينئذ يكونون من الصنف العاشر، هذا إن أحسنوا الجواب في البحث، وإن قصروا قليلاً فيعطون درجة التلميذ المجتهد، وإلا فلا يستحقون شيئًا، وإن تعلموا في المدارس الصغيرة لا يستحقون هذه الرُّتبة، ويخدمون بلا رتبة حتى يعطى لهم رتبة، وأول المراتب الصنف الرابع عشر، ثم يترقون حتى إلى رتبة الجنرالات.

وكذلك أولاد التُّجار إن تعلموا في المدرسة الكبيرة، وبلغوا رتبة النجيب، [٨٣/و] ثم النجيب إذا اجتهد، وكتب شيئًا في العلوم، وعمل بحثًا وناقشه العلماء، وأحسن الجواب وصل إلى رتبة مجستير، يعني عالم فيكون من الصنف التاسع، ثم إذا اجتهد أيضًا، وكتب أيضًا، وعمل بحثًا ثالثًا، ونوقش ومَهَر، وصل إلى رتبة دوكتور، يعني فاضل، فيكون من الصنف الثامن، ثم إذا خدم ترقى بالخدمة إلى الصنف السابع، وهكذا، والفاضل يمكن له أن يكون مدرسًا أولاً، وثانيًا، يعني عاديًا وخارجًا عن العادة.

هكذا كله في الرُّتبة المكتسبة من التعليم، وقد يصل النجيب بواسطة الخدمة إلى هذه المراتب، فيكون جنرالاً، وإن لم يكن عالمًا ولا فاضلاً، وأما وصول غير النجيب فيمكن، لكن لا كالنجيب إلا نادرًا، والنشانات يعطيها القيصر بعرض الوزراء لمن يستحقها بسبب التقدم والتمييز، وهي كثيرة، منها نشان ستانيسلاف وحنة

وفلاديمير، وشريط الأول بحاشية بيضاء، والثاني بحاشية صفراء، والثالث بحاشية سوداء، وكلها حمر، والشريط للرتبة الأخيرة صغير يعلق على الصدر، وللرتبة الأولى طويل يعلق كالحمالة، ولا يعطى إلا للجنرالات، وللرتبة الوسطى كالقلادة في العنق، وقد أنعم عليَّ القيصر بالنشانين الأولين، وقلد بهما عنقي بسبب امتياز التلامذة في البحث، وقلت حين قبلت الثاني مورِّيًا:

إني رأيت عجيبًا

في بتربورغ وإنه

شيخ من المسلمين

يضم في الصدر حَنَّهْ

وقد أنعم عليَّ القيصر أيضًا في البحث الثالث بخاتم مرصع بالألماس الغالي، وفيه أول اسمه العالي، [/٨٣ظ] وقد تنبه القيصر إلى أن المسلمين لا يحبون التصوير الذي في النشانات، فأمر بتغير الصور الموجودة في النشانات المعطاة لهم، فأقام مقامها صورة النسر هذا، وقد قلدنا الأوربيين في إعطاء الرتب والنشانات للمستخدمين، لكن إلى الآن ما فعلنا ذلك مع «التلاميذ والمعلمين»، فأي مانع من ذلك؟ بل المقتضى موجود، وهو تحريض التلامذة على التعليم، مثلاً إذا فرغ الصبي التعليم في المكتب، ودخل في المدرسة لتعليم العلوم، فبعد أربع سنين إن شهد له شيوخه بالنجابة سميَّ «نجيبًا»، ولا بأس بعمل بحث لذلك، وإعطائه ثبتًا وإجازة لكن في كاغد منشن، ثم إن استمر فبعد

سنة مثلاً أو سنتين يعطى رتبة العالم ثم الفاضل، والفاضل لــه رتبــة المــدرس الأول والثاني، وغيره رتبة المعلم أو المعين.

ثم حيث نوعنا المراتب، فلِمَ لا نخص كل رتبة بلفظ، فنعطي مــثلاً للجنــرالات لفظة «الجناب»، وللوزراء لفظة «السعادة»، ولشــاهزاده وعائلــة الملــك لفظــة «السيادة»، وللسُّلطان لفظة «الأبهة»، ونحن إلى الآن ما فعلنا ذلك، بل نقول لكــل الناس حضرة الجناب العالي، ونستعمل لفظ الحضرة التي تستعمل حتى في جانب الله والرسول (صلى الله عليه وسلم)، ونبتذلها جدًّا كأننا نظرنا للقائل[١]: [الوافر]

إذا شــوركت في وصــفٍ بــدون فلا يلحقــك عــارٌ أو نفــورُ

ففي الحيوان يشترك اضــطرارًا[٢] أرسطاليس والكلــب العقــور

لكن هذا شيء آخر؛ لأننا لا نقول لأرسطاليس حيوان، ولا يحسن أيضًا أن ننظر لقول الآخر:

(١) هو: سعد بن محمد بن سعد الصيفي التميمي، شهاب الدين، أبو الفوارس، المعروف بــ حَيْصَ بَيْص. توفي سنة ٥٧٣هــ. العماد الأصبهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، (القسم العراقي)، تحقيق: محمد بهجت الأثري، ج١، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٥، ص ص ٢٠٢- ٣٦٦؛ و ياقوت الحموي: معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ج ١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ص ١٣٥٢- ١٣٥٥؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ص ٣٦٢- ٣٦٥؛ وانظر الأبيات في: ديوان حيص بيص، تحقيق: مكي السيد جاسم، شاكر هادي، ج٢، العراق، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٤، ص ٣٤٦.

(٢) في ديوان حيص بيص: تشارك الحياة بغير خلف .

العبـــــد عبـــــد وإن تســـــامى والمـــولى مـــولى ولـــو تـــنزّل

[٨٤/و] لأن هذا في تسامي العبد نفسه، وتنزل المولى وتواضعه، وأمَّا من طرفنا فيليق أن لا نرفع العبد فوق مقامه، ولا ننزل المولى عن رتبته، إنما المقام الذي نحن فيه من باب قول القائل[1]: [البسيط]

اجعل لكل مكان ما يناسبه فإن للزند حليًا ليس للعنق



(١) هو: : نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي الأزهري، أبو الفتوح، المعروف بابن قلاقس، توفي سنة ٥٦٧هـ. العماد الأصفهاني (الأصبهاني): خريدة القصر(قسم شعراء مصر)، تحقيق: أحمد أمين وآخرون، ج١، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥، ص ص ١٤٥–١٦٥، والبيت في المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٣؛ و ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ص ٣٨٥– ٣٨٩.

الفصل الثاني

في ملابس الروُس

اعلم أن ملابسهم القديمة الباقية في عوامهم إلى الآن مشتملة على قميص افرنجي، والغالب أنه من الشيت؛ لأن العوام يحبون الألوان، ثم لباس من البفت أو الجوخ، ثم جبة طويلة مخزقة، ولقسسهم جُبب طويلة عريضة الأكمام مثل فرجيات علماء مصر أو بنشات السفطات، ولكن من منذ مدَّن بطرس الكبير الروُسيا صارت ملابسهم كملابس غيرهم من الأوربيين، فيلبسون الأقمصة البيض، ويضعون على الصدرر فوق جيب القميص قطعة بفت عريضة بطيات مكوية، وتارة يفصلون القميص ويجعلون على صدره طيات، فيكون ذلك ساترًا، ثم الصديريات المفتوحة، ويتأنقون في تفصيلها حسب الكم، ثم السروال الضيق ثم الجبة الأفرنجية القصيرة.

وفي مراسم التكلُّف هذه الجبة مقطوشة الذيل من الطرفين، وطوق الصديري والجبة مرتفع فوق القفا بسبب البرد، وللنظام ملابس مختلفة على حسب اختلاف خدمهم، فالضباط ومن فوقهم يضعون على أكتافهم قرصًا من القصب الأبيض أو الأصفر، ويلبسون السيوف، وأمَّا أرباب القلم فلا يلبسون السيوف، إلا في مراسم التكلف، وكذلك يلبسون فيها بدلة بطوق قصب بحسب رتبتهم، وبعضهم من يلبس البدل المقصبة كلها، وبالجملة فلكل رتبة نوع مخصوص لا يتعداه يلبسه صاحبه في الأعياد، [/٨٤ظ]والرواح إلى الكبار خصوصًا رؤساء الشَّخص، وعند الذِّهاب إلى مجمع الأعيان حيث الرقص ويسمى ذلك بدلة الوَكبَة، وأمَّا البرانيط فأنواع، المسنمة

التي فوقها ريش، أو بلا ريش، وهذه لبس القيصر، والكبار أرباب السيف، وكــذا لبس أرباب القلم في التكلفات، وأما لبسهم في غيرها، فالبرنيطة السوداء المــدورة العالية بحواف عريضة قليلاً.

وهناك أنواع أخرى خصوصًا للنِّظام بعضها مستطيل وبعضها مربع، وفي آخرها مثل الدبوس فوقه كرة، وحدث منذ بعض سنوات للنظام نوع آخر من البرانيط فوقه شرابه من شعر الخيل، والآن كثيرًا لبسه حتى أني رأيت القيصــر بنفســه لبســه في الرواح إلى جنينة الصيف، ويربطون على العنق منديلاً أسود في الغالب، وخصوصًــا في الشتاء، وتارة من لون آخر وخصوصًا في الصيف، وأبيض في التكلف، وهذا لا بد منه في هذه البلاد لبرودة الإقليم.

ولما وصلت بتر بورغ كان وقت الصيف، فصرت بلا منديل على العادة، فلمــا أقبل البرد لم أقدر على الخروج، فربطت المنديل على الرقبة وتارة منديلين إذا اشــتد البرد، وقلت في ذلك مضمنًا بيت المتنبي:

وما حيلتي في بتربــورغ وقطرهــا	وفي عنقي غل لــه ألجــأ الــبرد
ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى	عدوًّا له ما مــن صــداقته بُــدٌ

لكن أرباب السيف يستغنون عنه بالقَبْة المستطيلة، وكذلك في أيام الشتاء لا بــد من لبس الفراء، خصوصًا للغرباء لقساوة البرد، وقلت موريًّا:

واصلتني يا بــدر حــتى كــان لي	ببلوغ وصلك في الــدجا آمــال
لِمَ تفتــري في موعــدي فأجــابني	الافتــراء ببتربــورغ حــلال

وأما النساء: فالكبراء كلبس الفرنساويات يعني الأقمصة [/٨٥و] والألبسة، ثم الإزارات المربوطة على الوسط، وهي كثيرة، ثم الفسطان، ويجوز لهن كل الألوان والتنوع على حسب الكسم[١]، ويعملون للفساطين وشاحًا يسمى كرسيت، وهي خرقة فيها عيدان مثل الجبيرة لترفيع الخصر، وتارة يتزنرن[٢]، وتارة يفصلن الفساطين واسعات الجيوب، بحيث يرى عنقهن لكن يضعن على ذلك منديلاً أو شيئًا رقيقًا شفافًا من الشاش حسن الصنع مشغولاً بالطارة أو الإبرة.

وفي الرقص لهن فساطين بلا أكمام، فذراعهن نصف، وصدرهن مكشوف، إلا أنهن يلبسن الكفوف، وهذا باب واسع الذيل، وبحر كثير السّيل، فالكسم في كل وقت يتغير، ويكتب ذلك في الجرنالات، حتى أن للكسم جرنالاً مستقلاً فيه صورة امرأة لابسة بغاية التأنق، أو رجل، وهذا كله يأتي من باريز، ويتبع ذلك نساء الأوربا، وتارة تلبس كبار النساء الروُسيات السِّرفان، وهو لباسهم القديم، والفلاّحات إلى الآن يلبسنه، وهو معلق بأشرطة لا صدر له، لكن سرفان الكبار مرصع باللؤلؤ أمام، ولهن برنيطة عريضة من فوق مدورة، ومن أسفل أقل عرضًا، كذلك مرصعة باللؤلؤ يلبسن ذلك في التكلفات الكبيرة، مثل الأفراح القيصرية، والولائم الملكية.

(١) الكَسْم: للزي من كلام العام، و (الكاسم) أي: البدلة، والأناقة، الأسلوب. انظر : رينهارت دوزي، مصدر سابق، ص ٨٨.

(٢) أي: حزام يُشد على الوسط. انظر: المعجم الوسيط، ص ٤٠٣.

وأما نساء العوام فمختلفات الملابس بعضهن بالسرفان، وبعضهن بالفسطان، وبعضهن يلبس فوق الفسطان مثل الصديري، وبعضهن يتعصبن بالمناديل، وهذا باق حتى عند نساء التُّجار إلى الآن، لكن الأكثر يقلدن الأعيان، وقد رأيت مرة في دير سموليني بنات الأعيان لابسات السرفان والبرنيطة الروُسية، وكان ذلك أسبوع الميلاد.

وفي هذه الجمعة على العادة القديمة تجتمع العذارى، ويأخذن طبقًا ويضعن فيه ماء، ثم يغنين [/٨٥ظ] ثم يعطين الخواتم للحاضرين يزعمن أن ذلك يدل على البخت، وتارة يبذرن الشعير أمام البنات، ويضعن فيه خاتمًا، ثم يرسلن ديكًا يلقط الحب، فإن نبش الديك وأخرج الخاتم فمن كان أمامها فإنها تتزوج في ذلك العام إلى غير ذلك من الأوهام القديمة.

وفي هذه الجمعة يمسخون أنفسهم ويغيرون زيهم، فبعضهم يلبس وجه شخص قبيح الصورة، وبعضهم صورة حمار أو عفريت إلى غير ذلك، ثم يدورون في الحارات، ومن حيث أن لبس الفقير مخالف للبسهم بعضهم يظنني أحد الروُس الممسوخين؛ لأن في هذه الجمعة يغيرون الملبس أيضًا، ويفعلون ذلك في الرقص أيضًا، ويسمونه المسخرات كما يأتي.

وأما الذقون: فالأعيان وغالب التُّجار يحلقونها، والعوام والقسس وبعض التُّجار بلحاهم وكثيرًا من لحاهم، وأما الشوارب فتحلق غالبًا إلا للنظام وأرباب السيوف، وكذلك العارضات، وما تحت الذقن يجوز فيها الإبقاء، والعادة الآن بين الفرنساوية

إبقاء الذقون والعامة والتُّجار لا يخضبون، وكذلك التتار، فكأنهم بلغوا أمنية الشيخ أبي بكر الشيرازي[١] من شعراء اليتيمة، حيث قال يتبرم بشبابه، وكان خنق التسعين، ولم تبيض له شعره[٢]: [الوافر]

إلامَ وفيمَ يظلمني شبابي ... ويلبس لمتي حلل الغُراب؟

وآمل شَقرَة بَيْضَاء تبدو ... بدو البدر من خلل السِّحاب

وأدعي الشَّيْخ ممتلئًا شبابًا ... كذا ظمأ يُعلل بالسِّراب

فيا شوقي هناك إلى مشيبي ... ويا خجلي هنالك واكتئابي

ألا يا خاضب الشيب المعنى ... أعني في الشباب على الخضاب

فكافور المشيب أجلّ عندي ... وفي فودي من مسك الشباب

[/٨٦و]وأين من الصباح ظلام ليلٍ ... وأين من الرَّباب دجى ضباب

ألا مَن يشتري منَّا شبابًا ... بشيب واسودادًا باشهباب

ويميل له قول أبي الطيب المصعبي[٣] في ذم الشباب[٤]:

لم أقل للشباب في كنف الله ... وفي ستره غداة استقلا

(١) هو:هبة الله بن الحسين أبو بكر ابن العلّاف الشيرازي، توفي سنة ٣٧٧هـ. الثعالبي: يتيمة الدَّهر، مصدر سابق، ج٣، ص ص ٤٨٥-٤٨٧؛ وياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٦، ص ص ٢٧٦٨- ٢٧٦٩.

(٢) الثعالبي:يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ٣، ص ص٤٨٥- ٤٨٦.

(٣) هو: محمد بن حاتم، أبو الطيب المصعبي، توفي في حدود سنة ٣٣٠هـ؛ الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ٤، ص ص ٩٠-٩١.

(٤) المصدر السابق، ج٤، ص ٩٠.

زائـــــر لم يــــزل مقيمًـــــا إلى أن سوّدَ الصحف بالذنوب وولّـــى

أين هذا من قول الآخر[1] : [المتقارب]

ألـــيسَ عجيبًـــا بـــأنَّ الفـــتى يصاب ببعض[2] الذي في يديـــه

فمـــن بـــين بـــاكٍ لــه موجـــع وآخـــر[3] مُعَـــزّ مُعَـــزٍّ إليـــه

ويسلبه الشّيب شـــرخ الشّـــباب فلـــيس يعزيـــه خلـــق عليـــه

وأما الفرس فيخضبون ميلاً لقول الخُشْنَامي[4] من شعراء اليتيمة[5] : [الوافر]

أقول لمـــن يعـــد الشّـــيب نـــورًا ويـــزعم أنـــه يكســـو وقـــارا

أحـــب مـــن الوقـــار إليَّ شـــعر يحاكي لونـــه ســـبجًا[6] وقـــارا

ولأبي الفرج ابن أبي سعد بن خلف[7]، من شعراء الخريدة، وهو من أحسن مـــا يروى في معناه:

---

(١) نسبها الشريف المرتضي في: أمالي المرتضي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١، الناشر عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٤، ص ٦٠٨ إلى محمد بن حازم الباهلي، توفي في حدود سنة ٢٢٤هـــ؛ ونسبها ابن شاكر الكتبي في: فوات الوفيات، مصدر سابق، ج ٤، ص ٨٠ لمحمود الوراق توفي في حدود سنة ٢٣٠هـــ.

(٢) في فوات الوفيات: بنقص.

(٣) في المصدر السابق: وبين.

(٤) هو: أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن خشنام، أبو مسعود الخشنامي، توفي سنة ٤٢٩هـــ . الثعالبي: يتيمة الدهر، ج٤، ق٢، ص ص ١٩٨– ١٩٩.

(٥) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٩٨.

(٦) خرز أسود، دخيل معرب. لسان العرب: مادة سبج.

(٧)هو: أحمد بن خلف الهمداني، أبو الفرج. الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج٤، ق٢، ص ص ٢٩٢– ٢٩٦، والأبيات في المصدر السابق، ج٤، ق٢، ص ٢٩٤.

وأنكرَ جاراتي خضــاب ذوائــبي وهن به زُيِّــنَ بــيض الأنامــل
فواعجبًا منــهن أنكــرن بــاطلاً علــيَّ ولم يخلــبن إلاَّ بباطــل

ويعضده قول الآخر[1] :

لو أن لحية من يشــيب صــحيفة لمعــاده مــا اختارهــا بيضــاء

وأما شعر الرأس فالرِّجال يقصرون، وفي تعهدها لا يقصرون إذا هم مكشــوفوا الرؤوس في المجالس، وأما النساء فيرسلن من شعورهن المقاصيص، ويجمعــن غرائــر الشعر بمشط في وسط الرأس، ويتعهدون ذلك حتى العجائز :

وقد شمطــت ذوائبــها وليســت على أمرٍ سوى فتــل العقاصــي[2]

ولا يرسل الشُّعور على الظهر إلا الفلاَّحات، وتارة يضعن بعض شيء للتَّحسين كشريط أو دبابيس كبار مُذهّبة أو نحو ذلك، والمتزوجات يضعن على الرؤوس طاقية رفيعة بغاية الإتقان، وحسن الذوق، وللنساء شمسية قصيرة في غاية البداعة من الربيع والصيف تقيهن حرّ الشَّمس، وأما الرجال فلا يتخذن إلا الكبيرة للمطر، ومما قلــت في بعض العذارى:

ولم أنــسَ لَّمــا أن تبسَّــم ثغرهــا ومنــت بتوديــع بغــير ســلامِ
شقيقة بدر إن يــك البــدر غرهــا وحلــوة ثغــر رقَّ فيــه نظــامي

(١) هو: يعقوب بن صابر بن بركات بن عمار بن علي بن الحسين المنجنيقي، نجم الدين، أبو يوسف. توفي سنة ٦٧٥هـــ . ابن الشعار: قلائد الجمان ١٠:، ص ص ٩٢- ٩٩؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان ٧، ص ص ٣٥-٤٦، والبيت في المصدر السابق ٧، ص ٤٠.

(٢) لسان العرب: مادة عقص، وتعني: أن تلوي الخصلة من الشعر ثم تعقدها ثم ترسلها؛ كما نُسب البيت لعبد القاهر الجرجاني عند أبي الطيب الباخزري في: دُمية القصر، ج١، مصدر سابق، ص ٥٨٧.

وقد رفعت بالشَّمس فاتخذت لها حجابًا وما تنفك دون ملامِ
طويلة شعر قصَّرته بمشطها فها هو إكليل الجمال وسامي
فؤادي كخديها وحمر شفاهها ألست ترى أن الجميع دوامي
موردَّة الخدين في زمن الشتاء فكيف بيوم في الهجيرة حامِ

[٨٦/ظ]وفي المدينة مخازن لتهيئة هذه اللوازم، ففيها من الأقمشة النفيسة كل ما يحتاج إليه، وخياطون وخياطات للتفصيل، وشرح هذا الباب غني عن التفصيل حتى يوجد كثير من المزينين لإصلاح الشعور وقصَّها وتقصيرها وتزيينها على حسب الذوق، وإذا لم يكن للشخص شعر ولا أسنان، وضع له شعر وأسنان عِيرة بغاية الإحكام حتى لا يكاد يتميز من الطبيعي، ولله من قال[1]:

قالت أراك خضَّبت[2] الشَّعر قلت لها خضبته عنك يا سمعي ويابصري
فقهقهت ثم قالت إنَّ ذا عجب تكاثر الغش حتى صار في الشَّعر

---

(١)هو: أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل ابن علي بن أبي طالبﷺ الرسي، أبو القاسم المصري. توفي سنة ٣٤٥هـ. الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ١، ص ص٤٩٧– ٤٩٩، والأبيات ١:، ص ٤٩٨؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ص ص ١٢٩–١٣١؛ والذهبي: تاريخ الإسلام ٧، ص ٨١٧.

(٢) في تاريخ الإسلام: سترت

الفصل الثَّالث

في دين الروُس

قد سبق أن الروس كانوا عبدة أوثان حتى تنصَّروا في زمان فلادمير على طريـــق الروم، لكن المطران ليس الرئيس المتوحد، كما كان البابا في رومة، بل الرئيس الديني القيصر كالسُّلطان بين المسلمين، وتحته ثلاثة مطارنة وعدة أساقفة ومشورة الرهبان، وطريقة الروم التي تدين بها الروُس تخالف طريقة اللاطينيين بفرق ضـــعيف، فـــرق الفئتين المتحدتيّ الدِّين، وذلك أن الروم يعتقدون كاللاطينيين سواء أسرار التجســـد، وتخليص عيسى العالم من الخطايا في اليوم الآخر، والثَّواب والعقاب بعد الحياة علـــى الخطيئة الأصلية، وعلى العفو اللازم والمعروف، إنما الفرق بينهما في العقيدة من جهة التثليث، فاللاطينيون يقولون: إن روح القدس ينبعث من أب وابن، والروم يقولون: إنه من أب بواسطة ابن، ولأجل الفرق بينهم وبين الكاثوليكية اليونـــانيين يصـــلبون ضامين الثلاثة الأصابع الأصلية، يعني ما عدا [٨٧/و] الخنصر والبنصر مـــن اليـــد اليمنى جاذبيها من الصدر إلى الكتف اليمين، ومنه إلى الكتف الشِّمال.

والتكريز عند الروُس بلسان الصقلب، كما أن الوعظ عند الإسلاميين بلســـان العرب، وهو مصحوب بموكب وزينة عظيمة وشموع موقودة، والأواني في الغالـــب ثمينة مذهبة ومرصَّعة بالجواهر والصور والتماثيل من اللوازم عند الروُس في الكنائس، وفي البيوت بحيث إن الكنائس مملوءة بها، وتارة يوجد حتى في الأسواق، وفي كل بيت في أوضة مخصوصة صورة العذراء والمسيح مطلية بالذهب أو الفضـــة، أو مرصـــعة

بالجواهر على حسب الغنى والفقر، وتارة صور أخرى والداخل يتوجه إلى الرُّكن الذي فيه الصورة، ويسلم عليها أولاً بخفض الرأس والتصليب مرارًا، ثم على أهل البيت، وكذلك عند الخروج للوداع، وكذلك عند المرور على الكنيسة أو الصور التي في الأسواق، لكن هذا بين العامة والتُّجار، وأما الأعيان والأكابر فلا يفعلون ذلك، ولذلك المعري نظر حيث قال:

ما الناس إلا اثنان إمَّا جاهل متديِّنٌ أو عالِمٌ لا دينَ له

وعند الصور قنديل دائمًا مولع أو شمعة موقودة ليلاً ونهارًا إلا للفقراء، فليلة الأحد والأعياد، وأيامها وكنائسهم موضوعة، بحيث أن يكون القسيس في المحراب متوجهًا للشَّرق، والنواقيس في العادة في برج عالٍ كالمنارة، أو في محل منفصل عن الكنيسة.

وفي وقت التكريز كل النَّاس تقف والرجال تقلع البرانيط، وكثيرًا ما يصلبون، بل ويقفون ساجدين على الأرض، ويكثر الرواح إلى الكنائس في الأحد والأعياد، ويوم اسم الشخص أو ولادته، وفي أيام الصيام خصوصًا الكبير الذي قبل الفصح، وفيه يستغفرون من الذنوب بأن يقر المذنب بذنبه للقسيس فيأمره بالسجود في بيته بقدر الذنب صغرًا وكبرًا، ثم يسقيه خمرًا كأنه دم المسيح، وخبزًا، وفي أيام الصوم [٨٧/ظ]خصوصا الكبير والجمعة الأولى والسابعة يمتنعون حتى من السمك والبيض والسمن، ومنهم من يدقق حتى في جميع الصيام، فلا يأكل حتى السمك والسمن بل

الزيت الحار ونحوه، وبعضهم لا يلتزم لكن أكثر العامة والفلاَّحين يراعونه فلا يأكلون لحمًا البتة، وما ألطف قول ابن حجاج:

جفاني اللحم وهـــو شـــقيق روحـــي فمن يعـــدى علـــى ذاك الشـــقيق

كـــأن اللحـــم في صـــوم النصـــارى تـــــوهمني بـــــزعم الجـــــاثليق



الفَصل الرَّابع

في الزواج

اعلم أن الروُس من زمان بطرس الكبير إلى الآن كسائر الأوروبيين لا يحجبون نساءهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه، فحينئذ يسهل على من يريد التزوج اختيار من شاء، وتارة بواسطة الخاطبة خصوصًا عند العوام، ومن حيث أنه لا طلاق لا يقنع الإنسان بمجرد النظر، بل لا بد من معرفة الطبع، فيصطحبان بغاية الأدب وينظران بعضًا في المجالس، وهذا يختلف باختلاف النَّاس، فمنهم مَنْ يقنع بأن المرأة تحبه بزمان قصير، ومنهم من لا يقنع، وعلى كل حال، فإذا حصلت المحبة من الطرفين التي يسموها العشق، أو كان هناك غرض آخر سألها التزوج بها، فإذا قبلت سأل بعد ذلك أهلها ثم يشرطون الشرط في البيت، وحينئذ يفعل لها خاتم ذهب، ولنفسه كذلك، وتسمى حينئذ خطيبته، ومن ذلك الوقت يجيء كل يوم عندها ويروح حيث تروح، ثم يعين وقت للعرس، وحينئذ يذهبون للكنيسة فيسألها القسيس أولاً: هل رضيت بهذا؟ فتقول: نعم، وفي هذا الوقت يتوجان، وإن لم يكن أب ولا أم اختير أب [/٨٨و] وأم يسميان أبوي الزواج، ويحضران في الكنيسة مع العروسين.

وكذلك يختار شاب يسمى مهياص الفرح، وهو الذي يمسك تاج العروسة على رأسها في وقت غناء القسيس، ويبدل الخاتمين ثلاث مرات بأن يضع خاتمها في أصبعه وخاتمه في أصبعها، ثم يدور بهم في الكنيسة مرارًا، ثم بعد فراغ الغناء يهنون

العروسين، ثم يرجعون البيت، ويشربون خمر الشامباني مع الحلاوة، وربما رقصوا، والنساء المعزومات للعرس يحضرن في غاية التبرج، وكذلك العروسة وفسطانها مخيط فيه أزهار صناعية، وعند بعض الناس تتفاءل البنات غير المتزوجات بأخذ شيء من هذا الزهر لنفاق بختهن، وبين حاضرات الفرح ربما تميز بعض الحسان، وجذبت نحوها الأنظار والخبان حتى يظن من لم يعرف الحال أنها العروسة:

وكم في العرس أبهى من عروسٍ ولكن للعروس الدهرُ ساعَد

والرواح والرجوع في عربات الملك أو الكراء.

ثم في اليوم الثاني يذهب العريسان ــ ويسميان بالروُسي «الشابين» ولو كان كبيرين ــ إلى المعارف والأحباب لزيارتهم وشكرهم، وربما دعوهم إلى ليلة مخصوصة للرقص عندهم، والغالب أن الزوجة أصغر بنحو عشرة أو خمسة عشر سنة، وتارة تكون الزوجة أكبر، وتارة أصغر جدًّا.

وإذا كان أحد الزوجين غير روسي ضوعف العقد، فيحضر القسيس غير الروُسي، ويثبت العقد بعد القسيس الروُسي، وهكذا مع غير الروُسي، حيث اختلفت المذاهب، وقد حضرت مرة زواج نيمساوي كاثوليكي مع نيمساوية لوتيريانية، فعقد العقد أولاً في الكنيسة الكاثوليكية قسيس كاثوليكي، ثم بعد الرجوع في البيت قسيس لوتيرياني.

ولا يجوز لأحد في مدة الحياة التزوج أكثر من ثلاث مرات، فالقبّارة مسكينة، نعم يجوز التزوج برابع إن كان [/٨٨ظ] يهوديًا وتنصر، وفي مدة الصيام لا يجوز التزويج.

وأما المهر فتعطيه الزوجة، وكثير من الأزواج صاروا أغنياء بسبب زوجاتهم، فالحسن ليس جالبًا للعشق أقوى من المال، فالقباح الغنيات يعشقن ويتزوجن قبل الحسان الفقيرات[1]: [الكامل]

كتنفس الحسناء في المرآة إذ برعت محاسنها بغير زواج

فإن اجتمع الحسن والمال قوي الجاذب غير أنه خطر، ولله در إمامنا الشَّافعي، حيث قال: «ما سلمت ذات جمال قط، فاظفر بذات الدين، تربت يداك».

وإذا تزوجت المرأة سميت باسم عائلة الزوج لا باسم عائلتها، ومن له بنات يظهرهن في المجالس، ويعمل لأجلهن ليالي رقص، عسى أن يعشقن ويتزوجن، وربما نشأ من هذه الواسطة غرور كثير، تارة يظهر أحدهما العشق بلا حقيقة ثم يترك، وكم من خادع وخادعة وداهية وباقعة، وتارة يكون الرجل كثير الملاطفة، فيظن أنه عاشق، ويظن أنه يريد التزوج.

ثم يتبين الحال بعد وقوع المرأة في العشق في أوحال، وكل هذا لغير المتزوج، إذ المتزوج معلوم حاله، فملاطفته للنساء من باب الأدب العقيم، وتارة يكون له غرض وخيم، وأما المتزوجة فيلاطفها الرجال أدبًا، وربما جذبت عقولهم فيعشقونها، وربما

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ج٢، مصدر سابق، ص ٢٢٢.

عشقتهم خصوصًا إذا رغبت عن الزوج، وكم من نساء متزوجات لفظًا مطلقات معنى يعشن مفترقات من الأزواج مع العشاق، وكذلك الأزواج، وكثير من يفعل ذلك سرًا، وربما تبعت الزوجة العشيق إلى بلاده، وتركت مُنشدة بلسان الحال:

قاطعته وخلعت من يده يدي وتلوت لي وله وأن يتفرقا

وأما المعيشة بلا زواج فكثيرة، وربما حصل بعدها الزواج، وعند النيمساوية يسهل الفراق، فلا يندر وجود امرأة تفترق من زوجها ثم تتزوج [/٨٩و] آخر، وأما زواج التتار القاطنين في الروُسيا فكالمسلمين إلا أنهم يدعون الحاضرين للوليمة، ويعقدون العقد قبل الطعام، فيقرأ المُلا خطبة النكاح، ثم يعقد العقد مع الزوج ووكيل الزوجة الثابت وكالته بشاهدين والزوج، ويعين المهر الذي يعطيه الزوج، ثم بعد ذلك يأكلون، وبعد الأكل يرسل من طرف العروسة بعض هدايا لبعض الحاضرين الذين يرسلون لها النقطة في مقابلة ذلك، وندر الطلاق بينهم، وإن كان جائزًا، اللهم إلا لسبب يقتضيه.

الفصل الخامس

في التعميد ويوم الولادة والاسم والدفن

إذا وُلد لشخصٍ مولود أحضر القسيس، وأعطى للمولود اسمًا كما يريد أهلــه، وأخذ المولود وبارك عليه، وبعد ذلك بمدة يعمّده في البيت أو الكنيســة، ثم يحضــر طشت فيه ماء فيقدسه، ثم يضع المولود في الماء، ويأخذه منه الشــبينه ـــ يعــني أم التعميد ـــ وتلفه في قميص جديد وطاقية، وتعطى للقسيس منديلاً يمسح به يــده، ويأخذه، ويحضر أيضًا أبو التعميد، وهو يعطي الأجرة للقسيس، ويشتري للمولــود صليبًا يلبسه، وكل الناس في أعناقهم الصلبان فى ذلك الوقت، خصوصًا النساء، لكن الكبار لا يظهرونه، ثم بعد ذلك تدور الشبينة بالمولود ثلاث مرات، وفي يدها شمعة، وكذلك أبو التعميد، ويغني أثناء ذلك القسيس ويدهنه بالزيت المقدس.

ثم يحيون الليلة بالرقص والشَّراب ويحدث بين أبي التعميد وأمه لُحمة كلحمــة النسب بحيث يمتنع التزوج، وكذلك بينهما وبين الأب والأم والغليونة، ولهذا تــدعو معمديها بأبويها، ويسمون المولود بأسماء القديسين، مثل بطرس، مريم، ويعمل لهــذا الاسم يوم يحي كل عام، وهو اسم [/٨٩ظ] مولد ذلك القديس مثلاً يــوم مولــد مارنقوله سادس كانون الأول، فإذا سُمي المولود نقوله على اسمه كان عيــد اسمــه كذلك، ويوم الولادة يشهر أيضا كل سنة، ويجيء الأحباب والمعــارف والأقــارب للتهنئة، وربما عملوا ليلة ورقصوا، أو وليمة، وشربوا الخمر على صــحة صــاحب العيد، وهذا يختلف باختلاف الناس.

وإذا مات إنسان أتى القسيس وقرأ عليه، ويأتي أيضًا قبل خروج الرُوح ليلقنه، ثم يغسَّل ويكفّن، وكفنه ثياب الحياة بعينها، فيلسبونه مثل ما هو حي حتى الجزمة، ويوضع ووجهه مكشوف في تابوت حسن، ويوقدون حوله ثلاث شمعات اسكندراني، وعنده في طول هذه المدة قسيس يقرأ عليه، وكل يوم يجيء القسيس الكبير ويصلي عليه، ولا يدفن قبل ثلاثة أيام لاحتمال الحياة، ففي اليوم الثّالث أو الرّابع المُعدّ للدفن تُهيأ الكنيسة، وتغطى دككها التي تجلس الناس عليها بالجوخ الأسود، وكذلك تهيئ عربية معدّة لذلك بالجوخ الأسود والخيل التي تجرها تغطى بالجوج الأسود، ويصحبون جنائزهم بالنّار، فيمسك القسيس شعله من نار، ويختلف ذلك باختلاف الموتى، فالكبراء يزاد لهم، وتغطى العربة بقبة جميلة، ثم يحمل التابوت من البيت إلى الكنيسة مصحوبا بالمشيعين، وتارة يحمل التابوت يوم الموت، ويوضع في كهف الكنيسة إلى يوم الدفن، وتُطبع أوراق الدعوة في أوراق مجدول طرفها بالأسود، فيحضر الناس ويغني القسيس والشموع [/٩٠و] موقودة.

ثم بعد فراغ الغناء يحمل الرجال التابوت من الكنيسة إلى العربة المنتظرة لحمله على الباب، ويضعونه فيها، وبعض المشيعين يمشي قليلاً، ثم يركب عربته، وبعضهم يركب وبعضهم يمشي إلى الجبَّانة، وهناك يُدفن، فيأتي قسيس ويرش عليه عند إلقائه بتابوته التّراب، ويرش عليه الحاضرون، ثم يخلونه، والعادة أن تعمل وليمة عند القبر للمشيعين فيأكلون ويشربون الخمر على روحه، ويطبخون الرُّز بالزّبيب، وكل من مرت عليه الجنازة يقلع البرنيطة، وكذلك المشيعون تارة، وربما وضعوا في الطريق إلى الكنيسة شيئًا أخضر من فروع الشجر ومقبرهم مشتملة على قبور محكمة البناء

بالأحجار، وفي الغالب أنها طويلة كالعمد، وبعضها مدور، وبعضها مستطيل، وبعضها مسنم، وبعضها مربع، وفوقها الصليب بخلاف القرى، لا يظهر من قبورها إلا الصليب فوقها، ويُعمل للميت أثر، وهو حجر من الرخام يكتب عليه اسمه وتاريخ ولادته وموته، وربما يتأنقون في ذلك، ويكتبون أشعارًا.

وللتَّتار قرافه مخصوصة منعزلة عن مقابر الروُس، وإذا مات أحد لبس أقاربه عليه الحداد مدة معلومة عندهم، فالنساء تلبسن الفسطانات السُّود والبرانيط السُّود، ثم الخمار الأسود بحاشية بيضاء، وأما الرجال فمن حيث إن لبسهن أسود يلفون على البرانيط حريرًا أسود، وفي مدة الحداد لا يرقصون إلا أنهم يحضرون مجالس الرقص والتياتر، وتارة تلبس بعض النساء في مدة الحداد ثياب الزينة إذا ذهبن إلى أعياد بعض الأقارب، ثم يقلعن ذلك، وبالجملة فالتكلفات في هذه البلاد كثيرة، والرسوم غزيرة، ولكل شيء قانون عنده يقفون ويُصفّون.

[٩٠/ظ] الفصل السَّادس

في أعياد الروُس

أولها: عيد أول السَّنة، يبتدئ أول كانون الثاني، فيه يذهبون لزيارات الرؤساء والكبراء والمعارف، ويكتب الشَّخص اسمه إذا ذهب إلى رؤسائه، ولم يرهم ويعطي ورقة الزيارة المطبوعة باسمه لغيرهم، وكانت الروُس في الزمن القديم تعد تاريخها من خلق الدُّنيا، والسَّنة الجديدة من أول آذار في وقت الاعتدال الربيعي مثل الفُرس المبتدئين سنتهم من النوروز، واستمر ذلك إلى القرن الخامس عشر في إمارة وسيلي دميتريفيج أمير دونسكوي، فقواه المطران كيبريان على تغيير أول السَّنة اتباعًا للأروام، ومن ذلك الوقت ابتدأت السَّنة الجديدة عند الروُس يوم مارسيميون مقضي الصيف الذي يشهر أول سنتابر[1] في الخريف، لكن لم يزالوا على عدد القرون من أول خلق الدنيا، فكان أسلافهم في ذلك اليوم في كل سنة يشهرون فراغ الصيف ودخول أول السنة الجديدة.

ويبتدئ التعبيد من طلوع الشمس في موسقو بعد صلاة الصُّبح في كنيسة التصليب الكبيرة، فيخرج المطران إلى الميدان مصحوبًا بالقسس والصور والصُّلبان، وحينئذ تضرب جميع النواقيس، ويتم رسم الماء المقدس والصَّلاة، ويقول: بارك اللهم في العام الجديد، بإفاضة الإحسان والصلح، ويصلي القيصر وسكان موسقو

(١) كذا كتبها المصنِّف، ويقصد شهر سبتمبر.

بالخشوع، ويسجدون عند غنائه «خلص اللهم عبادك وبارك في خليقتك»، ويُرش المطران القيصر والنَّاس بالماء المقدس.

ويهنئ القيصر رعيته الأمناء بقدوم السَّنة الجديدة، ويسمع بغاية البشاشة تهنئة [٩١/و] رعيته المتمنين له بقلب واحد، الصحة ونعمة الله، ثم تقام الصلاة والنَّاس يتماشون في داخل الكنسية، وبعد الصلاة كلهم يسرعون إلى أقاربهم الكبار، ويهنئون بعضهم بعضًا بمقدم السَّنة الجديدة والسَّعادة القشيبة، وبعد الغداء يذهبون إلى البيوت، ويتمنى بعضهم لبعض بالأمنيات الكبيرة أن يعيش إلى أمثال هذه السَّنة الجديدة على عادة الآباء والأجداد الموصى بها، وعلى هذا استمر الأمر إلى سنة ١٧٠٠ نحو ثلاثة قرون، فظهر في الروُسيا قيصر عجيب بطرس الأول الذي عند اطلاعه على الأوربا، واستحسانه معيشتها الجديدة بالراحة، وتمدنها السَّاحر للنفس والعقل غير المعلوم للروُس بعد عزم على تمدين رعيته وإزاحة كل ما يبعدهم عن الأوروبيين بالكلية، أو تخفيفه، وما يميزهم عنهم في الأفكار والتشبث بالأوهام القديمة المتوارثة الموجبة لاحتقار التمدن الأوربي وكراهته.

وقطع هذه العلائق أبطل كثيرًا من العوائد التي من جملتها حساب السنين الذي غيره بطرس، وصدر عنه أمر ١٩ كانون الأول سنة ١٦٩٩، إن من هذا الوقت يكون رأس السنة من كانون الثاني سنة ١٧٠٠ في الأوامر والفرمانات، وكل الأمور والمعاملات موافقة لنصارى الأوربا، وأن يكون من الميلاد، ولا من خلق العالم، وأشهر ذلك في الكنيسة وبإطلاق المدافع كثيرًا، والرقص والشنك ليلاً، وعلى الحساب من

خلق العالم تكون هذه السنة سنة ١٨٥٠ من الميلاد، وسنة ١٢٦٦ من الهجرة سنة ٧٣٥٨ على قولهم، وبقي أيضًا اختلاف بين الروُس والأوربيين ١٣ يومًا تأخروا بها عن غيرهم، ويمكن أن يوافقهم في ذلك إذا صدر أمر القيصر.

[٩١/ظ] الثاني: عيد الرفاع، وفيه ينصبون في الميدان الذي أمام قصر الشتاء أنواع الملاهي والمراجيح، ويبنون بيوتًا يلعب فيها الملاعيب، وفي بعضها يرون الحيوانات والوحوش المجلوبة كالسَّبع والنِّمر والذئب، وفي بعضها يجرون على الخيل إلى غير ذلك، ويبنون هناك محلاً عاليًا كالجبل لإزلاق العوام، وهذا العيد قبل صومهم الكبير بأسبوع لا يأكلون فيه اللحم، بل أنواع الفطير والسمك، ويأكل الناس بعضهم عند بعض رقاقًا يسمونه «بِلني»طول هذا الأسبوع، وفيه يلعب التياتر في الظهر والليل كل يوم مرتين توديعًا، حيث إنه ليس في الصوم تياتر إلا للأطفال.

الثَّالث: عيد الفصح، وهو فسخ الصيام، ويحيون ليلته، ولا ينامون فيها، بل ينتظرون نصف الليل، ويذهبون للكنيسة نصف الليل للصلاة، وهذه الصلاة طويلة نحو ساعتين، وكم فيها من زحام رجال ونساء، وتكثر اللصوص في هذه الصلاة ونحوها، فيسرقون ما وجدوا من ساعات أو نقد، ثم بعد فراغ الصلاة يأكلون ويأخذون فطيرًا معهم إلى الكنيسة يبارك عليه القسيس، ثم يأكلونه بلبن منعقد.

وفي هذا اليوم تكثر الزيارات للتعييد كما في أول السَّنة، فهما اليومان اللذان يلزم أن أهل الخدم تذهب فيها إلى رؤسائهم، والأحباب إلى أحبابهم، والمعارف إلى معارفهم، وهما العيدان العموميان، ويكثر في الفصح إهداء البيض المنقوش ونحوه،

وهذه الأشياء تباع في السوق الكبير في الجمعة السادسة جمعة الشعانين، فيفرشون بهذه الأشياء ونحوها كالأزهار المصنوعة واللعب والصور للأطفال وصور خيل وعربات وطيور وعصافير وبعض البيض منقوش [٩٢/و] مكتوب عليه عقيدتهم «عيسى نشر»، وفي هذا العيد يتباوسون ثلاث مرات:

يقول الأول: قام المسِّيح، ويقول الثَّاني: حقًا وصحيح؛ لأنهم يزعمون أنه قتل في السبت، ونشر في الأحد، ولذلك يسمون الأحد «النشر» (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) [النساء: جزء من الآية ١٥٧] (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله) [النساء: جزء من الآية ١٥٧، وجزء من الآية ١٥٨].

وعادة التقبيل باقية إلى الآن حتى أن القيصر يُعيد التقبيل، إلا أن الرجال لا تقبل النساء إلا المعارف القريبة والقسيس والعوام ونحوهم، وفي طول هذا الأسبوع تكون بيوت اللعب والمراجيح كما في عيد الرفاع، إلا أنه لا إزلاق بسبب عدم الثلج في ذلك الوقت غالبًا.

الرَّابع: الميلاد، وهو قبل أول سنتهم بأسبوع، وهذا عيد كبير عندهم إلا أنه لا يتزاور إلا المعارف والأقارب، فليس كأول السَّنة والفصح، وفي ليلته يعملون شجرة صغيرة، وهي غصن شجرة يعملون لها قاعدة، ثم يعلقون فيها من الحلاوات والفواكه والشموع لأجل الأطفال، وهذه العادة سرت للروُس من النيمسا.

وبقيت أعياد أُخر في بعضها تبطل المدارس والمحاكم، ولنذكر أيام التعطيل على الترتيب:

١- أول كانون الثاني: أول السَّنة.

٢- سادسه: عيد الغطاس.

٣- ثاني شباط: عيد دخول سيدنا عيسى إلى الهيكل وتطهير العذارء.

٤- الجمعة والسبت من عيد الرفاع.

٥- الخامس والعشرون من آذار: عيد بشارة مريم بحمل عيسى عليه السلام.

٦- من الأربعاء إلى آخر الجمعة الأخيرة من الصِّيام الكبير.

٧- أسبوع الفصح.

[/٩٢ظ]٨- الحادي والعشرون من نيسان: عيد القيصرة الحالية اسكندرة فيدروفنا.

٩- تاسع آيار: يوم نقوله، صاحب الخوارق.

١٠- عيد الصعود.

١١- عيد روح القدس يومان: الأحد والاثنين، وفي الاثنين تفسح كبير في جنينة الصيف، يسمى عندهم إظهار العرائس تتبرج فيه العذارى ويخرجن مع الأقارب عسى أن يُخطبن، وهذه عادة قديمة بقيت منها آثار عند بعض التُّجار والعوام.

١٢- الخامس والعشرون من حزيران: عيد ولادة القيصر الحالي نقوله الأول.

١٣- التاسع والعشرون: عيد الحواريين بطرس وبولص.

١٤- أول تموز: ولادة القيصرة.

١٥- سادس آب: عيد التجلي.

١٦- الخامس عشر: وفاة مارت مريم.

١٧- الثاني والعشرون: تتويج القيصر والقيصرة.

١٨- الثلاثون: يوم اسم ولي العهد اسكندر.

١٩ -ثامن أيلول: ولادة العذارء.

٢٠- الرَّابع عشر: عيد الصليب.

٢١- السَّادس عشر: يوم الحواري المعمد يوحنا.

٢٢- أول تشرين الأول: ستر العذراء وشفاعتها.

٢٣- الثاني والعشرون: يوم صورة العذراء القزانية، صاحبة الخوارق.

٢٤- العشرون من تشرين الثاني: جلوس القيصر على التخت ويحسب من التاسع عشر.

٢٥- الحادي والعشرون: إظهار العذراء في المعبد.

٢٦- سادس كانون الأول: يوم اسم القيصر ومار نقوله.

٢٧- الثالث والعشرون: يبتدئ التعطيل في المدارس إلى آخر الشهر.

[٩٣/و]٢٨- الرابع والعشرون والخامس والعشرون والسادس والعشرون والسابع والعشرون عيد الميلاد، وزيادة على هذه الأيام للمدارس أيضًا، تعطيل في وقت الصيف، فبعضها يمكث شهرًا ونصف، وبعضها ثلاثة أشهر.

الفصل السَّابع

في الحظ العمومي

١- التياتر: ابتدأ في بتر بورغ بهمة شاهزادة نتاليا أخت بطرس الكبير، وبُنى أول تياتر من الخشب، وكان اللاعبون عشرة والموسيقيون ستة عشر كلهم من الـــروُس، وأول دور لعب في ذلك التياتر: تراغيديا، يعني: رثاء.

وكان التياتر إذ ذاك على الخزنة، والناس يتفرجون مجانًا، ولما ماتت نتاليا، بطـــل التياتر إلى تملك القيصرة حنا، ثم دعيت اللاعبون الإيطاليـــانيون ثم الفرنســـاويون، وبتقدم الأدب الروُسي ظهر التياتر الروُسي، فصنف أولاً ســـوماروكوف تراغيـــديا روسية على كيفية التياتر الفرنساوي وسحر أقرانه، والقيصرة إيلزبيت اعتنت جـــدًّا بأمر التياتر، وقلما تغيب عن الحضور إذا لعب.

وفي سنة ١٧٥٥ لعبت أول أوپرة روسية «واريا» الذي صنف لها الموسيقى أنعم عليه بكرك ومئة نصف أمبريال، وفي أول مملكة كترين الثانية، أخذت التيـــاتر قـــوة جديدة، فأنعمت حيث جلوسها على التخت بتكثير الجماكي ، وتحســـين الملابـــس، وأرسل ديميريفسكي إلى البلاد الغربية؛ ليتقوى في صناعة الغنائم، ثم أرسل إلى باريز ليدعو بعض اللاعبين الفرنساوية، وبنيت مدرسة لتعلم التياتر، وبنى تياتر كبير مـــن الحجر سنة ١٧٨٤، وكل الناس تقدر أن تروح بثمن مقدر، وزاد ذوق الناس للتياتر ولا غروى، فالناس على دين [٩٣/ظ] ملوكهم.

كاترين كانت ماهرة جدًّا في هذا الفن كغيره، حتى إنها صنفت أدوارًا استخرجتها من التَّاريخ الروُسي والحكايات الروُسية، وبلغ عدد اللاعبين في آخر مملكتها إلى ٢١، واللاعبات إلى ٢٢، ومع أن التياتر الفرنساوي ابتدأ في زمان اليزابيت[1]، لكن كاترين ما وفرت شيئًا لتحسينه ورفع درجته، وزيادة على التياتر الميري كانت تياترات للكبراء، منها تياتر الأمير يوسويوف كل جمعة مرتين من خمسة لاعبين وخمس لاعبات، وهو أوبرة إيطاليانية، والمال من الكبرا ء محبي التياتر، ثم رتبت جمعية النيمساوية تياترين نيمساويين.

وفي سنة ١٧٦٨، رتب التياتر الإنكليزي، وبقي سبع سنين، ثم انقطع وما تجدد إلى الآن، وفي أيام القيصر اسكندر الأول زاد حسن التياتر، وكثرت جامكية اللاعبين واللاعبات.

وفي سنة ١٨١٧ خلص اللاعبين من الفردة، وفي زمن القيصر الحالي نقوله الأول بلغ التياتر الدرجة العليا، إذ بُني في زمنه بالحجر التياتر الإسكندري للألعاب الروُسية، والتياتر الحجري في جزيرة الحجر، وتياتر ميخائيل للألعاب الفرنساوية والنيمساوية، والتياتر يلعب طول السَّنة، إلا في أيام الصوم الكبير، وصوم وفاة مريم، وبعض أيام أُخر، لكن في الجمعة الثانية من الصيام الكبير، يعمل اللاعبون نوبات، ويظهرون مع ذلك صورًا حقيقية، فيحصل بذلك للناس السُّرور والتسلي، ويبتدئ

(١) للمزيد عن فترة حكم القيصرة إليزابيث انظر:
Moss, Walter G., Op. Cit., p. 256-257.

في المساء، وكذلك الرَّقص والنوبات إلا أنه تارة تعمل نوبات في النهار، وذلك لأن النَّاس مشغولون طول النهار، فينبغي لهم التسلي في الليل؛ لأن السآمة فيه أقوى، ولله دُر أبي هلال العسكري، حيث قال:

فاجعل الجِدَّ بالنهار شعارًا والْهُ بالليل ما بدا لكَ وألعب

كم تسربلت من رداء ظلامٍ ضحك اللهو منه إذ هو قطبْ

ورأيت الهموم بالليل أدهى وكذاك السرور بالليل أعذَب

٢- النوبة: ما كان ميل الروُس إلى صناعة الموسيقى وذوقهم مثلما كان في النيمسا وغيرها من الأوربا، لكن بعد ذلك انبثت الشهوة، وزاد الشوق في القلب الروُسي إلى هذا التمتع الروحاني، وفي وقت كاترين الثانية ابتدأت في بتربورغ جمعيات الموسيقى، وأحدث في سنة ١٧٧٢ أولها من ٣٠٠ عضو، وكل أسبوع [٩٤/و]تعمل ليلتين، تأتي الناس فيها بكثرة للسماع، لكن هذه الجمعية ما طالت مدمًا، ثم أحدثت أخرى تعمل كل سبت نوبة، وكل أسبوع رقصًا أو مسخرات، وأعضاؤها ٥٠٠ كل يدفع ١٥رُبلاً، والتخت يجلس عليه خمسون من أعظم الموسيقيين، وأول المغنين والمغنيات، وكل مشاهير هذه الصنعة في ذلك الزمان يجيئون في بتربورغ ويعملون النوبات، ويأخذون عليها مبالغ جسيمة من ١٠٠ إلى٢٠٠.

ثم بلغت هذه الجمعية حدها، وكل شيء بلغ الحد انتهى، فبيعت الآلآت والأثاث في محضر عظيم من الناس، ثم أحدثت أخرى، وبموت أعضائها ماتت، ثم في سنة ١٨٠٢، ابتدأت جمعية فيل أرمونيا يعني «محب الموسيقى» بقصد إعانة فقراء

الموسيقيين، ودامت إلى هذه الأيام، وقبل نيف وعشرين سنة كان رأس مالها ٦٠٠٠٠ رُبل، منها يعطي راتب لاثنين وعشرين من أرامل الموسيقيين كل سنة ٣٠٠ للواحدة، ومن ذلك الزمان زادت صرفيتها، واتسعت نعمتها، مع أنها لا تعمل النوبات العمومية إلا نادرًا مرتين في السَّنة.

وقبل نحو ستة عشر سنة أُحدثت جمعيات أخرى للموسيقى، وفي كل سنة خصوصًا في أيام الصيام تعطى نوبات كثيرة مشتملة على الغناء على القانون أو اللعب بالكمنجة أو بالناي ،خصوصًا للمشاهير مثل روبيني، فإن نوبته ساوت ٤٠٠٠٠ رُبل مع أنه ما غنى إلا أربعين دقيقة، وتارة تعمل نوبات باسم السقط أو المرضى، فيُؤخذ المبلغ ويُدفع لهم، وتارة تعمل نوبات مخصوصة في البيوت لأجل المعارف، فحينئذ يسمعون مجانًا، ومن حيث أن تربية النساء مستوجبة لتعليم الموسيقى والغناء، فلا يندر سماعهن في بيوتهن، وقد اتفق أني سمعت [/٤٩ظ] فتاة سوداء العيون والشُّعور تلعب على القانون، فأطربني ضربها، فقلت:

مصرية بعيونها وشعورها فبها ترى مصرًا بذيَّاك الحمى
لله در بنانها قد أحكم الـ قانون حتى كاد أن يتكلما

وبالجملة، فقد يعجبنا تارة لعبهم وغناؤهم إذا كان حسنًا كغناء روبيني، وبعض الإيطاليانيين المشهورين بحسن الضرب والغناء، وتارة يعجب الضرب دون الغناء، كما قال الشاعر:

غناءٌ تستحق عليه ضربًا وضربًا تستحق به غناها

وتارة لا هذا ولا هذا، كقول أبي الفتح الحلبي[1]، وهو أملح ما قيل في هجاء عواد:

ومُغنّ عن غيره غير مُغْنٍ	جاء في لحنه القبيح بلحنِ
كاد في كفه القضيب من الغيـ	ـظ ينادي يا أثقل الناس دعني

وقد كتب لي الخواجة فريسنل، قنصل جدة حالاً ما نصه:

«ومن خصوص الموسيقى، لا بد من واحد جني أو مَلَك من الملائكة يقضي ما بينكم وبيننا؛ لأننا لا نتلذذ بأغانيكم ولا تتلذذون بألحاننا، وأما مِن جهة الشعر والأدب، فجميعنا على ذوق واحد إن شاء الله إلا القليل، وإذا أقمتم بأرضنا مدة كم سنة كان الاتفاق بينكم وبيننا من غير استثناء قدرة الله آمين».

٣- الرقص: ليس إلا حركة خالية عن الفحش بالكلية، فهو في الحقيقة لعب لتسلي الحاضرين، فلذا يعتبره أهالي بتربورغ من أعظم المسليات بعد التياتر والنوبة، ويبتدئ من الخريف إلى الصوم الكبير، ويكون في القصر عند القيصر وعند الوزراء والأمراء وأرباب المراتب من ذوي السيف والقلم والأغنياء وشبندرات التُّجار

(١)هو: أحمد بن عبيد الله بن فضال، أبو الحلبي، المعروف بالماهر الحلبي. توفي سنة ٤٥٢هـ. الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج٤، ق٢، ص ٢١، وفيه الأبيات؛ وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمري، ج ٧١، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص ص ٢٥٧-٢٥٨؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ١٠، ص ٢٦.

وغيرهم، كل على حسب حاله، وتارة يكون عموميًا في [٩٥/و] مجلس الأعيان ونحوه.

وأول ابتداء الرقص في الروُسيا كان في زمان بطرس الكبير، وبه حصل للروس اكتساب قوانين الأوربا والملاطفة وحسن الخطاب الناشيء ذلك عن اجتماع النساء والرجال، فيتكلف الرجل في مخاطبة النساء ما لا يتكلفه في خطاب الرجال، حتى صار التكلف كلفًا، ولو لم يكن من ثمرات اجتماع النساء بالرجال إلا قصر النظر عليهن وعدم التعلق بالغلمان لكفى ذلك، كيف وفيه فوائد أخرى في العشرة وحسن الأدب وغير ذلك، وقد قلت:

ولو أن النساء تبدو بمصر ... ما سمعنا تغزلاً في غلام

كل هيفاء كالغزال بوجهٍ ... ساطعٍ نوره بغير لثامِ

قلبت برقعًا بعقرب صدغٍ ... أفَمِنْ لدغة الخدود دوامي

ولكل امرئ جليسٍ أنيس ... فاتقوا الله يا أولي الأحلام

أي غُدرٍ في عِشق رب عذار ... في هوى الغانيات أي ملام

وفي زمن كاترين الثَّانية كانت جمعية الرَّقص لازمة لحظ الكبار، وغيتهم زادت على الحد، والتزين والتفاخر والإسراف في الأعياد حتى عند التُّجار الروُس بلغ أقصى درجة، فتارة تغطي السُّفَر لآلاف من الناس وينفقون مبالغ جسيمة ٥٠٠٠٠ رُبل أو أكثر، وبقي من هذا آثار إلى الآن، لكن الأكثر البساطة وعدم التكلف في لبس الستات على الذوق الأوروبي، وإكرام الضيوف وأدب الأولاد، ولا يلزم الضيف أو

زائر الجمعية أن يرقص أو يلعب الورق، بل على كيفه، فيجوز له أن يجلس ويلاحظ من يلعب أو يرقص، إلا أنه قد يستثقل من يترك اللعب أو الرقص بلا سبب في البيوت لا في الجمعيات؛ لأنه لا تكلف فيها، قال بعضهم: لو حسب عدد الآتين في جمعيات الرقص، وفي الليالي المعمولة، وطرح منه عدد من يلعب الورق أو يتفرج كان الراقص واحدًا من مئة وستين.

ثم أنواع الرقص كثيرة، المشهور منها ثلاثة:

الأول: الفلس، وهو مفتاح الأنواع، ففي السهرات والأعياد أول ما يبدأون به، وكيفيته أن يأخذ رجل امرأة فيضع يده اليمنى على خصرها واليسرى في يدها اليسرى، وهي تضع يدها اليمنى على كتفه، ثم يلفان بحسب القانون الذي يضرب عليه القانون أو غيره من الآت الموسيقى، ويتولد من هذا النوع نوع يسمى البولكة «البسيطة»، و البولكة بالارتعاش بإمالة الرأس وإرعاش الجسد بغاية الصناعة، وهو بالعذارى [/٩٥ظ] أليق خصوصًا بالهيف لا بالسمان.

الثاني: الكدريل الفرنساوي، وهو التابع للأول، ففي العادة يرقصونه بعد الفلس، وهو أن يجتمع الراقصون، كل رجل مع امرأة وفي مقابلتهما كذلك زوجان أو أكثر في طول المقعد، وكذلك في العرض، وهو مركب في ست صور في جميعها يبتدئ الراقصون الذين في الطول. فإذا فرغوا من أول صورة بدأ الذين في العرض، وهكذا.

* الأولى: يمر كل زوج من الراقصين إلى مقابله، ثم يرجع إلى موضعه بحيث أن يتزحزح كل من الراقص والراقصة، ثم يتقدمان ويد كل واحد في يد الآخر اليمنى في

اليسرى وعكسه، ثم يلفان في محلهما دورة، ثم تذهب الراقصة فتأخذ بيد الراقصة المقابلة وتلف معها لفة، ثم يأخذ الراقص راقصة غيره ويلفها في موضعه، ثم تجيء راقصته فيمسكها بيده، ويذهب إلى الموضع المقابل ثم يرجعان إلى محلهما.

* الثانية: أن تذهب امرأة نحو الطرف المقابل إلى نصف المقعد، ثم تقهقر قليلاً، ثم تذهب كذلك إلى حيث المقابلون لها، ثم تكر راجعة، فقبل وصولها يمشي من ترقص معه أمامها قليلاً لملاقاتها، ثم تضع يديه في يديها على ما قدمنا، ويلفان لفة، ويفعل مثلها رجل من الطرف الآخر يقابلها، وعند رجوعه تقابله راقصته، فتمشي له قليلاً ثم تضع يديها في يديه، ويلفان لفة، ثم تذهب الأمرأة الأخرى، ويقابلها الرجل الآخر، فيتم أن كل رجل وامرأة رقص أمام مقابله.

* الثالثة: أن تذهب امرأة إلى المقابل ثم تكر راجعة إلى نصف المقعد، وتأخذ بيدها اليمنى راقصها وبيدها اليسرى الرجل الآخر الذي يفعل مثلها، ويكر راجعا ويأخذ بيدي راقصته، ثم يمشي [٩٦/و] الزوجان قليلاً، ثم يفترق كل زوج، فترقص المرأة أمام الرجل المقابل بأن تتقدم ثم تتأخر وهو كذلك ثلاث مرات، ثم تأخذ يد راقصها وتذهب إلى المقابل، والرجل الذي أمامها يأخذ راقصته ويذهب إلى المقابل، ثم يرجع كل إلى موضعه ثم يعاد ذلك، فيبتدئ الرجل والمرأة الأخرى على نحو ما تقدم.

* الرَّابعة: أن يأخذ الرجل بيد راقصته ويرقص معها إلى الطرف المقابل ويقف قليلاً، فترجع الراقصة المقابلة معها، وهو يمر بينهما ثم يتقدم لراقصته ويلفان وكذلك الآخران، ثم يأخذ الرجل الثاني بيد راقصته ويفعل كالأول.

* الخامسة: أن يأخذ الرجل بيد راقصته، ويذهب بها إلى الطرف المقابل فيأخذها الآخر على شماله وراقصته على يمينه، ويرقص معهما بأن يتقدم ثم يتأخر ثلاث مرات، ثم يأتي الرجل الأول فيأخذ راقصته ويرقص معها دورًا، ثم يرجعان، ثم يفعل الرجل الآخر كالأول.

* السَّادسة: كالأولى، إلا أنه تارة قبل ذلك يمشي كل زوج، ويد كل راقص في يد راقصته، وتارة يمنى الرجل على خصر المرأة ويسراها على كتفه إلى نصف المقعد، ثم يكر راجعًا.

الثَّالث: المزورق، وهو أن يجتمع أزواج كثيرة، ويجلس كل راقص مع راقصته كالحلقة، ثم يبتدي رجل مع امرأة، فيرقص معها بطول المقعد، ثم يكر معها راجعا، ثم يلفان واضعًا يده على خاصرتها، ثم الثاني والثالث، وهكذا إلى الآخر، لكن يحدثون بعد كل مرة شيئًا بأن تجلس امرأة في الوسط، ويأتي رجل تعينه يسمى «كاتم السِّر» فيقف عندها، ثم راقصها برجل وامرأة، فإن كان ذلك الرجل هو الذي تريد قامت ورقصت معه، ورقص رجلها مع المرأة المجلوبة، وإن كان غير الذي تريد، ويعلم ذلك بإشارة كاتب السِّر أن لا رقص ذلك الرجل مع المرأة المجلوبة، وأتى رجلها برجل وامرأة، وهكذا حتى يأتي الرجل الذي تريد أو بأن ترمي امرأة منديلها إلى الهواء [/٩٦ظ] فمن خطفه رقص معها، إلى غير ذلك، وليس في كل هذا ما يخلّ بالأدب، ولا يشم رائحة الفجور، وإنما هي عوائد وأخلاق لإراحة النفوس من الإرهاق، ولا يصدق ذلك إلا من رأى، وإن صد غيره ونأى:

وإذا لم تَـــرَ الهـــلالَ فســـلِّم لأنـــاسٍ رأوه بالأبصـــار

الرَّابع: المسخرات، جمع مسخرة، وأخذ الجمع من لسان العربي، وسمي به في لسان الروُس هذا النوع من الرقص، لكن أبدلت الخاء بالكاف واخترعه كرانتيس في سنة ١٥٤٠ لأجل إظهار حركة الشجعان، وأول من قاده في الروُسيا بطرس الكبير، يعني بهذه الكيفية، وإلا فالمسخرات في الميلاد موجودة في الروُسيا من قبل، ويكون رقص المسخرات في قصر الشتاء ومجمع الأعيان، وفي التياتر الكبيرة خصوصًا في عيد الرفاع، ولبس المسخرات مفتخر، ويلبسون المسك يعني جلدًا مصورًا، وجهًا قبيحًا أو شيئًا من حرير يغطي الوجه، ومن أراد الرقص رقص، ومن لا تفسح، ويتوصل بهذه الطريقة إلى الكلام مع النساء؛ لأنهن غير معلومات فيقول الرجل: أنا أعرفك ويترل عليها، وكذلك النساء، وربما كان وسيلة للتعرف بالكبار، وتارة يكون هناك من النساء قليلات الاحتشام، ولما رأيت ذلك أول مرة تذكرت مصر، فإن النساء مغطات الوجوه إلا أن كثيرًا بلا مسك، والقيصر يحضر المسخرات ويمشي مع امرأة لابسة مسكا، وكذلك العائلة الملكية، ويزيدون تارة في المسخرات القمار وهو تحف ظريفة، وطرف لطيفة يبيعونها على البخت لمصلحة الفقراء، فيكتبون أوراقًا صغيرة وينمروها ويبيعون كل ورقة برُبل فضة مثلاً، فمن غلب أخذ ومن لا فلا، وتارة يفعل هذا استقلالاً.

الخامس: لعب الورق: جرت العادة عند الروُس لأجل تقضية الزمان، أنهم إذا جاؤوا عند المعارف يلعبون الورق فيجلس اللاعبون [/٩٧و] ثلاثة أو أربعة على

سفرة، ويعينون أولاً قدر الدراهم لكل ضربة كبيك فضة، أو عشرة أو أكثر، بحسب مقام اللاعبين، ثم إذا فرغ اللعب أعطى المغلوبون للغالبين، ويوضع من تلك الدَّراهم ثمن الورق الذي يصنع في فبريقا لفائدة بيت اللقطاء، ثم إذا طلبوا اللعب ثانيًا أو طلب غيرهم أحضر الخادم ورقًا آخر جديدًا، ودائمًا يحضر زوجًا؛ لأنه إذا فرغ دور أخذوا الورق الذي لا يلعب به، وفرقوه بينهم اثنين اثنين، وفي ذلك الوقت يخلط الورق الذي لا يلعب به لئلا يضيع الوقت في غير اللعب، وهذا قمار محض، إلا أنه في هذه البلاد سار بين العباد، فقلَّ مَن لا يلعب حتى من النساء والبنات، ويعدُّون ذلك من أحسن المسليات، فإن الضيوف إذا اشتغلت مع بعض في الورق كفت أصحاب البيت مؤنة الملاطفة خصوصًا إذا كثرت الضيوف.

وفي بعض البيوت ينضم إلى لعب الورق غيره من المسليات مثل الرقص، وتارة لا، فيقضون الليل في هذا النقار والقمار، وإذا نظرت لهم في وقت اللعب نظرت غالبًا إلى معركة صغيرة، والمغلوب يتأوه ويتألم مع أنه يتكلف في إخفاء ذلك، وربما سبب تغير الخواطر، ومن فرغ كيسة ربما لعب بالشكك، وربما ضيَّع في اللعب ضِيَاعَه، وجلب الطمع له ضَيَاعَه، واللعب المشهور الآن يسمى بريفيرانس، وهناك لعب آخر يسمى «الڤيست» أقل شهرة.

وأنواع لعب الورق لا تحصى، منها نوع يسمى «ميلنيك» يعني الطاحونة؛ لأنه يدور طويلاً، ومنها نوع يسمى «دورسكي»، فمن غلب يسمى «دورك» يعني: مغفل، وهذان في الغالب بين الصغار والعوام، وهناك لعب للنساء يسمى «پسيانس»

يعني: الصبر وهو نوع من الحرز، [٩٧/ظ] فيُكهّن بالورق للآخر، وقد اتفق أن حرزت لي بنت بالورق، فقالت: يصلك مكتوب عن قريب، وبالاتفاق وصلني المكتوب وأنا في بيتها، أتاني به بعض الضيوف، فأريته إياها، ففرحت، وقالت للناس: انظروا: صدق كهانتي، ولذا قلت من قصيدة في جواب ذلك الكتاب لمن أرسله لي مورِّيًا:

وقد وردت لي من لديك صحيفة	وقد سبقت لي من فتاة بها البشرى
ومن عجبٍ جاءت إليَّ ببيتها	فحقَّقْتَ إثبات الكرامة للعذرى

وقد كتبوا كثيرًا في أصل لعب الورق، لكن ما كشف أحد الحقيقة في اسم المخترع، والنَّاس المنسوب إليهم اختراعه، قال ريل الخوري: يعرف لعب الورق في إسبانيا في نحو ثلث القرن الرابع عشر من الميلاد، وأيَّد رأيه بمنع الفونس ملك كستيل لعب الورق بالفلوس سنة **١٣٣٢**، وآخر ينسب ذلك إلى النيمساوية كان جبيلينا، أتى بالورق من قدماء المصريين، ومع ذلك ادعى عدة من العلماء ببعض أدلة أن فرانسا كانت مهد الورق.

وبعض المؤرخين أوصل أصل هذا اللعب إلى مملكة شرل السَّادس، وأن اختراعه كان في زمنه لأجل تسليته في وقت راحته وفراغه، وعلى قول هؤلاء المؤرخين، فاللعب المسمى «بيكت» اختُرع زمن شرل السَّابع وداود ملك بيك في كلامهم كناية عن شرل السَّابع، وأما شرل ملك كور فشرل مايِ، وأمَّا سيزار ملك كرو، واسكندر ملك ترِفْل فما حققوا فيها شيئًا، ويظهر أنهم أرادوا بهما ملكين من ملوك

فرانسا؛ لأن بشعر العيرة الطويل والنعال المصورين بهما لا يشبهان بالكلية شـــجعان رومة ولا مقدونيا الذين لهما اسمهم، ويؤيد ما ذكرنا أنه يوجـــد في الـــورق القـــديم المحفوظ زهر الزنبق [/٩٨و] في عباءة الملكين، وهذا علامة الفرنساوية، وقد قلت:

هيفـــاء افرنجيـــة قـــد رَنَـــت تخطـــر في الحلـــي والاســـتبرق
فـــالآس والنســـرين في شـــعرها والـــورد والزنبـــق في القرطـــق
ســـــألتها نســـــبة آبائهـــــا قالـــت ألم تنظـــر إلى الزنبـــق

وارجين ملكة تريفل كناية عن زوجة شـــرل الســـابعماريـــه دونجـــو Marie Dunjon، وأما راسد ملكة كرو فهي اكتيس سؤرل، وأمَّا پالاس ملكة پيك فهـــي چان دارك، وأما چوديت ملكة كور فهي القيصرة بهذا الاسم زوجة لويز لبئون يعني الطيب، وأمَّا لاهير خادم كور فهو كناية عن قبطان كبير في وقت شرل السَّابع.

وأما هيكتور خادم كرو فهو هوكتور غالودان شجاع في ذلك الوقـــت، وأمـــا أوچير خادم پيك فكناية عن شجاع في أيام شرل ماني، وأمَّا لانسلو خـــادم تريفـــل ففارس في ذلك الوقت، والخدام الأربعة المسماة في لعب الاسبانيول بالفرسان، كناية عن الأعيان والسبعات والثمانيات والتسعات والعشرات كناية عن العسكر، والآس كناية عن المال والصيد مأخوذ من الكلمة اللاطينية «آس» يعني «معاملـــة روميـــة» والاثنان والثلاثة والأربعة والخمسة والسِّتة كناية عن العامة، ولذلك تسمى «الورق الأدنى» وما كانت في عهد شرل السَّابع بل أحدثت بعده، وهذا اللعب كناية عـــن معركة تتقاتل فيها العسكر لحفظ الأعيان والملوك، لكن حربهم وإن أجدى لا يُرقّيهم

إلى رتبة الملوك، كما هو عادة مخترعي هذا اللعب، بخلاف الشطرنج، فإن معركة ربما ترقى فيها البيدق إلى مرتبة الفرزان، ومجالسة الملوك كما هو عـادة مخترعيـه، ولله القائل ابن قلاقس الفاضل:

والصغير الكبير يسـمو بـه السـير فيصـنو لـه الجليـل الكـبير
فـرزن البيـدق التنقـل حتَّـى انحط عنـه في فـم الدسـت فيـل

وأبو الفضل التميمي[1]:

دعـني أسِـر في الـبلاد ملتمسًـا فضـله مـال إن لم يفـر زانـا
فبيدق الـرُّخ وهـو أصـغر مـا في الدسـت إن صـار فـر زانـا

[٩٨/ظ] السَّادس: جري الخيل: هذا من مقضيات الزمان اللذيذة، ومـن نحـو سنتين، بنى لذلك تياتر فيجرون على الخيل، ثم ينطون من فوقهـا علـى حبـل ثم يرجعون، وتارة يرقصون عليها أنواع الرقص وبالجملة، فقد أدخلوا ذلك في التياتر، وصاروا يلعبون في كل أسبوع مرارًا، والناس يذهبون بكثرة لرؤية ذلك، وفي الصيف سباق الخيل في تساركي سلو لمن سبق الرهان، وكذلك في الشتاء على النيفا، وربمـا تسابقوا في الزوارق صيفًا وخصوصًا الإنكليزيون.

(١) محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان التميمي، أبو الفضل. توفي ٤٥٤هـ، وقيل سنة ٤٥٥هـ. الذهبي:تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج١٠، ص٦٤؛ والصفدي:الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج٤، ص ٦٧.

الفصل الثّامن

في تقدمهم في العلوم والفنون

لم تزل الروُس يومًا فيومًا تنافس غيرها من الأوربيين في العلوم والصنائع، حتى تقدمت في ذلك، ولهم كما قدمنا أكديميات للعلوم والتصوير والطب وغير ذلك، ولهم المدارس العظيمة، مثل المدرسة القيصرية الكبرى المسماه «الأونيفر ستيت»، وفيها تتعلم التلامذة الذين فرغوا من التّعليم اللازم في المدارس الأخرى، فيمتحنون للدخول في المدرسة الكبرى، فإن أجابوا دخلوا، وهناك يبقون أربع سنين، يتعلمون الفقه، والدين، والرياضيات والأدبيات، والمنطق، وعلم المعادن، والحكمه، والطبيعة، والجغرافيا، والتواريخ، والألسن، حتّى الألسن الشرقية: العربي والتركي والتتاري والفارسي والأرمني والكرجي، وفي كل سنة يعمل لهم بحث، فإن أجابوا نقلوا إلى ما يلي، وإلا بقوا، فحينئذ بها تحسب السنة لهم.

وعدة المدارس الكبرى في الروُسيا ستة: واحدة في بتربورغ، والثانية في موسقو، والثالثة في خاركوف، والرابعة في قزان، والخامسة في كييف، والسّادسة [/٩٩و] في دربات، وهناك مدارس أخرى تسمى «اينستيتوت» و«ليسي»و«غيمنازيا»، ومكاتب للأطفال ما يبلغ ٢٣٠. وفي كل سنة يزداد ذلك، وفي المكاتب والمدارس الصغرى يعلمون البنات أيضًا كالصبيان، فيتعلمون النحو، والمنطق، والرياضيات، والأدبيات،

والتاريخ، والألسن، والرقص، والتصوير، والموسيقى، وتزاد البنات: الخياطة وشغل الطارة والإبرة والمنسج، وتزاد الصبيان: لسان اللاطيني والرومي القديم.

وقد حضرت غير مرة بحث الصبيان والبنات، وعجبت من حُسن إجابتهم عن سؤال الباحثين، فالبنات عالمات حقيقة، وبعلمهن يعشن خصوصًا إذا كانت الأقارب فقراء، فتعلم البنت التي فرغت التَّعليم أولاد الكبار بماهية سنوية تليق بحالها، وربما أعانت أقاربها، وبعض هذه المدارس ميرية، وللصم البكم الذين يعقلون مدرسة فيها يتعلمون العلوم والتصوير والرقص والألسن، لكن لا يتكلمون إلا بالإشارة، ولكنهم يكتبون كغيرهم ويرقصون كغيرهم، ومن عجيب ما رأيت أني حضرت ليلة رقص عند رجل من الصم والبكم، فكان كثير من الراقصين والراقصات منهم، وكان اللاعب على القانون أعمى، فصاروا يتعجبون منه كيف يعرف اللعب وهو لا ينظر، وصار يتعجب منهم كيف يرقصون على الموسيقى وهم لا يسمعونها:

ولم يـرَ عيبه أحدٌ ولكن يرى في الناس كلهم العيوبا

وكذلك للقطاء بيت فيه يربون، لكن لا كتربية الأكابر، بل كتربية العامة، فالذكران يكونون عسكرًا، والإناث يخدمون بنات الأكابر المتعلمات في المدارس الميرية، وهذا من الخيرات والمصالح العامة، إذ اللقيط منبوذ لا كافل له فمن لم يكفله بيت المال فمن كافله؟ [/٩٩ظ] وهب أنه ابن حرام، فماذا ذنبه؟ والعجب أنه إلى الآن لم يُعمل بيت للقطاء في ديار الإسلام مع تقدم التمدن واقتضاء الشريعة، وهذا

مثل المارستانات والقِشل والاوسبتاليات التي هي كثير في هذه الدِّيار، وكـذلك في ديار الإسلام الآن بمعونة الدولة العلية.

خرجنا من ذِكر العلوم والفنون إلى بيوت اللقطاء وذوي الأمراض والجنون:

ولربما ذكَرَ المحدِّثُ بعض ما ليس النديمُ إليه بالمحتاجِ

وثمرات العلوم الكسب بها والفخر والرتب، فمن تعلم خدم بعد فراغ التعليم في تعليم الآخر، وربما كتب شيئًا وبثه في الجرنالات أو طبعه مستقلًا، فيحصل له مدخول من ذلك، ولا تستنكف النَّاس حتى الأغنياء من ذلك، كما كان في قديم الزمان، ومدخول الأدباء كثير في الروُسيا، وفي فرانسا أكثر مثلاً، من كتب عندهم غناء وقبل في التياتر، يعين للنَّاظم في كل مرة يغني شعره جزء من محصول ذلك الدور، وأحد هؤلاء الكتَّاب مسيو سكريب، كتبَ في حياته بإعانه المشتغلين معه ٣٥٠ دورًا، وفي سنة ١٨٣٢ قبل منها مدخولاً إلى مبلغ ١٤٨٠٠٠ فرانك، ومن ذلك الجرنالات وعددها الآن جاز الحد، ففي بتربورغ بعضها يومي مثل «نحل الشمال» ، و «السقط» و«أخبار بتر بروغ» وكلها روسية، ويكتب فيها زيادة على الأخبار بعض أدبيات، وبعضها شهري مثل «ابن الوطن» و«الكتابة الوطنية» و«المعاصر» و«كازيطة الأدب» و«خزانة الكتب للقراءة»، فكل شهر يظهر منها كتاب، وفي السَّنة ستة مجلدات، وهذه كتب أدبية جديدة يكتبها أدباء العصر، ويظهرونها في قالب الجرنالات للتنشيط.

وهناك جرنالات شهرية للأطفال يكتبون فيها نبذًا من العلوم والحِكَم والحكايات المُسلية اللائقة بهم، وهناك جرنال فرنساوي ونمساوي، هذا مع قبول الجرنالات الغريبة من فرانسا والنيمسا وغيرهما، ومن ذلك تعلمهم الألسَّن، [/١٠٠و]فالروُسي زيادة على معرفة لسانه يتعلم الفرنساوي والنيمساوي وتارة الإنكليزي والطلياني، وأمَّا اللاطيني والرومي فيتعلمون، ولكن قلَّ مَنْ يتكلم بهما، فيندر أن ترى رجلاً أو امرأة في مجلس لا يتكلم بالفرنساوي والنمساوي، حتى أن كبار الروُس لهم زهادة في لسانهم، فتراهم يتكلمون بالفرنساوي، وبعضهم يتكلم بالروُسي، لكن يحليه دائما بالجمل الفرنساوية في الأثناء، ومنهم من يتعلم الألسن الشَّرقية، وكثير من الروُس مَن مهَر في هذه الألسُّن، وبرع فيها، فكم ترى في بتر بورغ وفي الآسيا والأفريقا من يحسن ذلك منهم، وقد أغنوا دولتهم عن اتخاذ الغرباء ترجمانات كما كان في السابق.



الفصل التَّاسع

في سكنى الروُس ومعيشتهم ومركوبهم

اعلم أن بيوت الروُس مبنية غالبًا بالحجر، وتارة بالخشب، لكن مع الإحكام بحيث تقي من البرد، وهي أدوار ثلاثة أو أربعة أو خمسة، وفي كل الأدوار حتى في الأول الشبابيك والبيوت التي في الحارات المعتبرة في دورها الأسفل الدكَّاكين والثَّاني مسكون بالنَّاس، وكل مسكن مستقل وحده، مثلاً قد يسكن في البيت الواحد عدة عائلات مختلفات كل في مسكنه، وفي مدخل الباب أوضة صغيرة، فيها يقلع الداخلون فراويهم وعباءاهم، ثم منها يدخل إلى أوضة كبيرة فيها القانون، ثم منها إلى أخرى تسمى مقعد الضيوف، وأخرى للطعام، فلا يأكلون حيث يجلسون غالبًا، وأوضة أخرى للاشتغال، وأخرى للنوم، وللكبراء أكثر، وللفقراء أقل، وأثاثهم الكراسي من خشب الجوز أو الخشب الأحمر ، وربما بطَّوها بالجوخ ونحوه، وتارة يعملونها من الحرير ويحشونها بشعر الخيل، ثم السُّفر وبعضها مستطيل مثل سفرة الكتابة والسُّفر الموضوعة أمام المرآة وبعضها مستدير مثل سفرة الطعام [/١٠٠ظ] ثم المرآة، وفي كل أوضة اثنان أو أكثر بحسب اتساع المحل وضيقه، وهي طويلة.

وفي كل أوضة مدخنة محكمة تدفئ كل يوم في أيام الشتاء، وبسبب ذلك الروُس متعودون على الدفا في البيوت، ففي الأوضة نحو أربعة عشر درجة حرارة، فلا عجب حينئذ إذا شكوا في مصر أو إسلامبول البرد لعدم حرارة الأوض عندنا إلى هذا القدر

في الشتاء، وعدم المداخن إلا المنقد الذي لا يدفئ التدفئة الكافية كما أنه لا عجب إذا شكوت من الحر في بتربورغ؛ لأن حرها وإن قل مضعف جدًا بسبب خلوة من الرِّيح والنَّسيم الرطب، وبهذا السبب بعينه لا يمكن السكنى في بتربورغ في الصيف، فترى الناس يفرون منها إلى الرِّيف والضواحي والبلاد الغريبة.

وبيوت ضواحي بتربورغ محكمة إلا أنها ليست كإحكام بيوت المدينة مثلاً، في المدينة تضاعف الشبابيك من الخريف إلى الربيع، ثم ترفع الشبابيك الزائدة، والمداخن مبنية بقطع البلاط المدهونة بالأبيض بحيث لا تشوه الأوض، ومن تحسين البيوت أنهم يلصقون على الجدران أوراقًا طويلة عريضة منقشة، كل على حسب ذوقه،وبعضهم يكتفي بالتبييض بأي لون يعجبه، ويعملون للشبابيك زيادة على الستارات البيض ستائر طوال من الحرير أو الجوخ أو الشِّيت يمسكونها بأيد من التنباك ونحوه.

وربما علقوا على الجدران صورًا جميلة، وعلى سفرهم أشياء لطيفة مثل الشمعدانات والقناديل الفضة، أو التنباك والدوى الظريفة، والتُّحف النفيسة، واللعب البديعة، وربما زينوا الشبابيك بقصاري الأزهار، وربما فعلوا نحو عريش من الأزهار في وسط الأوضة ويبسطون السجاجيد أمام السُّفر والدواوين [١٠١/و] النقَّالة والبيوت مبلطة بالخشب، ويغسلونها كل يوم سبت، وتارة يصقلونها بالشمع الإسكندراني، فيكون براقة لمَّاعة، وهذه البيوت بعضها بالكراء وبعضها بالملك، فمن ليس له بيت اكترى، والكراء غال في هذه البلاد خصوصًا في المضايف المعدة للمسافرين.

ثم الغالب أن يأكل الشّخص في بيته بأن يهيىء له الطبَّاخ أو الطبَّاخة الغداء، وأكلهم الشوربة، ويحب الروُس شوربة الكرنب، وقبل الشوربة يشربون العرقي قليلاً، وربما أكلوا فسيخًا أو جبنًا لجلب الاشتهاء، ثم بعد الشوربة الخضار ونحوه، ثم الكباب، ثم الحلو الفطير أو نحوه، وفي مدة الطعام يشربون الرَّاح كالماء القراح، وأكلهم بالسكَّاكين والشوك والمعالق، وكل يأكل في صحنه، ويأكل بسكينته وشوكته ويشرب من كبايته وقدحه، فإذا فرغوا من أكل كل شيء غُيرت الصحون وهكذا إلى آخر الطعام.

وفي الأعياد يشربون خمر الشامباني في أقداح طوال على صحة صاحب العبد، ثم بعد الغداء يشربون القهوة في أقداح كبار لا في فناجين كفناجيننا، لكن يشربونها بالسُّكر والحليب، وفي الصِّباح منهم من يفطر عليها، ومنهم من يفطر على الشاي أو الشوكولات، وفي المساء يشربون الشاي بالحليب أو الليمون أو هكذا، والشاي لازم جدًّا في هذه البلاد خصوصًا في السفر، فهو يقوي البدن وينعش الجسم، وفي أول شربة يمنع النوم لكن بعد التعود عليه لا يضر، ويشربون الدُّخان في السبقات، وتارة يشربون السيجار وتارة الدخان في الورق الملفوف، وندر شرب الشِّيشة إلا عند الفرس، فهم المتوحدون في هذه الدِّيار بتعاطيها، والعاملون بما قيل فيها:

هات اسقني التنباك من نرجيلة	نغماتها تُغني عن القانون
تغني المزاج عن العلاج وربما	يغني بها الآسي عن القانون

القانون الأول: آلة الموسيقى، والثاني: كتاب ابن سينا في الطب، وقد اتفــق لي جناس في القانون تامًا ومركبًا، فقلت مواليًا:

في وصـــف حاجـــب علـــى الألحـــاظ القـــانون
ســـطرت نوبـــة علـــى الســـنطير والقـــانون
يا اللـــي رضـــابك شـــفا يـــروي عـــن القـــانون
ارحـــم متـــيم غـــدا جســـمه يشـــابه عـــود
وزاد غرامـــه ولا حـــدش لســـقمه يعـــود
ما به صدود مـــن حبيـــب قلبـــه وخلـــف وعـــود
مـــا بـــه عـــذول في غـــرام زاد علـــى القـــانون

قد استطردت في هذا الباب لأنه باب كيف مع أني ما خرجت عن القانون.

وإكرام الضيوف في المساء بالشاي والدخان وأنواع الفواكـــه والحلـــوى، وفي الصبح تارة بالقهوة [/١٠١ظ] والدُّخان، وإذا جاء الضيف فلم يجد صاحب البيت ربما قبلته امرأته وجلست معه حتى يجيء زوجها، وإن كان معرفة لهـــا ولا نكـــير في ذلك فللنساء المحل الأول، وهن المدبرات لأمور البيت، الململمات لشعث الزوج:

إذا لم يكن في منزل المـــرء حُـــرَّةٌ تدبره ضـــاعت مصـــالح حالـــه

فلهذا لا يستعجلون في التزوج حتى يعرف طباع الزوجة وخلائقها فإن سيئة الخُلق تَمُل مُمِل فلهذا ترى كثيرًا يعيشون عُزابًا ويخافون أن يلقوا من الزوجة بدل من العُذُوبة عذابًا، كما قال الكيا أصفهدوست الديلمي[(١)]: [الكامل]

ياطالب التزويج إنك بالذي	تبغيه منه جاهل مغرور[(٣)]
هل أبصرت عيناك صاحب زوجة	إلا حزينا ما لديه سرور؟
لا تبغ في الدنيا نكاحًا لا زنا[(٢)]	وافعل بها ما يفعل الزنبور
أو ماتراه حين يدرك فرصة	يدنو فيلسع[(٤)] لسعة ويطير

ولهن على السُّفرة المجلس الأول، وأول ما يُعطى الأكل لهن، وكذلك في الكنيسة، وفي مجالس الرِّقص، ويستلطف أن يأخذ الرجل بيد امرأة لإعانتها على المشي أو إصعاد السَّلالم، وربما قُبلت أيديهن، وتارة يكون ذلك في القصر، فتأتي الضباط والكبار، ويقبلُون يد الأميرة، والعادة طبيعة ثانية، ولعنان القلوب ثانية، ثم مراكبهم العربات الثَّمينة بمحلَّين أو أربعة مقفولة، وتارة مكشوفة، وهي الكاروصات المستعملة في الربيع والصَّيف غالبًا، والدروشكي بمحل واحد، واللنيكة بمحلين، وكل ذلك

(١) أسبهدست بن محمد بن الحسن بن شيرويه الديلمي، أبو منصور الشاعر،توفي سنة ٤٦٩هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٨، ص ص ٣٨٤- ٣٨٥؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، مصدر سابق، ج ١، ص ص ١٦٢ـ ١٦٣.

(٢) في فوات الوفيات: لازمًا.

(٣) في فوات الوفيات: معذور.

(٤) في فوات الوفيات: ويلسع.

يوجد للكراء، إلا أن الكبراء والأغنياء يقتنون ذلك ويتأنقون فيه، ويجر العربة فرسان أو أربعة، وأمَّا الدروشكي فواحد، وهناك عربات كبيرة للسفر، وعربات لنقل الأمتعة في غاية الحقارة، وهناك عربات طريق الحديد يجرها البُخار، وذلك إلى تسارسكي سلو، وربما ركبوا الخيل خصوصًا أرباب السِّيف، وتارة تركب النساء الخيل، لكن حينئذ يلبسن برانيط الرجال ويسمين «أمَزون»[1] وبنات القيصر مشهورات بذلك، وكذلك بنات الكبار.

وفي أيام الشتاء يركبن الجرّار، وهو عربة بلا عجل، لكن يزلقها الثَّلج فتمشي بالعجل وهو أسهل المركوبات، [١٠٢/و] وفي أوَّل هجوم الثَّلج يتسارع الناس إلى ذلك زرافات ووحدانا، ويسدون عن نفوسهم بذلك أحزانًا، وقلت:

في الثلج أغدو للصفا في عربات الزحلقة
فبترسبورغ كلها حصيرة مزحلقة

(١) أي: المرأة المسترجلة.

الفصل العاشر

في لسان الروُس

أصله الصقلب، ولسان الروُس غنيٌّ جدًّا كالألسنة القديمة، وفيه الإعراب كما في لسان العربي، فالمبتدأ والخبر لا تغيير فيها، بل على أصل الكلمة، المضاف إليه مفتوح، والمجرور مخفوض، والمفعول تارة منصوب وتارة كالمبتدأ، والمعطى له مضموم،إلى غير ذلك مما فُصِّل في نحوهم، وفعل الكون لا يستعمل في الحال بل يحذف كما في العربي، فتقول: يَا راض يعني أنا راضي[1]، وعندهم علامة المؤنث في الاسم والوصف تارة كالعربي، مثلاً: الكساندره، يعني: اسكندره وتسهل الترجمة من ألسننا الشَّرقية إليه، وبالعكس للموافقة في كثير من المعاني والتصورات، وأمثلتهم موافقة لأمثلتنا كثيرًا، وفي حروفهم الخاء، وعندهم أصوات الحروف الغليظة كالصَّاد والطاء، فلهذا يسهل عليهم التلفظ بالعربي أحسن من غيرهم من الأوروبيين، ومما يوافق فيه العربي قولهم للشخص في الإخبار عن موت بعض الأشخاص «امر لك بالمعيشة زمانًا طويلاً»، وهذا بالكلية، مثل قولنا في هذا المعنى: «تعيش»، وفيه كلمات كثيرة أُخذت من لسان التاتار والنيمساوي والفرنساوي، وتركيبه سهل، فيجوز تقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفعل والفاعل إلى غير ذلك.

(١) بالهامش الأيسر من المخطوط كتب المصنِّف: راضه يعني: راضية.

ولا يستعملون للدلالة على الآلة والواسطة ولا للدلالة على مَن له الشيء المسمى عندهم داتلني يعني: المعطى له [/١٠٢ظ] حرفًا، بل يدل عليه بتغيير الكلمة بنوع مخصوص، وأشعار الروُس بديعة للغاية وبعضها كأشعارنا، وقلت مترجمًا شعرًا روسيًا في مدح شجاع:

إذا ركب اللجَّات جاشت مياهها وإن مرَّ في طود تقعقع جلده
وإن طاف ما بين البلاد تدهدهت وترمي وراء السحب أبراجَها يده

وقلت مترجمًا:

الزهر إن جدَّ لا ينمو بغير هوًا والقلب إن شبَّ لا يحيى بغير هوى

وقلت كذلك:

لأجلها وحدها الآفاق نيرةٌ والبلبل والطير قد غنَّى على الزَّهر
كالندَّ عَرفًا ومثل البان قامتها لطيفة مثل وردٍ زِينَ بالخفر
سما الجنوب التي تزهو كواكبها تلوح من عينها الزرقاء للنظر

ومما ينبغي أن نتنبه له أن المترجم من لسان لا بد أن يلاحظ ما يكون مقبولاً في اللسان الآخر، وإلا غيَّر، كما فعلت في هذا الشعر الأخير، فإن الشَّاعر في الأصل شبه القامة بالنخلة الهندية، وهذا بديع في اللسان الروُسي، مُستهجَن في العربي، فلذا غيَّرتُه إلى البان، والمؤدَّى واحد، وهنا حبست عنان القلم، قلت له:

يراعيَ كُفّ الخوض فالبحر زاخرٌ ولاتتجارى قد جرى منك ما يكفي

والله أسأل، وبنبيه أتوسل، أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السُّدة العلية والعتبة العثمانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحـودوا عـن سـبيل الاعتساف، فما قصدي إلا التبصير، ولا مرامي إلا التذكير، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وقد تم بحمد الله تبييضه في يوم أوائل شهر ربيع الأول سنة **١٢٦٦** من هجـرة سيد المرسلين، وأشرف النبيين عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسَّلام، الموافق ذلـك لأوائل كانون الثاني في سنة **١٨٥٠** من الميلاد، والله ولي السداد على يـد مصـنِّفه الفقير:

محمد عيَّاد المصري الطنطاوي

بتر بورغ

[١٠٣/ظ] فهرسة الكتاب

حصار ارينسبورغ

أخذ ريفال

جسم دكروا

تزوج أمير كورلاند بنت أخت القيصر

وإشهار ذلك الفرح بليالي الرقص

بناء دير إسكندر نيفسكي

قصر كاتيرينغوف

بيت البوصطة

إنزال الغليون بولتافا من المنحرة

إنزال سفينتين من منحرة بتربورغ باسم ولي العهد وزوجته

محاصرة هلزن فورس

سيوى بورغ

أول كتاب طبع في بتربورغ

وصول الجي الفرس بهدايا وسباع وأثمار وفيل

بناء الكبار البيوت الكبار

[١٠٥/و] نيفسكي بروسبكت

مكتبخانة العمومية القيصرية

غوستيني دفور

البّاج

وصول ثاني مركب تجارية إلى بتربورغ

ضرب صفيحة لتذكار فاتحة التجارة

نقل المحاكم من موسقو إلى بتربورغ

وفود سفير ازبك

كرونشتاد

أمر القيصر بمجيء ٣٥٠ عائلة من أغنياء الأعيان من موسقو إلى بتربورغ

أسر قبطان السويد إيرنسشليد مجروحًا

أخذ هانكوت وجزائر الانـد وابـو وغيرها

انتقال القيصر من رتبة رئيس إلى رتبة نائب قبطان

خطبة بطرس يوم إنزال الغليون المسمى شليسلبورغ

إحداث نشان كترين

انتقال القيصر لرتبة ساري عسكر

وفود رهائن الروس من إسلامبول

منع بناء البيوت بالحجر في غير بتربورغ مؤقتا

أمر السفن والعربات الواردة بحمل الأحجار معها

منع إسكان أحد بلا ضمان أو ورقة شهادة

إرسال أهل الخبرة لأجل الجمرك وتفتيش المراكب

الزورق الذي ولد لبطرس عمل الدننما

إحضار الزورق إلى شليسيل بورغ

وعمل الأفراح له وتسميته جدَّ الدننما

وصول سفير الفرس

بيت المدارس

مدخول بتربورغ إذ ذاك

أكديميا العلوم سفر بطرس إلى الماء المعدني

إشهار بطرس تتويج كترين بعده

نقل عظام إسكندر نيفسكي من فلاديمير إلى بتربورغ

مرض بطرس

نزوله في الماء لتخليص زورق وقف في الرمل

موت بطرس الكبير

جلوس كترين بعد بطرس على التخت وتقويتها المملكة

[١٠٧/و]جلوس بطرس الثاني وتعميره بعض جزائر وبناؤه كنيسة اللوتيريانيين

القيصره حنا يوحنا توقنه أظهرت رونق بتربورغ

الهلال الكبير المذهب على الترسانة

تعميق مويكة

بناء محل كبير للعسكر

منع بناء غير بيوت الحجر على الساحل القصري

بناء خطوط وسيلي اوستروف

القيصره إيليزبيت

كنيسة نقولة البحري بقباب مذهبة وغيرها

القيصرة كترين الثانية

تبليط ساحل النيفا وسواحل الخلجان بالحجر الصوان

بالوعات في الحارات

باب النصر

أثر بطرس الكبير

قصر الشتاء

كنيسة إسحاق

قصر المرمر

قصر توريد

أكديميا التصوير

أبوالهول

أكديميا العلوم

[١٠٧/ظ]التياتر الكبير

القيصر بولص

مدرسة النجارة

تمت الفهرسة تقوم

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر:

- ابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأُدبائهم، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١، تونس، دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٠.
- الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط٢، بيروت ، ١٩٨٣، ص ١٦٥.
- الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ج ٣ ، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٣.
- جلال الدين السيوطي؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (تحقيق) محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢، المكتبة العصرية، بيروت ، ط١، ١٩٦٤.
- ابن حبيب السكري، شعر الأخطل، الأب أنطوان صالحاني اليسوعيين، الطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت، ١٨٩١.
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، دار الجيل ، بيروت، ١٩٩٣.
- ، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق:د. حسن حبشي، ج١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩.
- الحريري: مقامات الحريري، بيروت، دار صادر، ١٩٨٠.
- ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شعيتو، ج٢، بيروت، ط١، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧.
- حسن اليوسيي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، حققه: د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، ج١، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، ١٩٨١.

- الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، قدّم له، راجـــي الأسمـــر، ج٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عبـــاس، ج٣، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢.
- ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيـــق: شـــوقي ضـــيف، ج١، القاهرة، ط٤، دار المعارف.
- وابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، ج ٤، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣.
- الشريف المرتضى، أمالي المرتضي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبـــراهيم، ج ١، الناشر عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٤.
- ابن الشعار: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (المشهور بـــــ: عقـــود الجمان في شعراء هذا الزمان)، (تحقيق): كامل ســـلمان الجبـــوري، ج٥، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.
- الصفدي: الوافي بالوفيات، (تحقيق): جماعة من العلماء ، ج ٧، دار النشر فرانز شتايز شتوتغارت(النشرات الإسلامية)، ١٩٦٢ـــ ٢٠٠٤.
- أبو الطيب الباخزري: دمية القصر وعصرة أهل العصر ، تحقيق: محمد التونجين ج١، ط١، بيروت، دارالجيل، ١٩٩٣.
- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمـــري ، ج ٧١، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥.
- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ص ٩٨٨- ٩٩١ ؛ و الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (تحقيق): بشار عواد معـــروف، ج ١١ ، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٣.

- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (تحقيق) عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ج٨، دار ابن كثير، ط١، دمشق — بيروت، يناير ١٩٨٦ .
- العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، (القسم العراقي)، تحقيق: محمد بهجت الأثري، ج١، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٥.
- العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر)، تحقيق: أحمد أمين وآخرون، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥.
- أبو العلاء المعري: سقط الزند، بيروت، دار صادر ، ١٩٥٧.
- علي بن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، دار الطباعة الأميرية المصرية، ١٨٦١.
- أبو الفرج الجوزي: المنتظم من تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت،طبعة الأولى، ١٩٩٢.
- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، (تحقيق): تحقيق جماعة من العلماء بإشراف : محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢٠، دار الكتب المصرية: القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٩٢٩ — ١٩٩٤.
- أبو الفضل المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .
- المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج١، المطبعة الوهبية، ١٢٤٨هـ.
- محمد بن حسن بن علي بن حمدون، التذكرة الحمدونية ، تحقيق : إحسان عبّاس، بسكر عبّاس، ج٩، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- محمد بن أمين المحبي: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق: عبد الفتاح الحلو،ج٢، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧.

- محمد بن حميد النجدي: السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، تحقيق: بكر بن عبدالله أبو زيد، د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، ج٣، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦.
- المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج٥، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨.
- أبي منصور بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٣.
- النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مجموعة من العلماء، ج١، دار الكتب المصرية والوثائق القومية، ط١، ١٩٣٢ـــ ١٩٩٧، ص ٢٥٥.

ثانيًا- المراجع:

- أحمد آق كوندز، سعيد أوزتوك، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، إستانبول، ٢٠٠٨.
- بوغانوف، حياة بطرس الأكبر، ترجمة : خيري الضامن، دار التقدم، موسكو، ١٩٩٠.
- فراس البيطار، الموسوعة السياسية والعسكرية، ج ٣، دار أسامة للنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠٣.
- فولتير، الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر، تعريب،أحمد بن محمد عبيد الطهطاوي، إشراف، رفاعة بدوي رافع أفندي الطهطاوي، سلسلة أوائل المطبوعات، العدد الأول، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٣.
- كاترين الثانية، أشهر الخاطئات من صاحبات التيجان، قصة تاريخية، ترجمت خصيصًا لمجلة الهلال، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٢٢.

- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: د. إحسان حقي، ط١، دار النفاس، بيروت، ١٩٨١.

ثالثًا – المعاجم والقواميس:

- رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ط١، ج٩، (ترجمة: جمال الخياط)، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٩.
- محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، ق٢ (البلاد الحالية)، ج٢ (مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.
- مصطفى عبدالكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٤، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤.
- ابن منظور، لسان العرب، ط٣، بيروت، ، دار صادر، ١٤١٤هـ.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧.
- ياقوت الحموي: معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ج ١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ .

رابعًا– الدواوين:

- ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب ٢٤، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.
- ديوان أبي تمّام الطائي(ت ٢٣١ هـ)، (فسّر ألفاظه اللغوية): محيي الدين الخيّاط، (طبع بمناظرة والتزام): محمد جمال، نظارة المعارف العمومية، نومرو ٤١٣.

- ديوان حيص بيص، تحقيق: مكي السيد جاسم، شاكر هادي، ج٢، العراق، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٤.
- ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تحقيق: أحمد الشال، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، بورسعيد، ط١، ٢٠١٤.
- ديوان ابن الرومي ، ط٣، دار الكتب المصرية ، ٢٠٠٣.
- ديوان ابن سهل الأشبيلي، تحقيق: أحمد حسنين القرني، المكتبة العربية، مصر، ١٩٢٦.
- صفي الدين الحلي: ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر ، بيروت، د.ت.
- ديوان كثير، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧١.
- ديوان ابن نباتة المصري الفاروقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.



محتويات الكتاب